المقتطف

مجلة علمية صناعية زراعية

الجزء الرابع من المجلد الثاني والثمانين

١ ابريل سنة ١٩٣٣ — ٦ ذي الحجة سنة ١٣٥١

التكنوقراطية والازمة

نقدها للنظام الصناعي والاقتصادي ومقترحاتها

يراد بالديموقراطية حكومة الشعب . وبالارستقراطية حكومة الخاصة . اما التكنوقراطية Technocracy فهي حكومة رجال الفن اذا انسحبت لفظة الفن على الصناعة والهندسة والعلم والاعمال الميكانيكية واساليبها بوجهٍ عام Technology . والظاهر ان اول رجل استعمل لفظة التكنوقراطية كان المستر وليم سمث Smyth احد مهندسي ولاية كاليفورنيا الاميركية . فاطلقها سنة ١٩١٩ على نظام جديد من الحكم والفلسفة التي من وراء هذا النظام . ثم طويت اللفظة . على ان جماعة من المهندسين والاقتصاديين وعلى رأسهم مهندس يدعى هورد سكُت Scott (ومنهم شنيتر المتنبئ الكهربائي وثورشتين فبلن الاقتصادي الثائر — وقد توفيا — ومهندسان معماريان من مهندسي نيويورك) ، اتصلت بقسم الهندسة الصناعية في جامعة كولومبيا من بضع سنوات فاتفق الفريقان على اجراء بحثٍ عام في احوال الصناعة في قارة اميركا الشمالية ، غرضهُ معرفة مقدار الطاقة التي زاد استعمالها في الصناعات المختلفة في خلال مائة سنة واثر ذلك في مقدار الانتاج وعدد العمال العاملين والعاطلين . ومضيا في بحثهما على الطريقة العلمية المعهودة في هذه المباحث ، الى ان كان شهر اغسطس من السنة الماضية فتسرّبت بعض الاقوال عن الحقائق التي قيل ان الفريقين كشفا عنها ، الى بعض الصحف فنشرها الكتّاب مهوّلين بها ، فاصابت اوتار النفوس الحساسة . واذا لفظة التكنوقراطية ، بين ليلة وضحاها ، كأنما هي موجة من السحر ، قد اكتسحت الولايات المتحدة الاميركية من اقصاها الى اقصاها ،

واذا الصحف والمجلات تبحث عمن يحبّر لها المقالات في هذا الموضوع ، واذا المطابع تخرج الكتاب تلو الكتاب ، في المجادلة التكنوقراطية ومقدماتها ومعانيها ومراميها وغير ذلك . واذا الناس يرون بفعل السحر في دعاوي التكنوقراطيين خروجاً من مآزق المجتمع الحديث القائم على الصناعة وفنونها . وكان لا بدّ ان يقع الخطأ في بعض ما كتب في الموضوع على عجل ، وخصوصاً ما كتبهُ صحافيون متصلون باصحاب المذهب الجديد ، معتمدين على ما التقطوه من افواههم او خيّل اليهم انهم فهموهُ من مبادئهم . فكثر النقّاد وتألبت السيوف للطعن والردّ . ورأى فريق جامعة كولومبيا ان المسألة خرجت من دائرة البحث العلمي الى ميدان النضال السياسي والصحافي ، فاعلن انفصاله عن فريق سكُتْ وعزمهُ على المضي منفرداً في البحث حتى تمامه

والناس في كل العصور يميلون الى تصديق مُتَنَبِّئَة الشؤم . فاذا بدا لهم خطأ او انحراف في افواهم انقلبوا عليهم شرّ منقلَب . وسكُتْ لم يشذّ عن هذه القاعدة العامة . فالازمة في اميركا آخذة بخناق الناس من كل الطبقات الاجتماعية ، والنقم في نظر التكنوقراطيين واقع على الآلة والصناعة الآلية ، والنظام القائم عليهما لن يدوم في رأيهم عقداً آخر من السنين ، وانهُ ما دام هذا النظام قائماً فلا منجوحة عن زيادة العمال العاطلين ، وانهُ اذا القيت مقاليد الاجتماع الاميركي الى المهندسين والعلماء ، خرجوا بالناس من المأزق وقلبوا نظام الاسعار والصلة والمعاملة ووضعوها على اساس جديد . فتعلق الغرقى بحبال الامل . فلما كشف النقاد عن بعض الاخطاء في ما عزي الى التكنوقراطيين ، انقلب الناس على سكُتْ وتنكّروا لهُ ، حتى تلاميذهُ في كولومبيا اعلنوا انفصالهم عنهُ

على ان التكنوقراطية تجعل لنا لباب المشكلة التي تعانيها الحضارة الغربية الآن . واهمال العناية بهذه المشكلة نهايتهُ الخراب الذي تبدو نذرهُ على الافق . ومن هنا اهتمامنا بتوضيح المبادىء الاساسية التي ينطوي عليها هذا المذهب الحديث

تبدّت مساوئ الصناعة الحديثة للمفكرين في مطلع هذا القرن . فلم يحيروا معها عملاً او منفذاً للخلاص ، لان رجال الصناعة ومن ورائهم رجال المال كانوا اصحاب السيطرة الفعلية في الاجتماع الحديث . فتجاهلها الشعراء . وتسامى عنها الفلاسفة . حتى زعماء الشيوعية ، الذين يؤمنون بالآلة في تخفيف العناء البشري ، لم يجدوا في الصناعة كما تمارس ، مسوغاً ايجابيّاً واحداً للاحتفاظ بها ، فعمدوا الى التنديد بمساوئها ، وجنّ بضاعتهم التنبؤ بنهاية الرأسمالية واستبداد المموّلين بالعمال . فلما كان العقد الثالث من هذا القرن اتجهت الصناعة اتجاهاً جديداً ، فبدا للمفكرين الذين يراقبون سيرها ، ان الصناعة سائرة بالاجتماع الى حالةٍ تحلّ فيها الآلات محلّ العمال ، وان النتيجة اللازمة التي يفضي اليها هذا السير تحتمل احد امرين : اما حضارة يقلّ فيها نصيب الناس من العمل ويزيد قسطهم من التمتع ، او اجتماعٌ يعجز فيهِ ربع

القادرين على العمل عن وجود مرتزق فيعيشون عالة على الحكومة والأمة او على احسان المحسنين وتأييد هذه النظرة الاجتماعية بالارقام والاحصاءات هو لباب التكنوقراطية

العمال والآلات

يعرّف التكنوقراطيون «التحول الاجتماعي» بكل تحوّل يحدث اذا اختلف نصيب الفرد من الطاقة المستعملة في الانتاج والاستهلاك. فهم لذلك يحدقون من تاريخ الانسان السبعة آلاف السنة السابقة للقرن التاسع عشر. فمقدار الطاقة التي كانت تستعمل في العصور القديمة — طاقة عضلات الرجال والحيوانات — لم يصبه الا تغير يسير حتى استنبطت الآلة فزادت الطاقة زيادة عظيمة. في الولايات المتحدة الآن آلات تولّد ما قدره ألف مليون حصان من الطاقة الميكانيكية كل يوم وهي تفوق الطاقة العضلية التي يولّدها كل سكان الارض خمسة اضعاف

ثم انهم يشيرون الى ان سكان الارض زادوا في المائة والخمسين السنة الاخيرة من ٨٥٠ مليوناً الى ١٨٠٠ مليون في حين ان الطاقة الميكانيكية اللازمة لانتاج ما يحتاجون اليه زادت زيادة عظيمة. والآلة التي تولد الطاقة الميكانيكية تحلّ محلّ الرجل الذي كان يولّدها باستعمال عضلاته بل هي تحلّ في كثير من الاحيان محل العامل البارع دع عنك العامل القوي

فالحقيقة التي تستخرج من احصاءات التكنوقراطيين وجداولهم: ان التوسع العظيم في الانتاج يصحبه نقص عظيم في استخدام العمال، وان هذا النقص آخذ في الازدياد، حتى لقد يبلغ قريباً الصفر؛ اذ تصبح الآلات التي تكاد تكون عاقلة في كفايتها — في مصنع ما — لا تحتاج الا الى بضعة رجال للاشراف على الازرار التي تديرها. وعليه فالازمة الحالية، ليست موجة وتمرّ، بل هي ازمة لا مندوحة عن استمرارها في ظل النظام الحالي

كان في الولايات المتحدة الاميركية سنة ١٩٣٢ نحو من ١٤ مليوناً من العمال العاطلين. والتكنوقراطيون يقولون بان العاطلين سوف يبلغون سنة ١٩٣٤ نحو من ٢٥ مليوناً. وان ما يتفتح امام العاطلين من ابواب العمل في الصناعات المتحدة لا يكفي، لان هذه الصناعات نفسها خاضعة لتقدم اساليب الصناعات فيها، والاتجاه في هذه الاساليب، هو نحو جعل الآلة «اوتوماتيكية» أي ان تقوم من تلقاء نفسها بما هو مطلوب منها. وان صفوف العمال العاطلين سوف تتضخم اذ تبدد المعامل آلاتها القديمة وتستبدل بها آلات على احدث طراز

والى القارىء بعض الاحصاءات المفصلة عن صناعات اميركية زاد فيها الانتاج في خلال مدة معينة زيادة كبيرة، ولكن نقص عدد العمال فيها في خلال المدة نفسها، لان الآلة أغنت عن خدماتهم. والمدة هي سنة ١٩٢٣ — ١٩٢٧

الصناعة	زيادة الانتاج او نقصه	نقص العمال او زيادتهم
النفط (البترول)	٨٤ في المائة زيادة	٥ في المائة نقصاً
التبغ	٥٣ » »	١٣ » »
صناعة الحبوب وحفظها	٢٠ » »	١٩ » »
السكك الحديدية	٣٠ » »	١ » »
البناء (ولاية اوهايو)	١١ » »	١٥ » »
السيارات	٦٩ » »	٤٨ » زيادة
الكهربائية	٧٠ » »	٥٢ » »
الورق	لا زيادة ولا نقص	٧ » نقصاً
الاحذية	٧ في المائة نقصاً	١٢ » »
مغازل القطن	٣ » زيادة	١٣ » »
الفحم	٤ » »	١٥ » »
الاحتطاب	٦ » »	٢١ » »

العمال والمستنبطات

ولكي يؤيد التكنوقراطيون دعواهم بان المستنبطات الحديثة تحل محل القديمة في المعامل والمصانع ، وان الصناعة بوجه عام تميل الى الاخذ بالآلة الاتوماتيكية يشيرون الى احصاءات مصلحة تسجيل المخترعات الاميركية . ففي المدة الواقعة بين سنة ١٨٥١ — ١٨٥٥ منحت هذه المصلحة ٦٠٠٠ امتياز . اما في المدة الواقعة بين سنة ١٩٢٦ — ١٩٣٠ فمنحت ٢١٩ الف امتياز . واذا اخذنا بالاساليب الزراعية السائدة في الولايات المتحدة سنة ١٨٣٠ تبين لنا ان محصول الحنطة الاميركية في سنة ١٩٢٩ كان يقتضي عمل ٦٠٠٠٠٠٠ عامل . اما اليوم فأربعة آلاف عامل فقط يكفون لذلك اذا استعملت المحاريث والحصادات وغيرها من الآلات الحديثة . وقد بلغ من عناية اصحاب المصانع باستخدام الآلات المغنية عن العمال لتخفيض نفقات الانتاج مبلغاً عظيماً حتى اذا عادت كل المعامل الاميركية الى العمل لما تمكنت من استخدام اكثر من سبعة ملايين عامل — وهو نصف عدد العاطلين في اميركا الآن — لتنتج ما انتجته سنة ١٩٢٩

وقد احصى التكنوقراطيون هذا الاتجاه في صناعات مختلفة نكتفي بذكر بعضها للتمثيل دون الحصر . ففي سنة ١٨٩٢ كان في البلاد الاميركية ٩٠٠٠ مطحنة دقيق اخرجت ٤٧١ مليون جريب[1] (بشل) وعدد عمالها كانوا ٣٢ الفاً . اما في سنة ١٩٢٩ فكان عدد المطاحن ٢٩٠٠ اخرجت ٥٤٦ مليون جريب في حين ان عدد العمال لم يزد على ٢٦٤٠٠ عامل . وفي سنة ١٩٠٠ كان

(١) مكيال من مكاييل الحرب وسعته لكلة بشل Bushel

يقتضي اخراج طن من الصلب عمل سبعين عاملاً اما في سنة ١٩٢٩ فكان اخراج الطن لايقتضي الا عمل ١٣ عاملاً . وفي صناعة السيارات كان صنع سيارة واحدة سنة ١٩١٩ يقتضي ٥١٣ ساعة من عمل العمال اما في سنة ١٩٢٩ فكان صنع السيارة لايقتضي اكثر من ٩٣ ساعة من عمل العمال والباقي احيل على الآلات

ثم ان التكنوقراطيين يشيرون الى انهُ في امكان اصحاب الصناعات ، ان يبنوا مصانع منها مايصنع ١٠٠٠٠ جسم من اجسام السيارات ولا يستخدم في صنعها الا ٢٠٨ من العمال وان واحداً من هؤلاء العمال فقط يستطيع ان يشحن اجسام السيارات كلها على مركبات النقل . ومنها مصنع كامل للتحرير الصناعي لا يحتاج الى أي عامل . وانهُ اذا اشتغل رجلٌ الآن مستعيناً بكل الوسائل والمستنبطات الميكانيكية الحديثة اخرج من المصابيح الكهربائية في ساعة من العمل ماكان يقتضي سنة ١٩١٤ نحو ٥٥٠ ساعة عمل . ومن الصلب ماكان يقتضي ٦٥٠ ساعة عمل في انكلترا سنة ١٨٨٥ . ثم ان معامل لفائف التبغ (السجائر) تمكن العامل الواحد ان يصنع الآن ٣٠٠٠ سيجارة في الدقيقة مع انهُ كان لايستطيع من سنة واحدة ان يصنع في الدقيقة اكثر من ٦٠٠ سيجارة . وكلُّ ما تحتاج اليهِ اميركا من الطوب يمكن ان يصنعه مائة رجل يشتغلون شغلاً متواصلاً مستعينين بالآلات . وفي بعض مصانع الصوف يوضع الصوف الخام في ناحية من آلة ويخرج من الناحية الاخرى كُبُباً من غزل الصوف الملوّن والمنسوج المعدّ للبيع في السوق . واحدث الآلات المستعملة في رصف الطرق تستطيع بادارة رجلين فقط ان تقتلع سطح طريق قديمة وترصف طريقاً جديدة طولها ٨ اميال وعرضها ٦٠ قدماً في يومٍ واحد . وليس ثمة نهاية لما يعدّدونهُ من هذا القبيل

ثم ان هنالك ما هو ادهى مما تقدّم . ففي امكان صناع شفرات المواسي ان يصنعوا شفرات نفقة صنعها ٢٠ في المائة اكثر من نفقة شفرات جيليت ولكنها تكفي مستعملها مدى حياته من دون ان يضطرّ الى سنّها . وفي الامكان صنع سيارات تدوم ٦٥ سنة وتقطع ٣٠٠ الف ميل من دون ان تحتاج الى ترميم . ثم ان هنالك نباتاً جديداً يدعى « remie » لهُ فتلة كفتلة الكتان او من قبيلها ينتج الفدان منهُ في ثلاث غلالٍ سنوية ١٥٠٠ رطل انكليزي وطول فتلتهِ ٢٢ بوصة ، يمكن ان يقطع ويحرم بآلة ، فاذا نسج كان امتن من الصوف سبعة اضعاف وهو ارخص وامتن من ربِّ النبات لصنع الورق ولهُ لمعة كلمعة الحرير او الكتان . فاين تذهب مصانع النسج اذا استعمل هذا النبات ؟ ثم ان مصانع الاحذية اذا استبدلت بآلاتها القديمة آلات جديدة تمكنت من ان تصنع في ثمانية اشهر احذية تكفي سكان اميركا مدة عشر سنين

علل النظام الصناعي

على هذه الاحصاءات بنى التكنوقراطيون ثلاثة مبادىء هي اركان مذهبهم :—(اولاً) ان

الثروة نتيجة للطاقة الآلية كانت او ميكانيكية . فالثروة يجب ان تقاس بوحدات الطاقة لا بالجنيه والريال . و ثانياً) ان نصيب الانسان في انتاج البضائع أخذ في عصر الآلة هذا ، ينقص نقصاً سريعاً بزيادة الآلات التي تستغني عن العمال ، ونقص نصيب العمال في الانتاج انقص نصيبهم في استهلاك منتجات الصناعة . (ثالثاً) ان نظام الاسعار السائد الآن ، قد جعل عبء الديون العمومية عبئاً فادحاً يكاد يقصم ظهر المجتمع الحديث ويعيق الصناعة عن بلوغ مداها الطبيعي ويمنع جمهور الناس من استهلاك ما كانوا يستهلكونه عادة لو الغيت الديون وبدلت الثروة العادية ووحدها الجنيه والريال وغيرهما بثروة اساسها وحدات الطاقة

قد مرَّ بنا ما يكفي لتأييد المبدإ الاول . فالانسان في فجر حياته الاجتماعية كان يعتمد على قوة عضلاته في القيام بما ينشأ من العمل ، ثم استنبط العجلة والعتلة والشراع ودولاب الهواء . ولكن ذلك كلَّهُ لم يزد قوتهُ العضلية شيئاً أزاء الزيادة التي اصابها بعد ما استنبطت الآلة البخارية وما تلاها من المحركات الكهربائية وآلة الاحتراق الداخلي . فصانع الاحذية في روميه القديمة كان يفني ما متوسطهُ خمسة ايام ونصف يوم في صنع حذاء . ولكن صانع الاحذية في المصنع الحديث يصنع — بمساعدة الآلات — ما متوسطهُ ٦٧٠٨ احذاء في اليوم نفسها . وكان الطحّان في رومية واثينا يصنع جوالاً الى جوال ونصف من الدقيق في اليوم بطحن الحنطة بحجري رحىً . اما الطحّان في مطحنة حديثة في مدينة منيابوليس او مثلو فيخرج — بمساعدة الآلات — ما متوسطهُ ٣٠٠ الف جوال في اليوم من دقيق يفضل الدقيق الروماني او الاثيني في جودة طحنه . الخ

وعليه فالطاقة التي تولدها الآلات وتستعمل في انتاج البضائع هي العامل المسيطر على حياة العالم الاقتصادية . اما أثر طاقة الانسان في هذه الحياة فآخذة في النقص السريع

والتقدم في استعمال الطاقة قد هدم النظام القائم على قياس الثروة بالعملة المبنية على الذهب او الفضة او الاعتمادات المالية ، فلا امل في ترميمه . ذلك ان هذا النظام يجعل نصيب العامل من الاستهلاك متوقفاً على العمل الذي يؤديه . في حين ان نظام الصناعة نفسهُ اصبح لا يحتاج الى عمله . ومعظم العمل الذي يعمل في انتاج البضائع تقوم به آلات تُسيَّر بطاقة مولدة من الفحم او الماء او غير ذلك من مصادر الطاقة . واجرة هذا العمل يتولى عليها اصحاب المصانع ومديروها ويحرم منها العامل لان المصنع الحديث اصبح في غنىً عن طاقته

ولكن اصحاب المصانع ومديريها اقلية يسيرة في كل البلدان ، تتجمع في ايديهم ، في ظل نظام الاسعار القائم ، مقدرة عظيمة على الاستهلاك ولكنهم لا يستعملونها ، في حين ان الجماهير التي تستطيع ان تستهلك لا تملك وسائل الاستهلاك وهي العملة . وبدلاً من ان يستعمل اصحاب المصانع ومديروها اموالهم في الاستهلاك يعيدون تثميرها في بناء مصانع جديدة ، وكذلك تزيد مقدرتهم على الاستهلاك من دون ان يكون لهم سبيل الى انفاقها . والنتيجة الحتمية

لهذا النظام اتساع المصانع وكثرتها وزيادة ماتنتجهُ على مايمكن ان يستهلك . ومن هنا تنشأ الأزمات الطاحنة التي تدور كحجر الرحى من كثرة في الانتاج او قلة في الاستهلاك الى هبوط في الاسعار الى عطل عن العمل الى ركود في النشاط الاقتصادي الى تراكم في الديون الى انهيار ودمار

﴿ علاج التكنوقراطيين ﴾ اما وقد مني « نظام الاسعار » القائم ، بالخيبة ، فيرى التكنوقراطيون ان تحلَّ « وحدة العمل » في قياس الثروة محل «وحدة العملة» — الجنيه او الدولار او الفرنك — . فيقدَّر عمل الانسان في يوم طولهُ ثماني ساعات بمليون وخمسمائة الف « رطل قدم »[1] مثلاً . وكذلك تقاس كلُّ ثروة بمقياس واحد . وهذا المقياس لا يتقلب كما تتقلب اسعار العملة . ويرون لتطبيق هذا الاقتراح ان تلقى مقاليد الامور لرجال الفن — لا للعمال على ما هي الحال في روسيا — فيوزعون هذه الثروة على السكان توزيعاً متساوياً . فكل بالغ سليم الجسم عمره بين ٢٥ و ٤٥ سنة يرتبط مع الحكومة بعقدٍ على ان يتمَّ عملاً معيناً مشتغلاً ٤ ساعات في اليوم او ٦٦٠ ساعة في السنة . ويمنح لقاء ذلك الحق بتناول البضائع او الاشياء التي يريدها او يحتاج اليها — وكل منها مسعَّر بوحدات الطاقة — ويدفع ثمنها من نصيبهِ في وحدات الطاقة التي يأخذها لقاء العمل الذي يعمله . ثم انهم يقترحون للموازنة بين الانتاج والاستهلاك ان يمنح كل انسان قدراً متساوياً من «عملة الطاقة» من غير نظر الى العمل الذي يعمله فيشتري حذاءه بمائة «وط»[2] مثلاً ، وثوباً لزوجتهِ « بألف وط » وعلمٌ جرًّا . ويقدرون ان دخل الفرد بحسب هذا النظام يعدل ما كانت قيمتهُ ٢٠ الف ريال في سنة ١٩٢٩ وعليهِ فستوى المعيشة الذي ينشأ في ظل هذا النظام يمكن الاحتفاظ بهِ مدى ثلاثة آلاف سنة ، تقلُّ في خلالها ساعات العمل رويداً رويداً بتقدم الاساليب الصناعية ، من دون ان يقلَّ الدخل ، وتتسع ساعات الفراغ للتمتع بمطالب الحياة العليا من ثقافة وفن وعلم ونزهة ورياضة وغيرها . ولا يصح لاحد بالتوفير او تثمير المال الموفر ، لان الثروة بحسب هذا النظام قائمة في الاستهلاك لا في المِلْك

نقد التكنوقراطية

يقوم نقد التكنوقراطية على ثلاثة اركان . اما الاول فنقد الاحصاءات التي بنيت عليها مبادئهم . وقد ثبت الآن ان بعض ما عزي اليهم من هذه الاحصاءات فيهِ خطأ يسير او كبير . وان طائفة كبيرة من آرائهم ظهرت قبلاً في كتاب « فيلن » (المهندسون ونظام الاسعار) وكتاب صُدي (الثروة والثروة الحقيقية والدين) . فقد قيل اولاً ان ما ينتجهُ الرجل الواحد من الصلب في سنة ١٩٢٩ يفوق ٣و٩ ما كان ينتجهُ العامل سنة ٧٨٧ : وصحة ذلك ان هذه النسبة تبين ما كان ينتجهُ العامل في ساعة واحدة من العمل — لا ما ينتجهُ الرجل الواحد — في

(١) وحدة عمل (٢) وحدة طاقة

السنتين المذكورتين . وقيل ان العامل في صناعة الحديد الزهر ينتج الآن في ساعة ما كان يستغرق ٦٥٠ ساعة من خمسين سنة وصحته ان النسبة ٤٧ : ١ وقيل ان صانع المصابيح الآن يصنع ٩٠٠٠ مصباح الآن ازاء كل مصباح كان يصنع سنة ١٩١٤ . والصواب ان النسبة ٥٥٠ : ١

اما الثاني فنقد النتائج التي خلصوا اليها من هذه الاحصاءات . فهم يقولون ان ملايين من العمال قد اصبحوا عاطلين لان التقدم الصناعي والآلي جعل المصانع في غنى عن طائفة كبيرة من العمال . ولكن الدكتور وستر (Wooster) استاذ الاقتصاد في كلية اوبرلين الاميركية نشر احصاءات رسمية للعمال العاملين في سنة ١٩٢٠ و ١٩٣٠ فاذا مجموعهم في الاولى ٤١٫٦١٤٫٢٤٨ واذا مجموعهم في الثانية ٤٨٫٨٢٩٫٩٢٠ فكان العمال العاملين قد زادوا في سنة ١٩٣٠ عن ١٩٢٠ رغماً عن تقدم الصناعة وارتقاء اساليبها . وانما جل ما حدث ان توزيعهم على الصناعات المختلفة في ١٩٣٠ غير ما كان عليه سنة ١٩٢٠ فهو اقل الآن ، في الزراعة والتحريج والتعدين وصيد السمك واكثر في الصناعات الباقية

واما الثالث فنقد فهمهم للمبادىء الاقتصادية الاساسية . فهم يقولون ان الديون العامة والخاصة تنقل كاهل الصناعة وتعيق عن الانتاج وتعلل يد المستهلك الصغير . ولكن نظام الانتاج يقتضي نظام الدين . فاذا صنع المنتج بضاعته قبل شرائها حتى تكون جاهزة لدى طلبها كان المستهلك مديناً له حتى يشتريها منه . واذا دفع المستهلك ثمن البضاعة قبل صنعها كان المنتج مديناً للمستهلك حتى يعد له ما طلب . وقد يدخل اصحاب البنوك بين الفريقين لحمل دين هذا او دين ذاك بفائدة يسيرة او كبيرة ، ولكن الدين لا بد منه سواء كان بالريالات الذهبية او بوحدات الطاقة والعمل . اما تسديد الديون فلا يتم في الغالب بدفع النقود بل بتبادل البضاعة والخدمات ، وشطب القيد المقابلة في الدفاتر . وما نشهده من الخلل الآن في تسديد الديون يعود الى اسباب نفسية في الغالب ، نشأت عنها الحواجز الجمركية فسدت مساري التجارة الطبيعية

وملخص نقد التكنوقراطية في قول الاستاذ وستر : — « ان حقائقها غير تامة في مواطن كثيرة ، ومبالغ فيها في مواطن اخرى وموسومة كلها بسمة الشك في صحتها . ومنطقها فاسد . واصحابها يتشوفون الى عالم اصلح من عالمنا ، هازئين بالاشتراكيين الذي تقلوا ضيم معظم افكارهم وهم لا يعلمون » . وفي قول المستر ستروتسكي في جريدة التيمس النيويوركية : — « ان الرجال الذين اجروا البحث في استعمال الطاقة في الولايات المتحدة الاميركية ، مهندسون بارعون اذا نظرنا اليهم يقومون باعمالهم التي توفروا على درسها . ولكنهم في اذاعة آرائهم الاجتماعية خرجوا من صفوف العلماء ورجال الفن ، فاصبحوا ، مثلنا اذ نضع غرضاً معيناً نصب عيوننا ، سياسيين ومروجين » . وغني عن البيان ان الحكم على مصير التكنوقراطية متعذر الآن . ولكننا لا نرتاب قط في ان رجالها نهضوا في النفوس ، وحبوب العناية بالاخطار العظيمة التي تستهدف لها الحضارة الصناعية

فؤاد صروف

القس العالم

بريستلي مكتشف الاكسجين

اقصاه مائتا سنة على ولادته

شفاء الاحرار

في اوربا في العقد الاخير من القرن الثامن عشر ثورة عجتاحة تشل العروش وتقلب الاوضاع الاجتماعية. وفي عقول الباحثين سورة تدفعهم للبحث والاستكشاف . فهم في معاملهم مكبّون على ادواتهم القاصرة في سبيل الكشف عن اسرار الطبيعة . ولكن العقول الذكية يحفزها الشوق الى الحقيقة ، لا تحفل بالادوات . وأصحابها يلاقون ويلات السياسة وشدائد الاضطهاد بثغور باسمة وقلوب مطمئنة

لقد قرب موعد الاحتفال باكتساح الفرنسيين لمعقل الباستيل . وفي مدينة برمنغهام الانكليزية حفنة من احرار المفكرين يعدّون العدّات للاحتفال بعيد الحرية العظيم . فيجتمعون في هدوء ودعة ومن دون طبول او مشاعيل ، في دار معينة من دور المدينة . بين هؤلاء الاحرار ، قسٌ يدعى جون بريستلي ، انضم الى اخوانه ليحيي معهم ذكرى يوم خلّده التاريخ علماً على تحرير امة ، تربطهُ بها رابطة الجوار والانسانية

هو ذا يوم ١٤ يوليوسة ١٧٩١ وخارج الدار فارسان ومن ورائهما جمهور قلق صاخب. هو ذا احد الفارسين يقرأ وثيقة اعدّها احد مندوبي الملك : — « ان فريق البرسبتيريان (شيعة من البروتستانت) ينوي ان يثور . فهم يدبرون الوسائل لحرق الكنيسة . ولف البرلمان . ان قصدهم ان يشعلوا في البلاد نيران ثورة كثورة فرنسا . سوف يقطعون رأس الملك ويعلقونهُ امامكم . لعنهم الله . فغرضهم التنكيل بنا . فلنسحقهم قبل فوات الاوان » . وما ترددت في الجمهور الصاخب اصداء الملك والكنيسة حتى شبَّ عن الطوق . واذ الفارسان يرقبان في جذل مبلغ نجاحهما في استثارة الجمهور ، اندلعت ألسنة اللهب من دار جون بريستلي

كان بريستلي جريئاً في تأييده لكل قضية اقتنع بصحتها . وكانت الجمهورية الفرنسية الفتية قد انعمت عليه بلباب مجدها لما منحتهُ رعويتها الفخرية ، على اثر الرد اللاذع الذي وجههُ الى برك الكاتب والخطيب السياسي الانكليزي لما تهجم هذا على الجمهورية الفرنسية وتنقصها . هجم الجمهور الثائر على دار بريستلي وسدّد خطواته الى مكتبته فمزق كتبهُ وحرق مخطوطاته

ودمر كل ادواته العلمية تدميراً . ثم انقلب الى دار الدكتور وذرنغ Withering وغيره من اصحاب پريستلي حتى اضطر فريق منهم ان يكتب على عتبات دورهم «لسنا فلاسفة» لينجوا من ويلات الشغب . ولكن ذلك كله لم يكف الشعب الهائج . فانكفأ يطلب رأس پريستلي ودمه . على ان القس كان قد فرّ الى لندن . ولكن الشغب في برمنغهام دام ثلاثة ايام بلياليها ، يثير نيرانه طائفة من رجال الملك جورج الثالث اذ ظنوا ان هذا هو السبيل السوي لارهاب اصدقاء الحرية

كان پريستلي في برمنغهام ، قبل فراره الى لندن ، عضواً في جماعة علمية فلسفية تدعى « الجمعية القمرية » لانها جرت على تناول العشاء مرة كل شهر اذ يكون القمر بدراً ، لكي يسهل على اعضائها العودة الى دورهم في ظلام الليل . وكان من اعضائها ارازموس دارون جدّ دارون العظيم ووط المهندس الاسكتلندي وصانع اول آلة بخارية متقنة . وكانت مباحث الاعضاء تدور حول موضوعات العلم والادب والسياسة . فلما جاء لندن شعر بألم الوحدة ، لان معظم اعضاء الجمعية الملكية كانوا يتجنبونه لاسباب دينية او سياسية . فاستقال من الجمعية ، وفي نفسه مض وحرقة . وقد كانت مقاطعته فيها اشبه شيء بما فعلته الجمعيات الكيماوية الالمانية في الحرب الكبرى اذ شطبت من قوائم اعضائها الاجانب اعضاء اعظم الكيماويين البريطانيين . الى هذا الحد يبلغ جنون الناس ، حتى العلماء منهم في ازمنة الشدائد

واذ كانت مقاطعة الاورن الفرنسية تكرم پريستلي ، ابن الصوّاف الانكليزي ، بانتخابه عضواً عنها في الجمعية التأسيسية ، اقام هو قضية على مدينة برمنغهام ، طالب فيها بتعويض قدره اربعة آلاف من الجنيهات . فكتب الملك جورج الثالث الى احد وزرائه : « سرّني ان پريستلي عوقب عن المبادىء والتعاليم التي يذيعها . ولكنني لا اسلّم بالوسائل التي استعملها الجمهور للاعراب عن احتقاره له » وعرضت القضية على المحلفين فقاز فيها پريستلي ، وتفرّغ بعد ذلك للبحث العلمي

القس يصبح عالماً

ولد پريستلي في ١٣ مارس سنة ١٧٣٣ في فيلدهد على مقربة من مدينة ليدز بانكلترا . وكان والده من اتباع كلفن فاعدّه ولدها ليكون قسيساً . فلما تقدّم لرسامة رفض الآراء التي اعلنها في موضوع الخطيئة الاولى والعقاب الأبدي . ولكن لما كان بلغ الثانية والعشرين عين قسيساً لكنيسة صغيرة في صفوك « Suffolk » وجعل مرتبه ثلاثين جنيهاً في السنة . وكان يمقت التعليم . ولكن راتبه الضئيل حتم عليه ان يعلّم . فكان يدرس في مدرسة بين الساعة السابعة صباحاً والساعة الرابعة بعد الظهر . وكان يعطي دروساً خاصة بين الساعة الرابعة مساء والساعة السابعة . ثم في اوقات فراغه كان يعنى بوضع كتاب في قواعد اللغة الانكليزية . وكان ملم بلغات عديدة منها — عدا لغة بلاده — الفرنسية والايطالية والالمانية والعربية والسريانية —

فلما عهد اليه بعيد ذلك في تدريس اللغات في اكادمية انشأها بعض المتشيعين من احرار الدين حضر خطباً في مبادىء الكيمياء ودرس التشريح زمناً وحاول ان يلقي فيه سلسلة من المحاضرات

فلما كان في الرابعة والثلاثين من عمره عين قسيساً لكنيسة مِل هل في مدينة ليدز. هذا الرجل الفقير، المكافح في سبيل العيش المنبوذ من المجتمع لآرائه الدينية، المصاب بعاهة في النطق شبيهة بعاهة ديموستينيس، كان يجد وقتاً بين الاكباب على عمله الديني والتأمل في ما وراء الطبيعة، للنظر في شؤون الدنيا. وفي احدى زياراته لمدينة لندن اجتمع بيليامين فرنكلن، فحرّك فيه هذا الاجتماع شوقاً للبحث في موضوع الكهربائية فعوّل على وضع كتاب في تاريخ الموضوع. فكان ذلك بدء سيرته كعالم. قال: «وبدا لي في خلال كتابة هذا التاريخ ان احاول تحقيق بعض الاقوال المختلف فيها وهذا قادني رويداً رويداً الى ميدان رحيب من التجارب البتكرة فلم امسك عن انفاق كل ما استطيعهُ في سبيلها»

مكتشفات الدولي

يرتدُّ جانب كبير من شهرة بريستلي الى مصنع الجعة الذي كانت على مقربة من دارهِ في ليدز. كان يقضي وقت فراغهِ في هذا المصنع يبحث في فقاقيع الغاز الذي يتولد في اثناء صنع الجعة. فكان يشعل كبراً من الخشب ثم يقربها من فقاقيع هذا الغاز الذي لا لون لهُ، اذ تنفجر فوق براميل الجعة. كان ذلك العمل غريباً في حدّ ذاتهِ. فكيف به اذا صدر من قسّ ورع لذلك كان عمال المصنع يهزؤون برؤوسهم استغراباً وسخرية اذ يرونهُ مكبًّا فوق البراميل في حرّ الصيف الخانق. ولكنهُ لم يحفل بهم. كانت معرفتهُ الكيموية نزرة. ولكنهُ كان شديد الملاحظة. فلاحظ ان هذا الغاز يطفىء الكبر الخشبية المشتعلة. فظنَّ انهُ «الهواء الثابت» Fixed air الذي حضّرهُ تاجر الخمور الاسكتلندي جوزف بلاك، قبل ذلك بخمس عشرة سنة، باحماء حجر الجير في خلال بحثهِ عن دواء ناجع في اصداف القواقع، وهي الاصداف التي شفت رئيس وزراء انكلترا، ولبول Walpole من داء النقرس. فهل هذا الغاز الصاعد من براميل الجعة هو الغاز الذي يخرج من اصداف القواقع ويشفي من النقرس، ولما كان من المتعذر عليهِ ان يحصل على قدر كافٍ من هذا الغاز في مصنع الجعة حاول ان يحضّره في دارهِ. ثم حاول ان يحلّلهُ في الماء. فوجد ان حلّهُ في الماء ليس بالامر السهل. ولكن قليلاً منهُ يتحد بالماء، فيجعلهُ فوّاراً يصعب التفريق بينهُ وبين ماء سلتزر او ماء بريه. وتقدم الى الجمعية الملكية قائماً اعضاءها باكتشاف ما يعرف الآن «بماء السودا» الذي يشرب مع الويسكي ويحلُّ فيهِ قليل من الكبر وحامض الليمون فيصبح «كازوزه». فاحبت الجمعية بقولهِ، وطلبت اليهِ ان يعيد تجاربهُ امام «كلية الاطباء» فسرَّ بهذه الفرصة التي اتيحت لهُ فاغتنمها، فغدا امرُ

الغاز في الماء طلب الى بعض الحاضرين ان يذوقوه المحلول ، فدهشوا واقترحوا على امراء البحرية البريطانية استعماله لمعالجة الاسقربوط . ومنح بريستلي المدالية الذهبية جزاء له على هذا الاكتشاف

وانكفأ بريستلي الى داره يجرب تجارب كيماوية اخرى . فحاول ان يحمي ملح الطعام بزيت الزاج او الحامض الكبريتيك ، فحضّر مركباً كيماوياً عجز عن تحضيره من سبقه في هذه المحاولة . ذلك انهُ جمع الغاز الخارج من عذين المركّبين تحت ناقوس من الزجاج اسفلهُ مغموسٌ في الزئبق . ثم حاول ان يحلّ هذا الغاز في الماء ، فوجد الماء شديد الاتحاد به لذلك عجز عن تحضيره سابقوه . فأنهم حاولوا ان يحضروه تحت ناقوس اسفلهُ مغمور بالماء فكان الماء يمتصهُ . ولما حلّهُ بريستلي في الماء اكتشف الحامض الايدروكلوريك المستعمل الآن في صناعة القراء والجلاتين وفي تنظيف الاواني المعدنية

كذلك تمّ لاحد هواة العلم ان ينفح العالم بمركبين كيماويين من اشهر مركباته المعروفة !

وكانت رعية القس بريستلي تحيّرها عناية راعيها بالانابيب والانابيق . فكأنهُ كان يعبد الهين على مذهبين مختلفين . فارتفعت همسات الاستفهام حتى اصبحت كزمجرة التذمر . ولكن بريستلي كان مشغولاً عن ذلك بمباحثهِ الفتّانة فلم يسمع ما يقال . فانهُ بعد احماء ملح الطعام وزيت الزاج ، تحوّل الى ماء الامونيا يحميه ، فخرج منهُ غاز ثالث لا لون لهُ ، فجمعهُ كسابقه تحت ناقوس من الزجاج اسفلهُ مغمور بالزئبق . وكان لهذا الغاز رائحة خاصة حرّيفة . وملأت ابخرة الغاز غرفتهُ وهو مكبٌّ فوق الموقد يذكي النار . فكان في تجاربهِ تلك يستخرج للناس المعارف الدقيقة الاولى عن صفات غاز الامونيا النقي — الذي استعمل في العصر الحديث في صناعة التبريد والتثليج Refrigeration . كانت الابخرة قد احاطت بهِ من كل جهة فاحسَّ بحرقة بعينيهِ ، وبدموعهِ مهمرة ، وشمَّ سكان الدار رائحتها الحريفة ، فغادروا المنزل الى الخلاء . ولكن ذلك لم يزعجهُ . ثم جمع بين غاز الامونيا وغاز كلوريد الايدروجين فدهش لما رأى غيمة رمادية تتكون من التقاء الغازين ثم جعلت ترسب مسحوقاً ناعماً ابيض اللون . هنا تفاعل كيماوي عنيف . فالغازان الحريفان قد اتحدا فولدا مسحوقاً ابيض هو كلوريد الامونيا المستعمل في البطريات الكهربائية الجافة

كذلك اتيح للقس بريستلي ان ينفح العلم في خلال بضع سنوات بطائفة من المكتشفات الخطيرة . وهذا شجعهُ على انفاق كلّ ما يستطيع انفاقهُ من الوقت في معمله المرتجل . فآيات الكيمياء ملكت لبّهُ واذ مضى في التبشير بكلمة الله ، أخذت دوائر العلم تتساقط انباء القس الكيماوي . وما لبث حتى دعي الى مرافقة الرائد كوك المشهور في رحلته الى البحار الجنوبية فأغرتهُ الدعوة وكان على وشك القبول ، اذ اعترض على ضمهِ الى البعثة قسٌّ آخر ، لاختلافهما في الآراء الدينية ، فتخلف بريستلي واتمّ التجربة العظيمة التي اسبغت على اسمهُ ذكراً خالداً

التجربة الكبرى

كان بريستلي في خلال تجاربه المختلفة بالغازات قد اصبح بارعاً في تحضيرها وجمعها. فقد كان الباحثون قبله يحاولون جمع الغازات بعد تحضيرها في اكياس شبيهة بكيس البنون. وكانت هذه الطريقة صعبة التناول عقيمة لان مادة الكيس كانت غير شفافة فلا يستطيع الباحث ان يرى بعينه ما يحدث داخل الكيس. أما بريستلي فاستنبط الطرق المستعملة الآن. اخذ زجاجة ذات فتحة واسعة وملأها زئبقاً ثم قلبها غاطساً فتحتها في حوض من الزئبق. ثم وصل بين مولد الغاز والزجاجة بانبوب حتى اذا تولد الغاز انتقل في الانبوب ودخل منه في فتحة الزجاجة وتجمع فيها فوق مستوى الزئبق. فاذا كان الغاز لا ينحل في الماء استبدل بالزئبق ماء. ففي هذه الناحية من البحث ابدع بريستلي اسلوباً جديداً

وكان بريستلي قد أحمى طائفة متنوعة من الجوامد في لهب انبوبه. فحاول بعد ما تقدم أن يجمعها بجمع اشعة الشمس عليها بواسطة عدسة محدبة. وكان قد جرب هذه الطريقة فتمكن من حرق الخشب بها. فابتاع عدسة محدبة قطرها قدم وأخذ يستعملها في صب اشعة الشمس بواسطتها على جوامد مختلفة. فكان يضع الجسم الذي يريد توجيه الشمس اليه في ناقوس من الزجاج والعدسة خارجه لجمع اشعة الشمس عليه. ثم وصل بين الناقوس الذي يتضمن الجسم وزجاجة مصنوعة على طريقته لجمع الغاز كما تقدم، بانبوب حتى اذا خرج من الجسم الصلب غاز ما تمكن من جمعه ودرس خواصه

بهذه الطريقة المبتدعة حاول في يوم اول اغسطس (كان يوم احد) سنة ١٧٧٤ أن يستخرج الهواء من مركب يعرف بـ Mercurus Calcinatus Per se وهو مسحوق أحمر كان معروفاً لجابر بن حيان، باحمائه في الهواء فلم يلبث حتى وجد ان الهواء يخرج منه بسهولة

ولكن ذلك لم يكن أمراً عجيباً. فالباحثون كانوا قد سبقوه الى استخراج الغازات من الجوامد — إلا في سلزباخ بالمانيا قبل ٣٠٠ سنة واسطفان هالز الهولندي وروبرت بويل الانكليزي وشيل السويدي — وكلهم كانوا قد سبقوه الى استخراج الغازات من الجوامد باحمائها. ولكن بريستلي في عمله هذا كان يختلف عن اولئك الرواد!

كان على مقربة من بريستلي في معمله شمعة مضاءة. فلما تجمع لديه قليل من الغاز سأل نفسه: «ترى اي أثر لهذا الغاز في لهيب الشمعة؟» وللاجابة عنه اخذ الشمعة ووضعها داخل الناقوس الزجاجي الذي يحتوي على الغاز. فلم تنطفىء الشمعة. بل على الضد من ذلك تألقت ولمعت. فسر بما رأى ولكنه تحير في تعليله. وأخذ جمرة من الفحم ووضعها في الناقوس فرآها تتطاير شرراً. وبعد قليل رأى الجمرة قد تلاشت بدهش. ثم اخذ سلكاً

من الحديد واحماه حتى درجة الحمرة وأدخله في الناقوس فتألق السلك كأن به روحاً تنفخ فيه. فكاد لدهشته لا يدري أنائم هو او مستيقظ

ان ادخال تلك الشمعة المضاءة في ناقوس الغاز كان ايذاناً بانقلاب عظيم في علم الكيمياء. ولكن بريستلي حينئذٍ ما كان يدري طبيعة « الهواء » الذي اخرج من ملح الذئبق. وكان من أتباع مذهب « الفلوجستن » فحسب ان ذلك « الهواء » ليس الا مركباً من الفلوجستن والتراب والحامض التريك — ولكن ذلك « الهواء » كان غاز عنصر الاكسجين، الذي لا مندوحة عنهُ لكل حيٍّ على سطح الارض

كان الهواء الذي تتنفسهُ ، في رأي علماء ذلك العصر ، مادة بسيطة ؛ او عنصراً من العناصر ، كالذهب والذئبق. وكان بريستلي قد تخيَّل ان البراكين قد ولَّدت الهواء بنفثها غازات كانت قابلة للالتهاب في البدء ثمَّ فقدت قابليتها للالتهاب بفعل الماء ثم تنقت وتصفَّت بفعل النباتات . وخلص من ذلك الى القول بأن عالم النبات هو وسيلة الطبيعة لتنقية الهواء. ذلك انهُ اذا وضعت نباتاً في غرفة مقفلة فسد جوّها بتنفس الحيوان والانسان او باضاءة شموع فيها ولا يلبث هواء الغرفة حتى يصبح صالحاً للتنفس . وعلَّل هذه المشاهدة الصائبة بقوله ان الفلوجستن اذا اضيف الى الهواء باضاءة الشمعة او بتنفس الحيوان امتصتهُ النباتات فتنقى الهواء . على ان الطبيب دانيال رذرفورد ، الذي كان يشغل منصب استاذ النبات في جامعة ادنبره ، في ذلك العصر ، اكتشف مادتين من مواد الهواء وتمكن من ان يستخرج من الهواء مقداراً من الحامض الكربونيك، بجعل ماء الجير ان يمتصهُ فتحول من ماء صاف الى سائل لبني — والتعليل الكيماوي لذلك ان اكسيد الكربون الثاني يتحد بالجير فيولد كربونات الجير وهي راسب ابيض ناعم يجعل السائل لبنيًّا — ثم وضع حيواناً في غرفة محكمة القفل وجعله يتنفس فيها بعد استخراج اكسيد الكربون الثاني منهُ ، فوجد ان ما يبقى من الهواء نحو اربعة اخماسه وهو غاز لا نعلم كيماوي له. هذا الغاز اطلق عليهِ شابتال Chaptal اسم نتروجين لوجوده في النترات . وكان بريستلي قد قرأ عن هذه التجارب فاحمى قطعة من الرصاص في الهواء وجلس يراقبها وهي تحمرُّ رويداً رويداً فتحوَّلت الى مسحوق احمر فعالجهُ كما عالج ملح الزئبق من قبل . فقفز فرحاً اذ بحت له النتيجة . ذلك ان الغاز الذي خرج من ملح الزئبق خرج كذلك من ملح الرصاص . فتأكد الظن الذي كان يخالجهُ وهو ان هذا الغاز — الاكسجين كما دعي بعدئذٍ — الذي خرج من الملحين انما جاء اولاً من الهواء

الاكسجين والحياة

وفي ٨ مارس سنة ١٧٧٥ بدأ هذا القسُّ الحرُّ المفتون بالبحث العلمي تجربة غريبة في قصر لورد شلبرن Shelburne في بوود Bowood . كان في الليلة السابقة قد نصب للقسّ انخاخاً

يستطيع ان يستخرجها منها حيّة . ولكن اي شأن لمعلم المعقول ومهذّب النفوس بالفئران ! انهُ يرى فيها جلاءَ السرّ الغامض الذي يحيّر لبّهُ . ثم اخذ وعائين زجاجيين متماثلين ووضع في احدهما الغاز الخارج من اوكسيد والرصاص — الاكسجين — وفي الاخرى الهواء العادي ثم وضعهما في اناءين من الماء بحيث يغمر الماء حافتيهما السفليين. وفي اليوم التاني امسك باحد الفئران من عنقهِ وادخلهُ في الوعاء المحتوي على الهواء ووضعهُ على منصةٍ مرتفعة فوق الماء حتى لا يغرق . واخذ فأراً آخر ووضعهُ بالطريقة نفسها في الوعاء المحتوي على الاكسجين

وجلس بريستلي على كرسي امام الوعائين ، يعزف بالمزمار وهو يراقب الفأرين في داخل الوعائين من دون ان يعلم الى متى يدوم انتظاره . ولكنهُ وقف عن العزف فجأة اذ رأى الفأر الذي في الوعاء المحتوي على الهواء قد بدا عليهِ الضعف والاعياء. فرمى المزمار جانباً واخذ ساعتهُ بيدهِ فلم يمضِ ربع ساعة حتى سكن الفأر بعد ما فقد الشعور . فاسرع بريستلي واخرجهُ من الوعاء ولكن الامر كان قد قضي وانطفأت شعلة الحياة في الفأر . فالتفت حينئذٍ الى الفأر الآخر في الوعاء المحتوي على الاكسجين . فاذا هو لا يزال يتحرّك تحركاً طبيعيًّا وليس يبدو عليهِ اي امارة من امارات الاعياء . ومضت عشر دقائق وبريستلي يلازمهُ بنظرهِ . لقد بدت علامات الضعف عليهِ ، فهو خامل بطيء الحركة . فيسرع اليهِ بريستلي ويخرجهُ منه وهو يحسبهُ ميتاً . ولكن قلبهُ لا يزال ينبض نبضاً ضعيفاً . فيقربهُ من النار ليدفئهُ جسمه البارد فلا تنقضي بضع دقائق حتى تعود الحياة تدبُّ في عروقهُ . فيطير بريستلي فرحاً ودهشة . فالفأر الثاني قضى في الوعاء نصف ساعة قبلما بدت عليهِ اعراض الاعياء في حين ان الاول مات في نحو ربع ساعة

ما تعليل ذلك ، فهل الاكسجين انقى من الهواء العادي ، او هل يحتوي الهواء العاديُّ على مادة قاتلة للحياة . او لعلَّ ما حدث اتفاق لا يجوز الحكم عليهِ ؟ لم يغمض لبريستلي في تلك الليلة جفنٌ ، وهو يفكر في مسألة الفأرين والاكسجين . وخلص الى وجوب اعادة التجارب ليتثبت من صحة ما رأى وانهُ امر شامل للفئران جميعاً . وهذه التجارب أقنعتهُ بنقاء الاكسجين وفائدتهِ . ولو شاء لوقف في تجاربهِ عند هذا الحدّ . ولكنهُ كان عالماً مطبوعاً فعزم ان يجري التجربة نفسها عليهِ . فاستنشق قليلاً من الاكسجين فاحسَّ ان تنفُّسهُ خفيف . قال : شعرت ان تنفسي ظلَّ خفيفاً برهة بعد التجربة . ومن يدري ان هذا الهواء النقيَّ لا يصبح في المستقبل من المواد الكمالية المطلوبة فلم يجرّبهُ حتى الآن احد غيري وغير الفئران» . كذلك رأى بريستلي حينئذٍ بعين الخيال استعمال هذا « الهواء النقيّ » قال : « وقد يثبت ان الرئتين تحتاجان اليهِ في بعض الامراض » ونحن نعلم الآن ان الاكسجين يستعمل في اصابات الغرلة الصدرية اذ يحتقن جانب من الرئتين ويصح ما بقيَ منها سليماً، غير

كاف لحاجة التنفس . ثم ان رجال مكافحة الحريق حيث تكثر الغازات الخانقة وطوائف رجال الانقاذ الذين يدخلون المناجم ، وانطيارين الذين يحلقون الى مرتفعات قصية ، يحملون اسطوانات تحتوي على غاز الاكسجين لاستعمالهِ لدى الحاجة اليهِ

رأى بريستلي هذا قبل قرن ونصف قرن . ولكنهُ رأى كذلك ان استعمال الاكسجين بدلاً من الهواء ، من دون ضابط قد يفضي الى الخطر قال ، ما معناهُ : كما تحترق الشمعة في الاكسجين اسرع مما تحترق في الهواء كذلك اذا تنشقنا الاكسجين بدلاً من الهواء فقد تنقضي حياتنا اسرع مما تنقضي لو تنشقنا الهواء وحدهُ

ومضى المكتشف في امتحان نقاوة الغاز الذي اكتشفهُ . فخطر لهُ في اثناء ذلك خاطر عمليٌّ اذ رأى في استعمال الاكسجين وسيلة لزيادة قوة النار بجعل الوقود تشتعل بالاكسجين بدلاً من ان تشتعل بالهواء . وجرّب هذه التجربة بمشهد من صديقه مجلاّن سليل الرائد المشهور . اذ اخذ كيساً من المرقّ وملأهُ اكسجيناً ثم جعل يضغط على الكيس فيخرج الاكسجين من فتحته ويهبُّ فوق قطعة مشتعلة من الخشب . فتتحول لهيبها الضئيل الى لهيب متأجج . في هذه التجربة جرثومة الاستنباط الحديث الذي يستعمل في لحام الفلزات . وفي هذا السبيل فقط يستعمل الف مليون قدم مكعبة من الاكسجين كلَّ سنة

***

كان لورد شلبورن قد منح بريستلي معاشاً سنويًّا قدره ٢٥٠ جنيهاً وبيتاً صيفيًّا في كالن وآخر شتويًّا في لندن على ان يبقى ملازماً لهُ مديراً لمكتبه ورفيقاً ادبيًّا لهُ . ودامت هذه الصلة ثماني سنوات اتمَّ بريستلي في خلالها اهم تجاربهِ . فلما سافر لورد شلبورن لزيارة بلدان اوربا صحبه بريستلي وفي باريس عرّفهُ مجلاّن بلافوازيه اشهر كيماوي فرنسا . وفي معمل لافوازيه بسط بريستلي امام جماعة من الفلاسفة الطبيعيين اشهر النتائج التي وصل اليها . واذ كان يتناول طعام العشاء مع لافوازيه لم يخفِ شيئاً عنهُ وهو لا يدري حينئذٍ الى اي انقلاب في الكيمياء سوف تفضي هذه الحقائق على يد مضيفهِ . فاصغى لافوازيه الى كل كلة قالها ولما خرج الانكليزي اسرع الفرنسي الى معملهِ ، واشعل ناره واعاد تجارب القسيس العالم

كان الصينيون قد ذكروا شيئاً في الهواء يدعى « ين » يتحد بالكبريت وبعض الفلزات وكان ليوناردو ده فنشي ذلك العبقري الايطالي المتعدد النواحي قد كتب في القرن الخامس عشر ان الهواء مركب من مادتين . ولكن بريستلي استخرج بسحر كيميائهِ الاكسجين الذي لا يرى من الهواء ، وبذلك كان اول من حلَّ مشكلة تركيب الهواء حلاً علميًّا ، واثبت وجود اكثر العناصر وجوداً في الارض وما عليها . ان مشكلة تركيب الهواء ، حالت دون تقدمُّ الكيمياء قروناً فحلَّها هذا الرجل الذي يتمثل فيهِ النشاط العقلي في عصرهِ . في نظر

هذا الاثر على الكنيسة المؤيد للاحرار . كانت الكيمياء عندهُ تسلية لتحفيف اوقات الفراغ. فقادتهُ هذه التسلية الى حل مشكلة من اعقد مشكلات الكيمياء والكيمياء الحديثة في مهدها

كان اكتشاف بريستلي للاكسجين حدًّا من الحدود الفاصلة في تاريخ الكيمياء

في اول اغسطس سنة ١٨٧٤ احتفل بمدينة برمنغهام بانقضاء مائة سنة على هذا الاكتشاف العظيم فارتج الستار عن تمثال بريستلي . وعلى نحو ثلاثة آلاف ميل من برمنغهام اجتمعت طائفة من الكيماويين الاميركيين في مقبرة ببلدة نورثمبرلند بولاية بنسلفانيا وارسلت برقية من هناك الى المحتفلين ببرمنغهام . ذلك ان بريستلي مات ودفن في اميركا !

هجر بلادهُ لانهُ عاد في آخر حياته لا يطيق المعيشة فيها . فالصحافة كانت تكيل لهُ الثلب وبرك الخطيب والكاتب السياسي تهجَّم عليهِ في مجلس العموم لانهُ أيَّد قضية الجمهورية الفرنسية ثم جعل اصدقاؤهُ في العلم يتجنبونهُ . فتنقل وهو في الستين من العمر المهجرة الى اميركا . فدخل نيويورك دخول فاتح عظيم .واستقبلهُ في مرفأها حاكم الولاية ومندوب جامعة كولومبيا . واوصلت اليهِ جمعية فلسفية اماني السياسية بعثة قال خطيبها في ترحيبهِ « ان اسلافنا الاكارم هجروا كما هجرتَ فراراً من اضطهاد التعصُّب والاستبداد .لقد فررتَ من ذراع العنف الغاشمة ، من لهب التعصب ، وسوف تجد ملجأ في صدر الحرية والسلام والاميركيين ».وقد اكرمتهُ اميركا امة وافراداً فدعاهُ فرنكلن للاقامة في فيلادلفيا وطلبت اليهِ جامعة بنسلفانيا ان يتولى منصب استاذ الكيمياء فيها . ولكنهُ فضل حياة السكينة في بلدة نورثمبرلند ولم يغادرها الا ليقرأ بعض رسائله العلمية في الجمعية الاميركية الفلسفية بفيلادلفيا ويتناول الشاي مع جورج وشنطون . وفي آخر سنة ١٧٩٧ تمَّ بناء معمله الخاص بالتجارب الكيميائية وفيهِ اكتشف غاز اكسيد الكربون الاول

* * *

في الساعة الثامنة من يوم الاثنين في ٦ فبراير سنة ١٨٠٤ كان القس الشيخ في سريرهِ وهو يعلم ان حتفهُ قد دنا . فطلب ثلاث رسائل كان قد اشتغل باعدادها ، فاعاد النظر فيها واملى على كاتبهِ ما يريدهُ من التعديل فيها . ثم طلب اليهِ ان يعيد ما طلبهُ منهُ ففعل فتجهَّم وجههُ قليلاً وقال: «لقد كتبتَ ما امليتهُ عليك باسلوبك . وانا اريدهُ باسلوبي » ثم اعاد تعليماتهِ كلمة كلمة فلما قرئت عليهِ ثانية اكتفى وقال « انتهيت الآن » وبعد نصف ساعة اسلم الروح

ولقد احتفل كيماويو اميركا مذ بضع سنوات بمحل داره في نورثمبرلند تذكاراً دائماً لهذا الرجل العظيم .واقاموا الى جانبهِ متحفاً جمعوا فيهِ كل الادوات التي استعملها في تجاربهِ .وبينها احد الاوعية الزجاجية التي استعملها في تجربة الفئران ، فحلَّ بذلك مشكلة تركيب الهواء وكتب اسمهُ بين الخالدين من رجال الكيمياء

الصحراء

لاحمد محمد حسنين بك

افتتح المجمع المصري للثقافة العلمية مؤتمره السنوي الرابع في ١٢ مارس برآسة احمد محمد حسنين بك الرحالة المصري المشهور والامين الاول لحضرة صاحب الجلالة الملك فالقى محاضرة نفيسة في الصحراء آثرنا نشرها في ما يلي :

سادتي : طلب اليَّ ان اتكلم في بحث علمي . والبحث العلمي الوحيد الذي اظنني استطيع أن أتكلم فيهِ هو الصحراء . لكن الجانب العلمي والفني في الصحراء ضمنتهُ كتابي ؛ فلا محل لاعادته .. ولما كان في قوانين هذا المجمع الموقر ان عضوه يجب ان يلقي كل سنتين محاضرة ما والاَّ فامامهُ الباب مفتوح، ولما كنت احرص غاية الحرص على بقاء عضويتي فيهِ ، لذلك لم يسعني الاَّ ان اتحدث اليكم في جانب غير علمي من جوانب الصحراء: وشيء اهون من شيء على اي حال

فكرت اذن في ان اتحدث اليكم عن الناحية النفسية لرحالة اعتزم القيام برحلة صحراوية طويلة من اجل الكشف . فبينما هو يقوم برحلتهِ العلمية اذا بهِ يقوم — في وقت واحد برحلة نفسية . ولرحلة النفس كما لرحلة العلم مراحل ؛ وتلك هي التي احاول ان احدثكم عنها

سادتي : ان شق الصحراء شيء صعب. وكشف مجاهلها شيء اصعب. يعلم الرحالة هذا كله فلنر اذن ما هو صانع . ها هوذا في شغل شاغل يفكر ويكتب ويعمل. يفكر في النواحي الكثيرة التي تستلزمها احتياجاته العديدة، في رحلة تستغرق بضعة شهور ينقطع فيها عن هذا العالم المدني الذي نعيش فيهِ . ويدوّن كلَّ ما ينتهي اليهِ من المعارف عن جانب مجهول من جوانب الصحراء . ثم يأخذ في جمع ما يعوزهُ من زاد وشراب ومتاع . وهو حاضر الذهن . يقدر لكل شيء سببهُ . فهو يحرص على ان تكون عدته جميعاً في نحو بسيط ، كثير النفع ، هين الحمل . يجمع طعامه ، الضروري منهُ والكمالي، لا يفوتهُ ان يختزن حتى بضعة صناديق من الحلوى . فتلك الكماليات الشهية لا يستطيع ان يجدها في الصحراء . فاذا توفرت له كانت سبباً من اسباب رغده . يجمع عناصر فنه : ادوات الهندسة والمقاييس والرصد والحساب. تلك العناصر العلمية التي يعتمد في نجاحه على متانة بنائها ، ودقة ادائها لوظائفها . يعد الماء الكثير . ينتقي الابل الشداد . يختار الرجال البواسل ، ولاسيما الدليل ، فهو مصباح القافلة . يتخير الخيام

المريحة . ما اشده زهواً بحيتهِ الظريفة . هي بيت العلم والقوة والفن . يهيئ ادوات الدفاع عن النفس ، وصد غارة المغيرين . فهذه بنادق صائبة المرمى . ومسدسات دقيقة الصنع . وهذا رصاص يأكل الاحشاء . وهذه سيوف قاطعة لوامع وخناجر تخرق الصخر . يضيف الى ذلك كله ما يعوزه من الادوية الناجعة ، التي يسهل استعمالها ويصدق اثرها ، ولا سيما ما يختص منها بامراض المناطق الحارة ، وما يشكو منهُ اهل الصحراء

ترون الآن ان رحالتنا اعدَّ عدَّتهُ جيداً . وها نحن اولاء نراه يتخيل ويحال . يستعرض في ذهنهِ سوراً حسانًا . فساعة يرى صورة تلك القافلة الزاخرة ، وهي تشقُّ سبيلها الرملي ، فتانة المظهر ، متزنة الخطى ، يعابث نسيم الصحراء الراقص ما زينها من رحال دقت جلودها ونسيج رق حريره . وساعة يرى صورة « معسكره » وقد استقرَّ به النوى . فضربت خيامه ، ومرح رجاله ، وهو تحت سماء خيمته البديعة يكتب مذكراته ، او يفكر في غده ، او ينعم مما حمل بما لذ وطاب ، او يتحكم في الزمن بين ساعاته العديدة التي بين يديه . يالهُ من حلم سحري . انهُ ينفق غاية ما يستطيع من جهد ليستكمل عظمة هذا الخيال الذهبي . لتكون قافلته مثلاً اعلى لغيرها من القوافل . وليكون هو مثلاً اعلى لسواه من المستكشفين . ولم لا يصح ذلك وقد تزود من المادة بخير زاد واصلحه . لقد استقرَّ سلاحه المادي في يمينهِ ، فليأتين النجاح اذن عن شماله . أليس هذا منطقاً . كل شيء قد كمل وحسن . اما الطعام ، فقد تزوَّد منهُ بقدر كثير . اما الماء فقد ملأ بهِ قرباً متينة عدة ، لن تنزَّ منها قطرة ماء . اما الدليل ، فقد وفق الى رائد بدوي امين ، يقظ كالصقر ، خبير باليد كالحمامة ، لا تخطىء الى صاحبها السبيل . اما الابل فصفتها الطويل منتظم ، تتسع اذن المسير فتسير . اما الرجال ، فطائعون ، دماؤهم ملك لسيدهم وفداء . اما خيامه فرحبة ، مزودة باسباب الراحة . اذا نصبت في الصحراء ، فهي راسخة كالجبل لا ينال منها عصف الرياح . اما آلاته التي يعرف بها اسرار السماء والارض فهي خير نتاج الذهن البشري في القرن العشرين . لم يعد يعوزهُ اذن شيء . لقد حرص رحالتنا على ان يحمل معهُ حتى لباس بدوي انيق . كم اتعبهُ التأنق فيهِ . لقد صنعهُ من الحرير الاخاذ . طرزه ابدع تطريز . وشاه باجمل وشي اختار لهُ خنجراً فضيًّا . يفتن بني الصحراء . كان يتزين بهذا اللباس اذا اختلى بنفسه وكان يتندو فيهِ امام المرآة ويروح . هذا هو المظهر الذي يطالعه رؤساء القبائل . وسوف يأتونهُ ساجدين . فهو كيِّس ، يجيد فن السياسة . ولقد حمل معهُ عدة كتب توصية الى مشايخ القبائل ورؤساء العشائر ، فهو من هذه الناحية يستطيع ان يجذبهم اليهِ ويغريهم بمبايعته سيداً مطاعاً على اهل الصحراء اجمعين . فاذا لم تجدِ السياسة ، ولا حسن القول ولا كتب التوصية فما اهون عليهِ ان يستعبدهم قسراً ، فهو يلقي في قلوبهم الرعب بما جمع من سلاح . او ليس يحمل من السلاح ما يجهلون . وما لا يستطيعون ان يأتوا بمثله اليس

معه جنده وهم اشداء . او ليس هو ايضاً شجاعاً مقداماً . لقد امن واطمأن . اذا أصابهُ ضر عرف كيف يدفعهُ ، او مسهُ شر استطاع ان ينجو منهُ . والضر والشر لن يعرفا اليه سبيلاً ، فهو يقظ حريص يقدّر رجله قبل الخطو موضعها . لم يعد اذن في الصحراء ما يخشاهُ .

تلاحظون في رحالتكم الآن ثلاثة جوانب نفسية غلبتهُ وتمكنت منهُ

اولاً — ايمانه المطلق بقوة المادة

ثانياً — حرصه على ان يستعين بهذه القوة قدر ما يستطيع

ثالثاً — ضمانه النجاح العظيم من هذه الطريق

وهكذا ترون ان صاحبكم يحاول ان يفنى في سلطان المادة ، او ان يفني سلطان المادة فيه. فالمادة شغله وهمه . مازج اثرها تفكيره . هنا لها قلبه . انتعشت بها نفسه . تأثر بالمادة كل شيء فيه . تأثرت حتى مشاعره وحواسه . تأثرت حتى هواجسه وخواطره . تأثر حتى ذوقه ومزاجه . فبدا مظهر هذا الاثر جلياً في كل خطوة من خطواته ، وشارة من شاراته ، وكلة من كلماته . هيمنت المادة على ذاته المعنوية جميعاً . ما الصحراء سوى شيء مادي . فلن يكون غزوها بغير سلاح مادي . ولقد اختار لهذا الغزو سلاحاً ماضياً ، يغري شكله بالوثوب ، ومقبضهُ بالطعن ، وحدّه بوجوب النصر المبين. ما اروع ان يكون اذن فوق بسيط الرمل. تمّ كل شيء. لقد أصبح رب البيد ، وسيد الصحراء

ما اشد رحالتكم زهواً بنفسه . لقد تجمع رجاله حوله خاشعين . وها هو ذا يأخذ بالقلم ، وينعم النظر في خريطة صامتة بيضاء . تترجم في صمتها وبياضها عن تلك الناحية المجهولة التي لم تطأها قدم انسان بعد . على هذه الخريطة يرسم الرحالة خط سيره ، بيد مطمئنة ثابتة . ماذا في نفس الرحالة . انه يهزأ بما اصاب زملاءه السابقين من فشل . اما هو فناجح من غير شك. أتستطيع الصحراء بعد اعدادهِ هذه العدة كلها ان تعترض سبيله . او تحيرُ اليد ان تناهض المادة من جانب ، والعزم والعلم من جانب آخر ؟ الا ليت الصحراء تعقل ؟ اذن لعلمت ان هذا الرائد الجبار قد أعزم واحدة من اثنتين . اما ان يذلها ويدرك غايته ، وأما ان يجود لها بنفسه ، فيخولها بذلك نعمة اتساعها لعظامه ، وفخر قبولها اياه عدية خالدة . وفي ذلك شرف للصحراء عظيم

في هذه المظاهرة النفسية المتصلة ، ، وعن هذه العوامل الباطنية الوثابة ، يرسم الرحالة خط طوافه ، وهو مأخوذ بنشوة نصر لا ريب فيه

سادتي: رحالتكم الآن في بداية الطريق ، ما اروع المنظر وابهجه . انه يرى بين يديه شيئاً عجباً. يرى تلك القافلة التي كانت منذ أسابيع حلماً ذهبياً ، اصبحت اليوم امراً واقعياً . قافلة زاخرة ، تسعى الى غاية ، وتمشي على هدى. كل شيء وفق المنهج الذي رسمه . السير هين . والرمل لين. والصحراء مهاد . والابل تخبُّ آمنة . وأحمالها في حرز مكين . ورجاله يطيعونه طاعة المولى

لسيده . اليس له اذن ان يشمخ بأنفه ، كأنه خرق الارض او بلغ الجبال طولاً

الا ما اجمل الصحراء . وأنعم ملمسها . ما أيسر مسحها . ما ألذ اللعب عليها . ذات الغلائل اللانهائية الصفراء

انها صبية مترعة . ظبية الوقف . فرعها من ورد . جيدها من ذهب . جبينها من فرد . النظرة اليها تسبي العينين . المشي عليها يأخذ بالألباب . حياتها موسيقى وشعر . سماؤها اغان وأحلام . الاقامة فيها كالاقامة في روضة غناء . راضية تنوع . لا ترد قاصداً . لا تخيب ظناً . ان صددت اقبلت . وان أقبلت لانت . ضحيكة ذات خفر . في صوتها حنان . في رقتها لذة . في ملاحتها فتنة . في اقرانها خمرة تسكر العاشقين

هذه اذن هي الصحراء . فلئن لم يحبه النجاح يسعى فلينتزعنه من مخبئه انتزاعاً

وهكذا يقوى اعتزاز رحالتكم بالمادة ، ويشتد شعوره بنفسه ، وينمو يقينه في الصحراء. انه ليسير كل يوم بضع ساعات في جو مرح . ولذلك فهو مستبشر طروب

أتم رحالتنا مرحلته الاولى . وقد بدأ الآن ينشى « السريرة » . والسريرة هي ذلك الشيء المجهول ذو السر الدفين . انه اصطلاح البدو على كل مدى منبسط بين بئر وبئر ، وقدره غالباً من خمسة وستة ايام الى اثنى عشر يوماً او تزيد . فقد يأخذ الرحالة في رود هذه المنطقة الموحشة يأخذ في اجتياز مرحلته الثانية . يقضي صاحبنا اول يوم من أيام هذه المرحلة . هو يوم مشهود . يوم حافل سعيد . بلغ فيه الزهو بنفسه غايته . هو في ضحى هذا اليوم اشد خيلاء بنفسه من قبل . اذ انقطعت صلته بالعالم الخارجي . واستهل الشوط الهام من رحلته . ذلك الشوط المجهول الذي لم يسبقه اليه احد . القافلة تسير هانئة . ورحالتنا منشرح الصدر . لقد آمن بيسر الصحراء . فهو يتكبر ويتغنى . فبين يديه مادة قوية غلابة . وتحت قدميه مركب مهين ذلول . انروق الآن اليه وهو يسخر . هذي هي اليد التي وصفوها بانها طاغية . هذي هي الرمال التي زعموا انها آبار الموت . هذي هي الصحراء التي قالوا انها شائكة السبل . ما افكك طوافها . انها مغان ، ومراقص ، ورياض انس ولهو وجمال

فاذا انتهى صاحبنا من سخره بالصحراء بدأ يفكر في شأن رواد الصحراء . فكرة تهتف بفكرة . وخاطر ينادي خاطراً . امتلأ رأسه بالخواطر ، وفاض بالافكار . هو مشغول بأمر زملائه القاعدين . يلذ له كثيراً ان يذكرهم ، ويستعرض سيرهم ، ويحاول ان يقضي فيهم قضاء الحق . انهم من قبل ومن بعد ، عجزة ضعاف . انهم ، اولاً وآخراً ، ضحايا العجز والضعف. فاذا انتهى بهم الى هذا الخط التعس . وقضى فيهم ذلك القضاء الاليم ، شعر بشيء من راحة النفس ، وتمت عيناه بشيء من العجب . صحيح انه يرثي لهم . لكنه في شعوره بذلك يملكه شعور آخر اشد منه عنفاً ، ذلك هو شعور الذل والتجني . ولعل هذا الشعور الآن هو

مبعث تلك الابتسامة الراقصة على شفتيه . هي ابتسامة سخرية فيها تيه ، وفيها اعتداد كبير بالنفس . غير انه لزام عليه — على اي حال — ان يستخلص من هذه النواحي جميعاً نتيجة ، يرتب لها اثرها بنفسه ومنطقه ، كما مهد لها اسبابها بنفسه ومنطقه . وها هو ذا يذهب ، كأنه مقتنع ان ان يقرر ان طريق الفشل وأثره ، انما سرُّها في ضعف المادة ، او في عدم استكمال عدتها كما يجب ان تستكمل لرحلة الصحراء . فلئن ضلَّ في الصحراء جوّاب ، او فشل مستكشف ، فذلك فقط لقلة خبرته بزاد طوافها المادي . ولئن كان اولئك الجوّابون الضالّون ، والمستكشفون الفاشلون ، قد تزودوا بمثل زاده ، لما ضلَّ ممن ضلَّ احد ، او فشل ممن فشل احد

قضى صاحبكم ست ساعات وهو يسير . ما زال يجد نفسه حتى لكأنَّ هذا الفضاء على رحبه يكاد لا يسعه ، وكأن الارض لا تحمل سواه . وقد اعتزم ان يسير اليوم كله على قدميه ، ليلقي بذلك على رجاله درساً مجيداً في الصبر والجلد ، وما الى ذلك من صفات البطولة . غير ان مفاجأة لم يكن ليحسب لها حساباً قد حولته من طريق الى طريق . فعبثاً حاول ان يمضي في السير على قدميه . فقد اوجعهما النعل البدوي . ذلك النعل الخشن الذي لم يألفه من قبل . تسرَّب الى نفسه شيء من الضيق . فقد ادمى النعل قدميه . او اصابتهما منه ثغور . ليمتطِ اذن جمله . بدأ يتأفف . لا يلبث بعد حين ان يملّ ظهر الجمل . ما اقبح المطيّ . احبُّ اليه ان يسير على قدميه الداميتين من ان يظل فوق جمل بطيء يمشي بسرعة اربعة كيلو مترات في الساعة . يجيء وقت الغداء . فيكون غداؤه البلح الجاف ، كالحشف البالي . لا ماء اذن ولا شواء اذ لا سبيل الى ذلك والركب يسير . ثم انهُ من تقاليد القافلة ان تناسها جميعاً يأكلون صنفاً واحداً ، لا فرق فيهم بين سيد ومسود او كبير وصغير . البلح الجاف اذن ، هو طعامه السائغ الشهي . يندُّ جمل فيختلُّ نظام القافلة ، وتضطر اعادتها الى سيرتها الاولى . تندُّ جمال أخر فتقذف ما عليها ويسوء الامر . فمن صناديق تتهشم ، الى زاد يتلف ، الى جهد كبير ينفق في سبيل لم الشعث من جديد . يتخابط جملان فتحتك القرب بعضها ببعض ، تتمزق جلودها ، ويضيع من الماء شيء كثير . وهو اعزُّ ما يحرص عليه من زاد . غير ظمأ ويحجب نور الشمس ، فيسقط في يد الدليل . نرى رحالتنا لا يأنس لهذه المظاهر . قلَّ ابتسامه ، وساد الركب سكون ، لكن هذا كله شيء لا يصح ان يحتمل . هو مناوشة من الصحراء بسيطة فليتقلسف الرحالة ، وليحاول ان يتقبل هذه المناوشة بقبول حسن

تفجأه عاصفة . مناوشة اخرى . ولكن ماذا تستطيع العاصفة ان تفعل . انها تفكك وحدة الركب ، وتعوق السير ، وتعطل ادوات فنه ، وتتعب رجاله . وتنال من ابله : هذا كل ما تستطيع العاصفة ان تفعل . وهذا كله يمكن ان يعالج . صحيح انهُ امر سيء ، غير انهُ ميسور على اي حال في سبيل المجد ليست تكاليف العلا شاقة مضنية

الم تر ان المجد تلقاك دونهُ شدائد من امثالها وجب الرعب

ولئن جابهتهُ الصحراء بتلك المشقات الشداد فهو اهل لمقاومتها ، والاستشهار عليها

لولا المشقة ساد الناس كلهم الجود يفقر والاقدام قتال

وانّي لهذه الصعاب ان تنال من نفسه وقد هيأها لانتزاع المجد وان استعصى سبيله وعزّ مرامه

ذريني انل ما لا ينال من العلا فسهل العلا في السهل والصعب في الصعب

نرى رحالتنا يكثر من الفلسفة . هو في نزاع بين قلبه وعقله . وهو من أثر هذا النزاع غير مستقرّ . فساعة يحس قلبهُ شرًّا ، وساعة يقدر عقله خيراً . ولذلك فهو حيناً قلق ، وحيناً مطمئن

يلقي الرحالة عصاه . فتزأر به عاصفة من جديد . عاصفة تملأ الفضاء : زاحفة كأنما تريد ان تنسف الارض ومن عليها . صوتها يشبه الولدان كأنهُ صوت الفناء . ماذا تفعل العاصفة في هذه المرة . . تقوض خيامه ، تهشم بعض ادواته العزيزة التي يعرف بها اسرار السماء . اما ابله ، فقد نفق اقواها ، وهو لا يدري لهذا سبباً . اما ماؤه فقد ذهب اكثره ، لامور لم تكن في الحسبان . أما دليله وليد البيد ، ابن الصحراء ، العليم بأسرارها ، الخبير بمسالكها ، مصباح القافلة ، ذراع الرحالة الايمن ، أما دليلهُ هذا : فقد جحظت عيناه . ملأه الهلع . ليس امامه سوى الفسيح الموحش الرملي . ليس امامه علم يهديه ، ولا صوى يسترشد بها في طريقه . اذا قيل له اين نحن . . هز كتفيه ، وقال بصوت محتبس ، « الله اعلم » . واذا قيل له الى اين اشاح بوجهه . وقال في لهجة حيرى « الله اعلم » . فكلمة في الحق غير مناسبة

رب عاصفة يقل عمرها عن ثلث ساعة ، تسقط على رأسه خيمته الظريفة ، فتحطمها وتكاد ان تحطمه . رب ميل قليل عن خط سيره ينتهي به الى فاجعة اليمة . قد يخونه رجاله فيتمردون عليه ، او يأتمرون به ، فيسوء المصير

قد لا تتألب عليه هذه النوائب جميعاً في يوم واحد . ولكنهُ على اي حال هدف شرها بين يوم ويوم ، او اسبوع واسبوع . والآن فاين رحالتنا . واين عدده . اما هو فتحبث به اكفُّ الصحراء . واما هي فقد ذابت بين يديه . كل شيء نذير شؤم . في عواء الريح وعيد بسوء المآب . في صفير العاصفة صور متباينة للردى . فهو كيفما ادار لحاظه لا يجد امامه الا الموت او الفشل وليس له معدى عن مجابهة احدهما . اما الموت فباسط يده ، يريد ان يختطفه ، او فاغر فاه ، يريد ان يبتلعه . واما الفشل فصخرة عبوس ، تحطمت عليها مطامعه ، مسخ ساخر يمثل له عودته مطرق الرأس ، يحاول ان يتجنب الناس او يتجنبه الناس . مسخ ساخر يمثل له الشماتة به ، او انفضحك منه : او العطف عليه ... شياطين الموت ترقص حوله . اشباح الفشل تسعى اليه . الموت او الفشل ... ليختر اذن منهما ما يشاء . وهما أمران احلاهما مرّ . وطريقان اهونهما جمر . وقد يكون للموت احلى الامرين مذاقاً . وقد يكون الجمر ابهج الطريقين سبيلا

مع هذا فما موقفه من ذلك الموت الذي يطالعه الآن . لقد صح منه العزم حين حاول شقّ الصحراء على ان يهب لها حياته اذا عز النصر عليه . كان ينتابه في احلامه الذهبية بين حين وحين حلمٌ بعيد — هو حلم الموت . وهو حلم وان ساءت طلعته ومرّ طعمه ، فهو في الواقع عذب مستساغ . لانه اولاً وآخراً في سبيل المجد والعلا . اما الآن فلم يعد ذلك الجوّاد الذي يهب نفسه عن طيب خاطر ؛ ولكنه اصبح ذلك الذليل الذي تنتزع منه حياته عنوة وقسراً

ومهما يكن من شأن موقفه هذا ، فانهُ ليس سوى موقف المستضعف الجزع ، يتحايل على الموت ؛ ويضنّ بحياته على الصحراء . وشتان بين موقفه هذا وموقفه بالامس القريب — حين كان يستهين باخطار الصحراء وحياته جميعاً

لكن شيئاً واحداً هو الذي يشغله الآن . كيف صحّ ذلك كله . اليس اولئك رجاله . اليس هذا دليله . اليست هذه عدده . اليست هذه ابله . اليس هذا عامه . اليس هذا سلاحه . اليس هو هو . اليست هذه جميعاً أسباب جهاده . ما الذي كان ينقصه . اليس قد استكمل عدد الجهاد كلها . كذب ظنه ، خاب تدبيره . فكأنما كل عدة من عدده قد انقلبت سلاحاً صوّب الى صدره . وكأن كل مادة من مواده قد اصبحت ثعباناً يتلوّى حوله

هنا يجلس رحالتكم «المقدام انياسل» الخبي بعدته وزاده ، القوي بادته وبأسه ، المستعين بعلمه وفنه ، يجلس رحالتكم الآن وقد تمزقت ثيابه ، واغبرّ لونه ، وساء امره ، وذهب الاسى بنفسه كل مذهب . ادوكته هذه المحن جميعاً فوقعته في فخ الصحراء . كادت له الصحراء ، وبيتت له الغدر كأنها غدت ذئباً . وكأنه غدا حملاً . وقد اخذ الذئب يداعب لعبته اول الامر

اهذه هي الصحراء . . اتلك هي الغانية التي كان يتشهاها . اتلك هي العادة التي شغف بها حبًّا . اتلك هي الطبيعة الفنوع التي كان يغنيها على قيثارة مطامعه ، فترقص له في غلائلها الصفراء رقصة الخشوع والطاعة . . ما بالها غضبت عليه واستبدّت به

اليست هذه هي الصحراء التي كان يتشبب بها بالامس ، كما يتشبب ذو المال بغانية تلتمس نعيمها في رضاه . ما بالها اليوم تصدّ عنهُ ، كأنها غانية السوق . تلتمس نعيمها في المال والغنى ، وكأنهُ العاشق المضنى بجهده الفقر

أليست هذه هي الرمال الذهبية التي كانت تسقيه بالامس خمر الآمال . ما بالها اليوم اصبحت في صفرتها كصفرة الحنظل ، واصبح سقياها مريراً كماء الموت

أليس هذا هو المنبسط الفسيح الذي كان يطلق فيه آماله ترتع وتلعب ، فتعود اليه حاملة آمالاً جديدة حلوة كالشهد . ما بال هذا المنبسط الفسيح صغر به اليوم وضاق ، ودقّ في صغره وضيقه حتى غدا طوقاً حديديًّا يغل رقبته ويضني حلقه الجاف

أين النجاح الذي كان يؤمن بانهُ سيجيئه يسعى ، والا انتزعه من مخبئه انتزاعاً

أترون اليوم كيف يستجديه ، في ذلة وضعف ، كما يستجدي المغرم المضنى اجهده التقرء نظرة ، أو ابتسامة ، او كلمة ، من غانية السوق ، تلك الغانية اللعوب التي لا تلتمس نعيمها الا في المال والغنى . أين الفوز والنصر اللذان كان يؤمن بانهما في قبضة يده والا اغتصبهما من يد الصحراء اينما وكيفما يشاء. أترون اليوم كيف يسألها الصحراء، يسألها يداً قاسية باطشة ، تحطم من آماله وكبريائه اينما وكيفما تشاء

أين ورد المطامع. أين أقواس النصر أين سحب المجد. أين العود المظفر. أين هتاف المجامع العلمية ان ذلك الحلم الشعري قد انحدر من فوق كتفي رحالتنا وتجلى لهُ اليوم فقط انهُ قبضة من الهشيم

***

سادتي : ترون كيف انعكست آية المادة . انظروا الى صاحبكم . لقد هوى من سمائه الى مستوى عبيده مرغماً مضطراً ، مكرهاً لا بطلاً . لم يعد يثق حتى بحقه في اصدار الاوامر فان كانوا ما يزالون يسيغون سيادته فربما كان ذلك فقط لجلد طبعه ، وقدرته على الاحتمال ، وما الى ذلك من صفات يضعها اهل الصحراء في المنزلة العليا من فضائل الرجال. ما اكثر خدع المدنية . قد فني بين جنبي رحالتكم ذلك الشعور الذي كان يسمه انغام المجد كلما نظر الى ما أعد من ادوات ، واعتز بما وسع من علم ، وسحرته لذة النصر التي كان يتخيلها في سلطان المادة

ضاقت نفسه بالصحراء. ولم يضق صدر الصحراء به. انه مهموم . وفي الصحراء ضحوك . ها ان صوتاً قوياً يقرع سمعه . انه سخرية الصحراء . شعور عنيف يهزه هزاً . انه أرسلطان الصحراء

يتغير الآن شعور رحالتنا فتلمس في هذا التغير فارقاً كبيراً ، ذلك الفارق العجيب الذي يفصل بينه اليوم وهو فريسة هذا الموقف المشئوم، وبينه بالامس وهو يخطو في الصحراء خطواته الاولى . فقد اخذ يحقد على الصحراء ، ويلعن اليوم الذي وطأتها فيه قدماه . ولكن ماذا يجدي الحقد واللعنة . اليس خيراً له ان يفكر في طريق من طرق الخلاص. فليفكر اذن وليكثر من التفكير . فاذا تكون النتيجة . انه كالطير في القفص . هو سجين الرمل والرمل حارسه. وقد بدأ الليل يسدل ستاره الحريرية السوداء ، وينثر في السماء نجومه الصغيرة الراقصة ، ويقطع اشواطه في هذا الفضاء اللانهائي وئيداً بطيئاً كسير القافلة . ليفكر اذن في صمت هذا الليل الرهيب فيعود بعد جهده ليسأل نفسه : ترى لو انه اتخذ عدداً اقوى مما اتخذ ، وسلك سبلاً اين مما سلك ، اما كان يمكن ان يتجنب ذلك المصير المشئوم الذي صار اليه . ولكن اكان يستطيع ان يصنع غير ما صنع . لقد امتحن بأحدث اسباب العلم، وتزود بأنفع الثمرات الذهنية . ما كان يستطيع في الحق ان يصنع غير ما صنع ، وهو بعد كائن بشري ، لا تعرف المعجزة سبيلها اليه ، ولا يعرف هو سبيله اليها

على انهُ مع هذا كله يحس بعاملين عنيفين يتناوبانه . عامل العناد يأبى عليه ان يشهد

بعجزه . وعامل الجهاد يزين له المضي في المقاومة . يظل رحالتنا نهب هذين العاملين ، فما يكاد يستوحي وحيهما ويتأثر بأثرهما حتى يسمع صوتاً خفيًّا ، ضحكة ماكرة من صوت الصحراء ساء سبيلاً . كل شيء تلف او تحطم او ضاع . صناديقه كأنها ركام . عدده اصبحت لا تغني شيئاً . سلاحه لا فائدة منه . ابله برح بها الاعياء والعطش . رجاله اصبحوا كالاشباح من فرط ما ناهم من مشقة الجوع والعطش والنصب واليأس . دليله ضجر متبرم . كادت رحالتنا الصحراء ومكرت به . عبثت حتى بكراسة مذكراته . سلبته حتى غيون دخانه . ضنت عليه حتى بلذة الشبع . ما اشبهه بالقائد الذي خسر المعركة . فهو آنٍ الى انقاضه لا يدري ماذا يصنع . يهوله مشهد الضحايا يروعه مشهد الخراب . يجزع لمقدم الغد . في ذمته تبعة هذا جميعه . أما هو ، فرهينة ينتظر . فاما الاسر ، وهو ذل . واما الفرار ، وهو خبل . وأما قتل النفس وهو جبن وخور

***

سادتي : ان غير المنظور هو الذي غالباً يقع

والدهر يعطي الفتى ما ليس يطلبه حيناً ويحرمه من حيث يطمعه

الا ترون كيف اصبح امر نجاحه اليوم سراباً كما كان امر الفشل عنده بالامس . كان الفشل ابعد ما يذهب اليه . كان لوناً من ألوان المستحيل . كان آخر ما يجيز لنفسه ان يفكر فيه . فكأن الشمس طلعت اليوم من المغرب . لقد خاب الظن . اصبح النجاح ابعد ما يذهب اليه . اصبح لوناً من ألوان المستحيل . اصبح آخر ما يجيز لنفسه ان يفكر فيه . . . صد العاصفة بالكفين اهون منه

اكتنفهُ الظلام . غيم على نفسه ، غيم على رأسه ، غيم على عينيه ، ظلام اليأس والحيرة والفشل . أين هو اليوم الذي استهل فيه رحلة الصحراء ، وهو يحيي مودعيه في شيء من التواضع . فلولا عدم اللياقة لصرح لهم بما تجيش بهِ نفسه ، من نصر محقق ، ونجاح مؤكد ، وعود مظفر . لقد اصبح اليوم لا يطيق ان يذكر شيئاً من ذلك . كان اذ ذاك يغمره النور ، نور في نفسه ، نور في رأسهِ ، نور في عينيهِ ، اما اليوم فله من شأنهِ ما يغنيه عن ذكر ذلك . ففي ذكره ألم ، وحسبه ما يعاني من ألم . وفي ذكره احساس بخيبة التقدير ، وحسبهُ ما يتجرع من غصص الهزيمة

هذا زاده المادي . كان يؤمن من قبل بانهُ مفتاح النجاح . وقد ذاب اليوم هذا الزاد ، فتحطم ذلك المفتاح المسحور . لئن كان صادقاً في تقديره ، فما الذي اذاب الزاد ، وضيع الامل ، وحطم المفتاح وان كان غير صادق في حسبانهِ ، فاين اذن يوجد هذا المفتاح المفقود ، واين اذاً السبيل اليهِ

جمد ذهن صاحبنا . تعطل تفكيره . كاد يحترق مخه ، وتتمزق عروقه . كاد يهذي حتى انهُ ليتخيل الصحراء امتلأت بالذئاب العاوية . وعواصفها اصبحت نواقيس الموت . ها هو ذا يغمض عينيهِ . ويعتمد رأسه بين يديه . كأن صراعاً ألمَّ بهِ فكأنهُ في غشية ما لها صحو

سادتي : الى هنا يصح ان نعتبر رحلتنا قد اجتاز مرحلتها الثانية . والى هنا ترون كيف ذاق من الالم امره . ومن الذل اوجعهُ ، ومن الهوان غايته حتى كاد ينتهي آخر الامر الى غشية النفس . غير ان للصحراء ايها السادة تأثيراً خارقاً في جسم من جابها وفي عقله وفي روحه . فهي تصقل جسمه وتجلو عقله ، وترتفع بروحه يوماً بعد يوم ، الى مراتب ما كانت لتدركها لو ان صاحبها لم يحاول ان يتخذ له سبيلاً في جوف الصحراء . ولئن يتقبل جوّاب الصحراء ما تمتحنه به من عسر وشدة وألم بقبول حسن ، فما ذلك الاّ لانهُ ادرك آخر الامر ان قسوة الصحراء ليست سوى شيء من قسوة الام الحنون ، تنال بها ابناً عاقاً تحبهُ وتكلف به ، في سبيل تربيتهِ وتهذيبهِ وشد ما ادّبت الصحراء رحالتنا ، وأحسنت تأديبهُ . فبدأت تنظفه من دنس المجتمع ، وتطهره من ادران الحياة ، وتنزع من صدره وسوسة الشيطان . بدأت تغسل عنهُ قذارة الجسم ، ودنس الروح ، بدأت تلهم نفسهُ فلسفة صوفية وتفيض عليها بهذه الفلسفة العالية . ففيم يفكر اذن . . ولعلنا نذكر فيما كان يفكر بالامس

اولاً — قبل ان يعدعدتهُ . ثانياً — وهو يعدعدته . ثالثاً — وهو في مرحلتهِ الصحراوية الاولى لم يكن اذ ذاك ليفكر في غير المادة . وقد تأثر بها ، كما سقنا ، كل شيء فيه حتى اخلاقه وحتى منطقهُ واسارير وجههِ . كان يرى انها الاداة الفعالة لما يريد . اما الآن فانهُ يفكر في شيء آخر : ذلك ادب الصحراء ، وبهِ يستهل مرحلتهُ الثالثة

أخذ هذا التفكير الجديد يحتويه ويؤثر فيهِ . أخذ يؤثر في روحه ونفسه . يؤثر في كل شيء حتى اخلاقه . وحتى منطقه وقسمات وجهه . وهنا فقط يدرك ان اداة المادة ، تلك الاداة المغرية التي كان يؤمن بانها الفعالة لما يريد ، انما هي حقاً تلك الاداة التي لم تفه شيئاً حين تورط في غير ما يريد

وكذلك رويداً رويداً تسمو الصحراء بمشاعره واحساساته الى العالم العلوي . وكذلك رويداً رويداً تفنى المادة ، ويفنى الجسم . ولا تبقى الا قوة الروح تستيقظ فوق هذا الفسيح اللانهائي الرملي . وثم تبدو له الصحراء في صورة صبية وديعة ، في سذاجتها رحمة ، في انوثتها طهر ، في ظرفها نسك يلذ العابدين . وهنا تداعبه الصحراء كما تداعب هذه الصبية الصغيرة الطاهرة ناسكاً صالحاً ، مداعبة تقية كمداعبة الابرار الخيرين . فيرق لها ، ويحنو عليها . يعفو عن هفواتها ويغفر لها اخطاءها وما اجدر بالمغفرة اخطاء الصبايا الطاهرات

ها نحن اولاء نراه يشعر بشيء جديد . تشعر روحه بالصفاء يسري اليها شيئاً فشيئاً . وتشعر نفسه بالسكينة تنساب انها قليلاً قليلاً . فاذا انتهى الى هذا الحظ ، بعد تلك الساعة التي عافت فيها نفسه كل شيء ويئست من كل شيء والتي تركناه فيها مغشيًّا عليه . هنالك — ولا غرو — تنبسط له يد الرحمن ، وتتداركه عناية الله . فيؤمن بان القوة التي تقهر

الصحراء ، انما تسكن السماء . ثم يأنس بعد وحشة ، ويستبشر بعد قنوط ، ويهتدي بعد حيرة ، ويحيي بعد موت. ثم يشعر بشيء من لوم الضمير : أكان على حق حين اعتمد اولاً وآخراً على غير الله . أكان يجوز له ان يستعين بعدده وآلاته كل الاستعانة ، قبل ان يستعين بقدرة الله كل الاستعانة ، «وهو جل وتعالى خالق العاملين» ، وباعث الحياة والموت فيهم من بدو وحضر

عناية الله اذن تحرسه ، ويد الله اذن تهديه . فاذا يقول اليوم . وكيف تبدو له الصحراء. حقاً ان الصحراء هائلة ، ولكن عظمة الله اشد هولاً . وحقاً انها قاهرة ، ولكن بأس الله اشد . وحقاً انها رائعة ، ولكن جلال الله اروع . غير الايمان قلب رحالتكم . والايمان نور وقوة وتوفيق. نور يبدد ذلك الظلام الحالك الذي غشى بسيرته واكتنف نفسه ، وخيم على ذاته المعنوية كلها ، نور الهدى والرشاد والحق . وقوة هي قوة الروح المعنوية المستمدة من فضيلة الانس بقدرة الخالق ، وادراك جانب يسير غاية في اليسر من عظمتها القدسية ومشيئتها الكبرى . ومن ذلك النور الذي ملأه ، وتلك القوة التي اصبحت هي وحدها عدته وزاده ، لغا التوفيق ، التوفيق باطمئنانه الى القضاء والقدر ، وباقتناعه الصلب القوي، وارتياحه الشديد الفياض الى ان الله مصيره وغايته ، ولله وحده الامر جميعاً. ولذلك فصاحبكم اليوم مطمئن النفس. ازداد حبه للصحراء ، وشغفه بدرس مناكبها. فكأنما خلق اليوم خلقاً جديداً. ولا غرو ، فقد اعاد الايمان الى نفسه ذلك العزم الثابت الذي اوهنته المشاق والمتاعب ، وتلك الارادة الصلبة التي ألانها كلُّ ما استهدفت لهُ من عوادي الصحراء . كأنما خلق اليوم خلقاً جديداً . ولا غرو فقد بعث الايمان في نفسه سائر تلك العوامل الباطنية الوثابة التي استحثته من قبل على رود الصحراء ، وكشف مجاهلها ، وبلوغ غايته منها . بعث الايمان في نفسه سائر تلك القوى المعنوية في نمو اصلب طبعاً ، واشد حالاً مما كانت عليه بالامس ، حين شرع يستهل رحلة الصحراء . سلب الايمان من جوف الصحراء ، كلما تعتدُّ به من وعيد سيء ونذير مشؤوم ، فلم يعد في ظلام الصحراء ، ولم يعد في ظلام الحياة ما يمكن ان يشفق على نفسه منه ، اذ قد آمن اليوم شديد الايمان ، وعلم علم اليقين بأن ما تكنه الصحراء من اهوال واخطار، ويضمره الغيب من شر وسوء ، وتستهدف له مصائر الناس من خير ومكروه ، انما هذا كله رهن مشيئة الله ... وها هو ذا يسدر في عمه عن طبيعة هذا الايمان الراسخ الشديد . فهو ينفق اقصى ما يملك من جهد ، ويبذل غاية ما يستطيع من حيلة في سبيل المطلب الذي اخذ نفسه به . اما النجاح وغير النجاح فلم يعد امرهما في يده ، ولكن امرهما جميعاً في يد الخالق وحده . سرت فيه تلك الروح القوية ، وانوحي اليه بوحيها الصادق ، فأخذ من جديد يجمع شتات قوته المعنوية ، ويلم شعث عدته المادية ، وانطلق يستحث قافلته على المضي، ويملأ نفوس رجاله بأمر القضاء والقدر ، وفي ذلك لذة لا يشوبها الدنو من الموت ولا الموت نفسه ايضاً

انطلق اذن يمضي في قافلته يسوقه روح معنوي شجاع رشيد ، وانطلقت القافلة تسعى من جديد في مثل النشاط الذي بدأت رحلتها به بعد ان كادت تجهز عليها عوادي الصحراء احمازاً. انطلقت القافلة يحدوها البشر والتفاؤل . واطمأن الرحالة من جديد الى الصحراء والى عيشه بينها : اولئك البدو البواسل الشجعان الذين ما يزالون بني الفطرة ، لم تستطع ادران المدنية ان تزحف اليهم . ولم يفكروا بعد في ان يزحفوا اليها . فلنقف معهُ لحظة لنرى حظ رجاله عنده بعد ذلك التطور الروحي الجديد الذي احتواه . لم يكن رجاله اولئك من قبل سوى عنصر من العناصر العدة التي هيأها لينال بها مطلبهُ في الصحراء . لم يكن رجاله هؤلاء سوى اداة من الادوات الكثيرة التي اعدها للبطش برجال الصحراء . اما الآن فقد شعر بانهُ منهم وانهم منهُ . شعر بانهم جميعاً أسرة واحدة . فهو يحزن لحزنهم ويفرح لفرحهم . ولا يهنأ بعيش الاّ اذا كانوا هانئين . وقد ثبت له الآن ان فلسفتهم في الحياة اجدى وأعمق من فلسفته . وان في بساطة عيشهم توفيقاً لم يدركه بعد . وهنا يروقه ان يقبس من اخلاقهم ، ويتزود من طباعهم . فقد رآهم أهل ايمان وفضيلة ورجولة . فالبدوي ، في الحق ، مثل من الامثلة الحسنى للرجل

ارأيتم الآن الى رحالتنا وهو يتفلسف . انهُ يتفلسف في شهوة الدنيا ، ومطامع الناس بعد ان سمت به حال نفسية . فصغر في عينه عراك الحياة . صغرت الصعاب التي لاقته ، والصعاب التي تنتظره . هانت عنده مطامعه — حتى مطمع الثروة العلمية المحرمة ، التي قام برحلته في سبيل قطفها . هان عنده حتى الموت في ابشع صورة من صوره . . ذلك كله صغر عنده شأناً واخذ يغنى ، شيئاً فشيئاً ، في روعة الصحراء وجلال الله

صاحبكم يشعر بقوة معنوية . فقد انتهى ، أيها السادة ، من هذه الرياضة النفسية الى نتيجة لم تكن منتظرة ، ولا سيما بعد ان ذاق من مرّ الصحراء ما ذاق . لم يعد رحالتنا يخاف الصحراء . لم يعد يخاف فيها ان يجوع ، او ان يظمأ ، او ان يضل ، او حتى ان تبيعه بحيالها قبراً من قبورها المنثورة في كل مكان . فاذا انتهى الى هذه النتيجة بدأ يشعر بأنها بدأ يشعر بسلطانه يتبسط على الصحراء . ولكن ما ابعد الفارق بين هذا السلطان الذي يشعر به وذلك الذي شعر به في بداية رحلته . فشعوره بالسلطان الاول انما هو شعور بسلطان المادة . والمادة قد خذلته . اما شعوره اليوم بهذا السلطان الاخير ، فهو شعور بسلطان الروح ، والروح قد صدقته

ما أعجب اسرار الصحراء . انها تحطم في رائدها معقل مطامعه ، ذلك العش المرع يسع الدنيا وما فيها . ذلك النهم الجائع كلما اعطي من شيء ، ازداد جوعاً فقال « هل من مزيد » . ما اسرع ان تكسر الصحراء شكيمة جوّابها ، وتذل عنقه وترغم انفه . ما اسرع ان تلقنه درس

الحكمة . اذ تبين لهُ التيار الصادق لمرء وافعاله ، والقيمة الحقة للرجل واخلاقه ، والميزان العادل للانسان وكتاب حياته . لسنب الصحراء رائدها كل احلامه الدنيوية ، تلثم كل ثمرات مطامعه الانسانية . غير انها على ذلك منصفة عادلة . لا تدع رائدها من غير عوض . فهي تجزيه الجزاء الحسن . تهب له سكينة في الصدر . وطمأنينة في النفس . وايماناً في القلب. تهب له هذه النثيرات هدية طاهرة وخالدة لا تفنى ، جديدة لا تبلى ، مصونة لا تنال منها حياة المدنية حين يعود اليها اي منال . تلك الحياة التي عبثت بحقائقها شهوات النفس الجامحة ، ومسخت معه فضائلها مطامع الانسان الكاذبة

أيها السادة : اتمَّ رحالتنا رحلته . وقد يكون توفيقه العلمي اقصى مما كانت تذهب اليه احلامه وهانحن اولاء نعودمعهُ الى بلده . فنرى حفاوة كبرى ، تنشط في درس اكتشافه المجامع العلمية . ولكن ماذا في نفس رحالتنا .. انهُ بعيد عن هذا كله . يكاد لا يشعر بحفاوة المحتفين به . يحس بانه غير أهل — من هذه الناحية — لهذا المديح جميعاً

فلقد استهلَّ الرحلة ، وكانت هذه الناحية العلمية غاية المنى ، كان يؤمن بان ما جمع من اسباب المادة هو مفتاح النجاح ، فلم يكد ينحدر الى جوف الصحراء حتى آمن بشيء آخر ، آمن بان عدته المادية لن تتقدم من امره ولن تؤخر ، وان ما وصل اليه ليس نجاحاً ولكنهُ توفيقاً ، وانهُ ليس ثمرة جهاده الشخصي ، ولكنهُ اثر من عناية الله

وما كان لنجاحه العلمي هذا ان يزيد في ايمانه وقد قدر له التوفيق : كلاَّ ولن يكون لفشله العلمي ان ينقص من هذا الايمان اذا كتب له ان يفشل ، فابتغاء وجه الله وحده هو الذي يصبح وجهة وطلبة كل من كتب له ان يرود الصحراء ولاسيما في سبيل العلم

والآن وقد صغر في عين رحالتنا نجاحه العلمي ، وآمن بانه لم يكن شيئاً ذا خطر ، تحقق ايمانه بانه لا يستحق ما أُغدق عليه من مديح ، وان قيمة هذه الثروة العلمية لا تزيد عن قيمة تحفة من التحف التي اتفق له ان يعثر عليها ، واستطاع ان يعود الينا بها

انه مأخوذ اذاً بلذة روحية هي خاتمة مطاف روحه . تلك الخاتمة التي وفق اليها في مجاهل الصحراء . فحين ضلَّ عقله اهتدت روحه . اهتدت الى سبيل علوي ، تبتدىء في نهايتها طريق الله

ثم ها هو ذا صاحبكم يفكر في الصحراء من جديد . ولقد انتهى به تفكيره الى مفارقة عجيبة ما اتفه رحلة الصحراء بالقياس الى رحلة الروح . كم يود لو ان رحلته الروحية كانت نتيجتها دانية القطوف كرحلته في سبيل العلم

ولعلَّ هذا هو السر في ان كل من راد الصحراء مرة لا يستطيع ان يصبر عنها ، ولا يملك الاَّ ان يعود اليها ، عله يوفق من طريق رحلة العلم ، الى اقصى ما يستطيع ان يدرك من رحلة الروح ، وهو الدور من فاتحة الطريق الى الله

موت البلبل

ما أتعسَ الفنَّ في حياتِهِ ! وأتعسَ الفنَّ في مماتِهِ !
قد وَاتَتِ الآسِيَ الأمانِي والجاريَ الماءَ لم تُواتِهِ
والخالَ الدهنِ مُستريحٌ في الوكرِ، في القصرِ، في فلاتِهِ
والساهرُ الليلَ قد سَواهُ وشَوْهَ الموتُ ذِكرياتِهِ

***

في هَدْأةِ الليلِ، في دُجاهُ في معبدِ الكونِ في صلاتِهِ
يسامرُ الصائدُ المنايا والحيُّ لاهٍ بِمُلْهياتِهِ
ونِيَّةُ الشرِّ إنْ تراءتْ هَدَّتْ على الطيرِ أُمْنِياتِهِ
والبلبلُ الصادحُ المُغَنِّي الساهرُ الليلَ في شَكاتِهِ
حَيرانُ مايهتدي لِغُصْنٍ حتى يُصَبِّي الى لِداتِهِ
قد اخرَجَ الليلَ من رُؤاهُ فراحَ يُصْغِي لِمُطْرِباتِهِ
والنسمةُ العذبةُ استراحتْ مأخُوذةً مثلَ سامعاتِهِ
يمرُّ بالروضِ ما يُغَنِّي يهزُّ في الروضِ مُورِقاتِهِ
ما اجملَ الكونَ حينَ يُصغي لهاتفٍ صاغَ مُبْدعاتِهِ !

***

وبينما البلبلُ المُغَنِّي يعيدُ لحناً على هُواتِهِ
دَوَّى بجوفِ الدُّجَى دَوِيٌّ فَرُوِّعَ الكونُ في صَلاتِهِ
وهلَّلَ الصائدُ ابتهاراً وَرَدَّدَ الليلُ قَهْقَهاتِهِ
وضاعَ في الأُفْقِ كلُّ لحنٍ وليسَ يَبْلوي على شَتاتِهِ
وفي ازيزِ الرصاصِ يَبْسي مُستمْلِحُ الصوتِ أُغنياتِهِ

***

وصدَّعَ الفجرُ جانِبَيْهِ وابقطَ الصُّبْحَ من سُباتِهِ
فهبَّ يمشي على ضحايا وراحَ يُصغي لهاتفاتِهِ
والبلبلُ الخافِتُ المُغَنِّي الزَّهْرُ يَحْنُو على رُفاتِهِ

حسن كامل الصيرفي

الرحلة والرحالون[1]

في القرون الوسطى

بين سقوط الامبراطورية الرومانية في القرن الخامس واكتشاف امريكا في القرن الخامس عشر تمتد الف وتيف من السنوات تعرف عند المؤرخين بالقرون الوسطى ، ومع ان حوادث جسيمة قد تمت فيها فقد كانت الرقعة التي تشغلها بالنسبة الى العالم المعروف الآن صغيرة جدا لا تتجاوز حوض البحر الابيض المتوسط وواسط اوربا . وكان هذا الجزء المعروف تحيطهُ — في نظر الاوربيين على الخصوص — حجب الظلام الكثيفة ، فشواطئه الغربية تنتهي بالبحر الذي لا تخر السفن عبابه — بحر الظلمات — وفي شماله تقع مناطق الذعر والجليد والظلام ، وشرقه قفر آخره مساكن الاقوام المغولية المتوحشة . وجنوبيهُ ينتهي بالمنطقة الحارة التي لا تستطيع البشر ان تسكنها ، والتي فيها بحر تغلي المياه فيهِ باستمرار لشدة الحر ، حتى ان الاسماك لا تعيش فيهِ ، وكل هذه المناطق فيها من عجائب الخلق والهول ما يمنع الناس من الاقتراب منها بله الدخول فيها

وفي هذه المنطقة الضيقة وفي هذه القرون العشرة تمت الحوادث التي خلقت العالم الحديث بما فيهِ من نشاط ومدنية وعلم . ففيها سقطت الامبراطورية الرومانية التي كانت تتحكم في شؤون اكبر جانب من العالم المعروف عندئذٍ ، فانهار معها اكبر صرح سياسي اقتصادي عرف ، والغى القانون الروماني ، وصحبت ذلك هجرة القبائل الجرمانية وغيرها من مساكنها الاصلية واستيطانها في اوربا ، وتأسيسها امارات وممالك مضطربة ضعيفة على النظام الاقطاعي ، فانتشرت الفوضى وعمَّ النهب والسلب وغلبت القوة البدنية على الشرع والعرف والتقليد وحل السيف مكان القانون . وفيها خرجت امة كانت منتشرة في بادية العرب لا تجمعها رابطة دينية ولا تمسكها سلة سياسية حتى قام فيها محمد بن عبد الله فأوجد من تفرقها وحدة ، وخلق من تنازعها اتفاقاً وجعل من الوحدة والاتفاق المزوجين بالايمان قوة سارت مع خلفائهِ وقوادهِ حتى احتلوا في مائة سنة البلاد الواقعة بين النصين وبحر الظلمات ونشروا الاسلام في اكثر هذه البقاع . ثم عمدوا الى العلم والادب والاجتماع فحاطوها بعنايتهم واخرجوا منها للعالم خير الثمار واينعها واشهاها

وفيها توطدت النصرانية في الغرب واعتنقتها القبائل الجرمانية التي مرَّ بنا ذكرها وقويت البابوية وسيطرت على الحياة الدينية والعقلية في القسم الاكبر من اوروبا النصرانية ، حتى

---

(١) محاضرة تاريخية ألقاها مقولا الفندي زيده في نادي الشبيبة البيتلحمية ببيت لحم (فلسطين)

كان لها الامر وعلى غيرها الطاعة، وحدث في هذه المدة أكبر اصطدام بين الشرق والغرب فقد بقيت جيوش الصليبيين طيلة القرنين الثاني عشر والثالث عشر تتدفق على الشرق محاولة تملكه والاستيلاء على موارده الغنية واماكن العبادة والتقديس فيه . ومع ان هذه الحروب قد انتهت بخيبة الاوربيين وبقاء هذه البلاد بيد الشرقيين فقد كانت بعيدة الاثر في خلق اوربا الحديثة وفي جميع مناحي الحياة في ذلك الوقت وبعد ذلك الوقت

وحياة البشر في كل عصر ومكان تتأثر بما يعتورها من جسيم الحوادث وعظيم الامور ولما كانت الرحلات والاسفار مظهراً من مظاهر الحياة والنشاط فلقد كانت خاضعة في حكمها لهذه القاعدة واذن فقد تأثرت بما ذكرنا ، وهذا ما سنتحدث عنهُ الآن

يهتم المسافرون على اختلاف نزعاتهم بان يكون الامن مستتبًّا في البلاد التي يرحلون اليها وان تشرف على البلاد حكومة قوية ليأمنوا على ارواحهم واموالهم ومتاجرهم ولتعنى بالطرق والبريد لتنظيم الرحلة والسفر والاتجار. وقد كان هذا متوافراً في عهد الامبراطورية الرومانية فلما سقطت سقط معها كل ذلك فقلَّ تنقل الناس في القسم الاول من القرون الوسطى . فلما قام العرب وانشأوا دولهم المتسعة في مشارق الارض ومغاربها وقاموا على تنظيمها وسهروا على مصلحة الشعوب التي حكموها عادت التجارة الى ما كانت عليهِ سابقاً بل اتسع نطاقها كثيراً وعاد الجوَّابون يخترقون الآفاق وقد ساعدهم على ذلك انتشار الاسلام في كثير من هذه الاقطار فكانوا موضع احترام القوم اينما حلوا وليس ادلّ على مدى اتساع الرحلة في عهد الدولة العربية من حديث ابن بطوطة وهو سائح عربي من اهل القرن الرابع عشر لشيلاد من مدينة طنجه فقد روى انهُ لما كان بالصين بلغهُ ان احد علماء المسلمين قدم المدينة فاتصل بهِ فعرف انهُ احد مواطنيه وقطن الى ان التقى به في دلهي بالهند . ولما ارتحل ابن بطوطه عن ذلك المكان وهبط اواسط افريقيا لقي فيها مواطناً آخر هو اخ للاول . وهكذا كان يلتقي رحالو العرب في اقصى البلدان وانأى الامكنة

على ان قيام الدول العربية في الشرق الادنى وقضاءها على البيزنطيين فيه اوجد في نفوس الاوروبيين شيئاً من الخوف فقلت زيارتهم حتى للاراضي المقدسة الى ان عرفوا خطأهم بعد وقت قصير

وقد سيطرت الكنيسة على الافكار والعقول سيطرة اخضعت كل رأي وتول لسلطانها وصار همّ كل باحث ان يوفق بين ما كان عند اليونان والرومان القدماء من علم وبين ما في الانجيل من ايمان فاذا تعارض الاثنان وجد الدارس في الثاني حصناً من الكفر والزيغان وملجأ من رجس الشيطان فاختلطت على الناس الآراء الجغرافية الصحيحة بالاساطير والمختلقات . وشاب الحقائق العلمية خرافات لا يقبلها عقل ولا يرضى بها منطق فصار العالم المعروف منطقته تحيط بها كل انواع الاخطار من كل جانب فلا سبيل اذن للخروج من مسكن الانسان لاكتشاف

مساكن الشيطان او الاهتداء الى منازل الرحمن . وغصبت اقوال قوزمس وازيدور الناس الدرس والتنقيب . فاعتقد الناس ان النجوم مصابيح يخرجها الله كل ليلة لينير الناس لان الشمس والقمر ضعف نورهما بسبب خطيئة الانسان . وان الارض يابس يحيط بها ماء ينتهي بالفضاء فاذا وصل امرؤ الى ذلك المكان هوى الى ابليس او الى جهنم — الى مثل هذه الاعتقادات . وان قوماً مثل هؤلاء ينتشر بينهم هذا النوع من التفكير السقيم لاينتظر منهم ان يخاطروا بانفسهم فيخرجوا ليستكشفوا هذه الاصقاع النائية

اضيفوا الى كل هذه الصعوبات الاخرى التي كانت تعترض المسافر طول المدة ، فان اركولف احتاج الى سبع سنوات لزيارة الاراضي المقدسة في القرن الثامن الميلادي . وقد استغرقت رحلة بنيامين التوديلي ثلاث عشرة سنة

على ان بعض اقوياء العزيمة من اهل ذلك الزمان ، وبعض المفكرين منهم ، لم يحل دونهم في الرحلة حائل . واكثر ماجاء منهم قوة العزيمة من الايمان والتدين فان زيارة الاماكن المقدسة والتبرك بلمس تراب البلاد التي عاش فيها (المخلص) دفعت الكثيرين الى الاستهانة بكل هذه الصعوبات لينالوا هذه القداسة أو ليحصلوا على الشهادة في البلاد نفسها . وفي هذا تتفق النصرانية والاسلام بل ان الاسلام يحتم ذلك . اذ يعتبر الحج احد اركان الاسلام الخمسة ، على من استطاع اليه سبيلا . ومن ثمّ عني الحجّاج — المسيحيون والمسلمون على السواء — بتدوين اخبارهم وما وقعت عليه أبصارهم ، وما طرق آذانهم ليساعدوا غيرهم في سيرهم وتنقلهم. وقد كان بين الحجاج عدد كبير من اليهود فان هذه الجماعة التي جرمت منذ هدريانوس — في القرن الثاني — الاقتراب من بيت المقدس والتي سمح لها قسطنطين في القرن الرابع بزيارة انقاض الهيكل في التاسع من شهر آب (اغسطس) من كل عام ، كانت تتوافد الى القدس في ذلك العصر من اسبانيا والشرق للقيام بفريضة الحج الدينية. وعندنا من هؤلاء الحجاج الحاج موسى لموتيداس ويهوذا هيلقي وبنيامين التوديلي

وقد شاعت آراء واعتقادات كانت ذات صبغة دينية ، كان من شأنها ان تحفز الكثيرين من المسيحيين الاولين الى الرحلات والاسفار وأهم من هذه ان بين الجزر الواقعة في البحر الغربي ، او قرب منابع النيل ، تقع (جنة الفردوس) وهذا الاعتقاد حمل الكثيرين على السفر من اجل الوصول الى هذا الفردوس . وهذه الفكرة نجدها مردّدة في كتابات كل الكتّاب المسيحيين الاول من القرن الرابع الى القرن الثاني عشر

وعني بعض الآباء الروحيين الاوربيين بزيارة فلسطين للحصول على الآثار المقدسة — وهي ما صاحب المسيح او رسله في حياتهم — اذ كانوا يتكسبون بعرضها على الناس ، وباستخدامها في شفاء الامراض وغير ذلك من الامور ، كما انه كان على بعض هؤلاء

ان يقوموا باسفار تبشيرية في اواسط آسيا وافريقيا للنشر النصرانية بين سكانها

ومما يعتبر باعثاً على زيارة الارض المقدسة خاصة — العقاب . فان بعض المجرمين كان يحكم عليهم بزيارة مولد المسيح وقبره ليخلصوا من جرائمهم ففي سنة ٨٨٥ حكم على خرومون ان يزور فلسطين، عقاباً على جريمة فقيّد بسلسلة والبس رداء خشناً، وعفر رأسه بالرماد ، وسار حافياً . ولكنهُ عاد بعد اربع سنوات ، فلم يعف البابا عنه فقام بالزيارة ثانية ، حتى قال رضي قداسته

ولعلَّ التجارة اكبر عامل الناس على الاسفار رغبة في نقل المتاجر ، والتعرف على الطرق واختيار افضل وسائل الكسب . ومن هؤلاء التجار من دوّن اخباره ووصف الاقليم وصفاً دقيقاً فيه الصحة كل الصحة ، والاسلام الذي شجع التجارة بالغدوة ، اذ كان النبي واصحابه تجاراً ، خدم العلم خدمات جلى من هذه الناحية

يمكننا مما مرَّ بنا ان نقسم الرحالين الى حجاج ومبشرين وتجار وعلماء. والحجاج المسيحيون الذين زاروا الاراضي المقدسة قبل القرن الثامن الميلادي خلفوا عن رحلاتهم آثاراً كثيرة ، بعضها فيه روح التحقيق ، واكثرها مجموعات من الاساطير والخرافات . وقد ازداد مجيء هؤلاء الحجاج في القرن العاشر تلبية لنداء البابا من جهة واعتقاداً بان مجيء المسيح الثاني قد قرب ومن ثمَّ فمن المهم ان يكونوا فيها لينالوا البركات . وحجاج هذه الفترة كانوا على درجة كبيرة من الجهل فلم يتركوا آثاراً قيمة والذي ابقوه على كل حال يميل الى هذه العقلية السخيفة التي كانت تمتاز بها الجماعة الاوروبية في ذلك الزمن . اما المبشرون فاتخذوا اواسط آسيا مركزاً لاعمالهم، اذ كانت همة البابا متجهة نحو تنصير القبائل المغولية التي اخذت تهاجم الشرق، وترعب اوروبا بقوتها وسطوتها . وقد اشتدت هذه الحركة بين القرن الحادي عشر والقرن الرابع عشر. وبعض ما كتبهُ هؤلاء المبشرون عن تلك البلاد من خير ما يمكن الرجوع اليه في درسها

والتجار الذين تركوا اخبار الاقطار التي زاروها ، وبحثوا في حالتها الاقتصادية والاجتماعية، كثيرون . وقد كان العرب اصحاب السبق في هذا المضمار . ومما وثق الاتصال التجاري بين الشرق والغرب ، وحل عن العقول بعض القيود ، الحروب الصليبية

والرحالون الذين كان رائدهم في الرحلة الرغبة في الدرس والبحث بلوا عدداً كبيراً ، ولكنهم جاءوا في القسم المتأخر من القرون المتوسطة . ومن العرب ابن جبير وابن بطوطة ومن الافرنج ماركوبولو . وهذا الاخير كان من التجار ايضاً . وهؤلاء الثلاثة اعلام الرحلة العلمية في تلك القرون . « فسياحات ماركوبولو » يعتبرها الكاتب الانكليزي المستر ولز بين الكتب التي اثرت في تطور العقل البشري . وكتابات ابن بطوطة يشهد لها في دقتها ان كلية غوردون في الخرطوم تدرس فصل «ابن بطوطة في السودان » لدقته . اما ابن جبير فمن يقرأ كتابه يقرأ كتابة سائح حديث مزود بطريقة التفكير الصحيحة « لها تتمة »

التوائم والمحيط

للدكتور شريف عسيران

التوائم نوعان ، مختلفة ومتشابهة . فالتوأمان المختلفان هما المتولدان من بيضتين مختلفتين تلقحتا في آن واحد . والمتشابهان يتولدان من بيضة واحدة . ان اكثر الحيوانات الثديية كالهررة والكلاب تلد عدة اولاد دفعة واحدة تتولد من عدة بويضات ناضجة تلقحت في آن واحد وقد يحدث ذلك في البشر فيولد توأمان او اكثر من تلقيح بويضات مختلفة . ويختلف تولد التوائم باختلاف الحيوان . ففي المدرع (armadillo) [1] تنقسم البويضة الملقحة الواحدة في بدء تكونها الى اربعة اجزاء ينمو كل منها نمواً تاماً مستقلاً ويصير فرداً كاملا . ويتولد التوأمان في البشر بطريقتين الاولى انقسام البويضة الواحدة الى عدة خلايا يصير كل منها جنيناً كاملاً والثانية تولد التوأمين من بويضتين مختلفتين او اكثر . والنوع الانساني هو الوحيد الذي تحدث فيه الطريقتان . ولا يحدث في غيره من الانواع الحيوانية الا احداها

فالتوأمان المختلفان لا يتشابهان في صفاتهما الوراثية لانهما منشقان من بويضتين مختلفتين واما التوأمان المتشابهان فيتشابهان في صفاتهما الوراثية لان عواملهما واحدة . وقد اجروا احصاء في اكثر البلاد المتمدنة للتوائم فكانت النتيجة كما يلي : يحصل في المائة ولادة واحدة ذات توأمين . وفي كل عشرة آلاف ولادة ، ولادة واحدة ذات ثلاثة أتآم . وفي المليون ولادة ولادة واحدة ذات اربعة أتآم . ونظراً لاختلاف ولادة التوائم باختلاف الامصار وبسبب موتها قبل الولادة وقصر حياتها ولعسر ضبط تسجيلها لا يمكن جمع احصاء تام عنها

وتزداد وفيات التوائم بزيادة عدد أجنتها فكلما ازداد العدد كانت اكثر تعرضاً للموت فالتوأم الثنائي أقل تعرضاً للموت من التوأم الثلاثي وهذا أقل تعرضاً من التوأم الرباعي وهلم جرًّا

وقد تبين من احصاءات الحكومة الانكليزية انه يعيش من كل توأم ثلاثي نصف

---

(١) حيوان ليلي عديم الاسنان وهو موجود في اميركا الجنوبية جسمه ورأسه مغطيان بصفوف من عظام وجه في معجم الحيوان : حيوان اميركي اسمه يأكل النمل . النملة زوجة الفلان

البنات و ٣ الصبيان وسجلوا رسمياً توأماً سداسياً ولدت أجنتهُ في آن واحد

بيّنا أن التئمين المتماثلين او المتشابهين ينشقان من خلية واحدة ويكون هذا الانقسام او الانشطار احياناً غير كامل فيبقيان متصلين بعض الاتصال ويسميان التئمين المتصلين Siamese twins فالتئمان المنشطران من خلية واحدة يكونان دائماً من جنس واحد إما ذكرين او انثيين وهما متشابهان كل الشبه فالواحد نسخة طبق الاصل للآخر . وفي الواحد منهما نفس العوامل الوراثية التي في الآخر عدداً ونوعاً . ولا يمكن ان يتشابه التئمان المنشقان من بيضتين مختلفتين ولا افراد العائلة الواحدة تشابُهَ التئمين المتماثلين . فاذا قابلنا التئمين المتشابهين بغير المتشابهين وغيرهما من افراد عائلة واحدة استطعنا ان نعلم منشأ اختلاف الصفات . فالاختلاف الذي نشاهده في التئمين المتشابهين لا بدَّ ان يكون سببه غير العوامل الوراثية لانها واحدة في الاثنتين

وقد درس هذا الموضوع حق الدراسة فوجد ان منشأ الاختلاف بين التئمين المتشابهين غير العوامل وغير المحيط . فاننا نجد غالباً ان أحد فردي التئمين ايمن والآخر ايسر فلا يمكننا نسبة هذا الاختلاف الى العوامل الوراثية ولا الى المحيط لان الوراثة والمحيط واحد في الحالين . وقد حاولوا تعليل هذا الاختلاف بنسبته الى وضع احد التئمين قبل الانشطار فيكون احدهما في وضع خاصّ منذ تكوّن الخلية فيحافظ عليه حين الانشطار اي يكون موضع يده يميناً او يساراً فيستمر على الحالة التي كانت فيها . اما الثاني فيتغير موضع يده اثناء الانشطار . فالتئمان المتشابهان اللذان فيهما نفس العوامل الوراثية يكون احدهما ايمن والآخر ايسر بسبب الظروف التي تصادفهما في بدء نشأتهما ويكون احد التئمين في كثير من الاحيان اقوى وانشط من الآخر وسبب ذلك ظروف خاصة في اثناء التكوّن . ويظنُّ ان التئم الذي يحافظ على الوضع الاصلي قبل الانشقاق يكون عادة اقوى وانشط . اما في ما عدا هذه الفروق فان التئمين المنشقين من خلية واحدة يتشابهان تمام المشابهة في الجنس ولون العينين والجلد والشعر وفي حجم الجسم وترتيب الاسنان وتقاطيع الوجه والآذان والايدي وفي الامراض التي تتشابهان وشواذ خلقتهما ولهجة صوتهما واشاراتهما ويوجد مشابهة مجهرية في أسرّة الكف (خطوط الكف) وأخمص القدم وبصمات الاصابع وتسترعي نظرنا ظاهرة غريبة وهي ان اسرّة كف احد التئمين اليمنى مثلاً تشبه صنوها اكثر من مشابهة اليسرى لصنوها وهذا الفرق للشيء عن ظروف خاصة اثناء الانقسام وينكر بعض العلماء هذه الفروق

***

بيّنا ان في التئمين المتشابهين شخصيتان لكل منهما نفس العوامل الوراثية التي

للاخرى فلا يمكن ان تنشأ فروقهما العقلية عن اختلاف تلك العوامل ولا بدَّ ان يكون منشأ هذا الاختلاف اختلاف محيطهما ونشأتهما . وقد درسوا اربعة توائم ثنائية درساً دقيقاً معززاً بالتجارب العلمية بعد ان فسحوا بعضاً عن بعض في اوائل حياتهم فدرس تلميذ منهم الاستاذ مُلر Muller الاخصائي بعلم الانسان والتوائم الثلاثة الباقية درسها الاستاذ نيومان Newman الاخصائي بعلم الأجنة وبيولوجيا التوائم واليك نتيجة ابحاثهما :

اختار مُلر اختين تلميذتين فصلتا في اول اسبوع من حياتهما ولم ترَ احداهما الاخرى الا في سن الثامنة عشر وبقيتا مفترقتين من ذلك الحين الى سن الثلاثين اي اكثر من تسعة اعشار عمرهما فعاشتا في اقليم شمالي غربي خصب وفي ارض غزيرة المعادن وفي احوال اجتماعية متشابهة فكانتا متشابهتين جسدياً كل التشابه وصفاتهما هي نفس الصفات التي يتفق فيها التوأمان المتشابهان. فكانت كتابتهما نشيطة عمامة قديرة محبوبة واشتهرتا في الاعمال التي تقتضي التعاون كالجمعيات وما اشبه وأصيبت كل منهما بالتدرن الرئوي مرتين او ثلاثاً في نفس الوقت . واصيبت احداهن بحور في اعضائها وهي في العقد الثاني من العمر وكانت الاخرى على وشك ان تصاب به كذلك . ونتيجة امتحان الذكاء متشابهة في الاثنتين مما يدل على ان المشابهة ناشئة عن العوامل الوراثية . وقد اختلفت نتائج التجارب الاخرى غير العقلية اختلافاً بيناً كفترة رد الفعل الحركي Motor reaction time وسرعة ربط الامور بعضها ببعض Association time والارادة والعواطف والاتجاه الاجتماعي وكان اختلافهما من هذه النواحي اكثر من اختلاف شخصين آخرين اختيرا صدفة واجريت عليهما نفس التجارب

ويتبين من درس هاتين التلميذتين المتشابهين ان لمحيط المرء ونشأته اثراً كبيراً في طباعه وعواطفه ومظاهره الاجتماعية فهذه الصفات تختلف اختلافاً بيناً في نفس الاشخاص الذين فيهم عين العوامل الوراثية في حين ان نتائج امتحان الذكاء تتأثر تأثراً يسيراً بالمحيط وكانت متشابهة في الغالب

ودرس نيومان ثلاثيين ثنائيين احدهما اخوان والآخر اخوان وكان كل منهما تلميذين متشابهين فصل احدهما عن الآخر قبل ان يبلغا السنة الثانية من العمر وبقي منفصلين حتى سن العشرين . ولد توأم الاختين في لندن ثم فصلتا في سن ١٨ شهراً فسكنت احداهن اتلانتيو بكندا والاخرى لندن واجتمعتا بعد ١٧ سنة في اتلانتيو وبقيتا معاً سنة كاملة اجريت في خلالها التجارب عليهما . وكان محيطهما مختلفاً كل الاختلاف في خلال انفصالهن . ومن الغريب ان نتائج تجربة نيومان كانت مختلفة حيث تشابهت نتائج تجربة مُلر والعكس بالعكس . فاختلفت الاختان التوأمان كل الاختلاف في مواهبهما العقلية . ويقول نيومان ان الاختلاف بينهما كان ثلاثة اضعاف الاختلاف بين ٥٠ من التوائم الثنائية المتشابهة التي نشأت معاً . وعلى النقيض من ذلك

تشابهت ارادتهما وعواطفهما . وفي هذه الحادثة دليل قوي على ان اختلاف تجارب الحياة يؤثر في القوى العقلية ونتائج امتحان الذكاء

اما توأم الاختين الثاني فهذب تهذيباً مختلفاً فبقيت احداهما في المدرسة سبع سنوات اكثر من اختها. واليك خلاصة تقرير نيومان عنهما :

ان هاتين التلميذين الثلثين كانتا متشابهتين في سن الـ ١٨ شهراً بقيتا تسع عشرة سنة تجهل احداهما الاخرى فتكينتا تكيفاً كبيراً بسبب اختلاف طرق تهذيبهما . فان تفوق احداهنَّ العقلي على الاخرى كان ظاهراً كل الظهور سواءٌ من الوجهة الفطرية (الطبيعية) او غيرها . فالتي تهذبت اكثر من اختها كانت اشدَّ تفوقاً من الناحية العقلية

ومن البديهي ان التمرين العقلي ينمّي مقدرة الفرد ويسهل عليه جواز اي نوع من امتحانات الفهم حتى الامتحانات الامية التي لا يستعملون بها لغة ويقتصرون فيها على فحص ذكاء الشخص وقوة نباهته وكانت عواطفهما وانفعالاتهما النفسية متشابهة تشابهاً بيناً على الضدّ من مواهبهما العقلية

***

اما الزوج الثالث فكان اخوين تئمين احدهما زيد ساكن المدينة والآخر عمرو ساكن القرية وقد امتحنا ولهما ٢٣ سنة من العمر فكانت مواهبهما الطبيعية متساوية تقريباً . وظهر فرق بين في شخصيتهما العامة فكان زيد اكثر انفة وتحفظاً واحتراماً لنفسه واشجع واكثر اختباراً واقل مصادفة من عمرو يبتسم دائماً وسيماء المهابة في جبهته وعينيه اكثر من عمرو ويقف منتصباً اكثر منهُ وذقنه مرتدةٌ الى الوراء وحجّاجاهُ متدليان تقريباً على عينيه. ويختلف عمرو عنهُ فهو نموذج لمن يسكنون القرى يضحك حالاً ولا يحافظ على وقاره قط .ويؤكد نيومان ان شخصيتي الاثنين كانتا مختلفتيْن كل الاختلاف

***

ان درس افراد التوائم الاربعة الذين نشأوا منفصلين يؤيد ما يذهب اليهِ البعض من ان للمحيط والنشأة تأثيراً عظيماً في الصفات العقلية والنفسية حتى في الاشخاص الذين تكون عواملهم الوراثية متشابهة .ويؤيد ايضاً ان للعوامل المذكورة تأثيراً بيناً فالتوائم كانوا متشابهين في كثير من صفاتهم العقلية تارةً وطوراً في امزجتهم مما يبين ان للعوامل والمحيط أثراً في العقل والنفس

[المقتطف : جاء في المحيط صفحة ١٥٥ ج ١ مادة توأم : توأمت الام : تمت ولدت اثنين فصاعداً في بطن واحد فهي متئم . وتوأمه احد متوائمين ولد معه فهو تشه وتؤمه وتشيه . ويقال هذا توأم للذكر وهذه توأمة للانثى فاذا اجتمعا فهما توأمان وتوأم كما يقال فهما زوجان وزوج]

مكانك يا عشق

ظننتك وليت يا عشق فيما اراك تعاود جنبي المقيما
وبالأمس كنا حلفنا ليقطعن كلانا أخاه الحميما
لعز القطيعة شقت عليك فشئت تجد الوصال القديما

*

مكانك يا عشق، ان جئتني لتشجيني فاني ملأت الهموما
ألا قد بلوتك حتى تبينت خلف رُوائك وجهاً شتيما
كأنك خمر تُريح الفؤاد وتنشر في الجسم داء مقيما
كأنك ادركت كيف تطيب فيك الحياة فتجري نعيما
فأرسلت تلك الهموم اقتضاء ولم ار اعسر منك غريما

مصر الجديدة بشر فارس

جان جاك روسو

تحليل دقيق لمبادئه وآرائه الفلسفيه

﴿ تمهيد عن روسو ﴾ يكاد يكون روسو الوحيد بين الفلاسفة الذي انشأ نفسه بنفسه لانه لم يدخل مدرسة ولم يتعلم ويتثقف الا بين احضان الطبيعة ، فشبّ حرًّا من كل قيد ، طليقاً من كل ما يرسف فيه غيره من اغلال العادات والتقاليد ، نفوراً من الناس لا يميل الى معاشرتهم ولا يأنس بصحبتهم ، لانهُ راقب البؤس منذ نعومة اظفاره وذاق من مرارة العيش وعلقم الحياة ما جعلهُ حقوداً على بني البشر ، نزوعاً الى لوم مساوئهم ، ميّالاً الى عدم الثقة بعدالتهم وبصلاحهم . وقد كان في شبابه وسيم المحيّا جذّاب الملامح وأكسبه تجواله في الجبال والاودية متانة العود ورشاقة القد فأصبح جميلاً فتاناً ولذلك صادف نجاحاً عند كل الذين تعرّف بهم ولاسيما لدى الجنس اللطيف ، وكان ذلك مدعاة لانضاج آرائه الفلسفية ومذاهبه الاجتماعية التي بثها في كتبه فعجلت في اشعال نيران الثورة الفرنسية وكان لها اكبر تأثير في مذهب الادب التجديدي المسمى رومانتيك

وقد خالف سائر الفلاسفة في آرائه ونخطاهم بمراحل عديدة ، وأهم فارق يبعده عنهم هو كونه حسيًّا . اي انه لا يهيم في اودية الخيال ليعبر عما يتصوره بادراكه وعقله بل كان يرسم بقلمه ما يشعر به بحواسه . فبينما سائر الفلاسفة يقضون اوقاتهم في التفكير كان روسو يقضي وقته بالتمتع والتألم ؛ وبينما وصل غيره بالبحث والتحليل الى فكرة الرأي وتكوين العقيدة وصل هو بحسه وطبيعته الى حقيقة الادراك وصحة الاعتقاد . فاولئك يبحثون ويحللون وهو يعيش ويشعر ؛ وكل ما خطته انامله مستقى من شعوره واحساسه ولذلك بدت آراؤه كأنها مستخلصة من مسبباتها ، شعرية ، حقيقية ، ثابتة ، مشيّدة لا مخرّبة هدّامة ، على نقيض آراء غيره من الفلاسفة التي تبدو على الخصوص تحليلية ، نقادة ، سلبية ، انكارية ، نافية ومدمّرة . فلدى هؤلاء الفلاسفة حقد أتم ، وتهكم أعم ، واستهتار وازدراء عظيمان ، حيث لا يوجد لدى جان جاك روسو سوى حماسة وحبور وافتتان وسرور

﴿ حياة روسو ﴾ ولد جان جاك روسو في مدينة جنيف بسويسرا في اليوم الثامن والعشرين من شهر يونيو سنة ١٧١٢ من اب فقير يشتغل باصلاح الساعات ؛ وماتت امه وهو طفل فكفلته عمتاه ولكن لم يلبث منهما اعتناء كبير بينما ابوه الاارعن الاخرق كان يحشو عقله وتصوراته بالروايات العشقية . فكان يقضي واياه الليالي ساهرين يقرآنها بشغف وهيام حتى مطلع الفجر ،

ثم نبذ روسو الروايات والقصص وعكف على قراءة فوطرحس المؤرخ اليوناني والاخلاق الكبير الذي وضع كتابه الشهير المسمى «تاريخ الرجال العظام عند اليونان والرومان» فملأ الفتى رأسه باخبار الاقدام والشجاعة . وفي سنة ١٧٢٢ غادر والده مدينة جنيف لسبب غير مشرف وعهد بابنه الى خاله برنار والى زوجته فادخلت هذه الاخيرة روسو في معهد عند احد الرعاة الانجليكانيين الكائن في بوسي بالقرب من جنيف ، فتفتحت ميول الفتى للطبيعة لكنه عاد الى جنيف ووُظف عند احد النساخ لكنه لم يحسن القيام بما طلب منه فادخل عند حفار غليظ الكبد سخري القلب كان يشبعه ضرباً فيسرق له روسو فواكه حديقته وكل ما تصل اليه يده

وكان قرب حانوت الحفار مكتبة فشرع الفتى يقرأ كل كتاب يجده على متناول يده لكن الحفار كان يحرق له الكتب ويضربه ضرباً موجعاً اليماً . فعوّل روسو على ان يجد له مخرجاً مما هو فيه ، وبينما هو ذات يوم يهيم في ضواحي جنيف متمتعاً بما يتجلى امامه من مناظر الطبيعة الخلابة اقبل اليه من دون ان يدري ، ولما قفل راجعاً وجد ابواب المدينة مغلقة فحمد الله على هذه الفرصة وعزم على هجر جنيف والضرب في هضاب الارض وشعابها وكان عمره وقتئذ ست عشرة سنة ، فسار في مقاطعة السافوى فالتقى به قسيس كاثوليكي فأرسله الى قصر سيدة تسمى مدام دي وارانس اخذت على نفسها رد البروتستانت الى الكثلكة ، فراقها حسن منظره فبعثت به الى دير في مدينة تورين حيث اعتنق المذهب الكاثوليكي بسهولة ، وبعد ذلك غادر الدير وفي جيبه عشرات الفرنكات ولما نفدت التحق بخدمة المنازل ليعيش

وبعد ما تنقل في مدن عديدة وبلدان شتى عاد الى قصر مدام دي وارانس فادخلته في دير قريب ليصبح قسيساً لكن نزعته الآثمة ما لبثت ان عاودته فشرد في البلاد وزار لوزان ونيوشاتيل وليون وباريس وحط رحاله في مقاطعة الشامبيت الجميلة حيث مكث ثلاث سنوات من سنة ١٧٣٨ الى سنة ١٧٤٠ ، فعكف على الدرس والمطالعة واتمام ثقافته فدرس الكتب الفلسفية والتاريخية واللاهوتية والشعرية وغيرها

وبعد ما طوّحت به الاقدار في بلدان اخرى عاد الى باريس وتعرّف بالعلماء والفلاسفة ، فكلفهُ الفيلسوف ديدرو ان يدبج المقالات الموسيقية اللازمة لدائرة المعارف ، وفي سنة ١٧٤٩ وضعت ندوة العلوم في مدينة ديجون جائزة مالية لمن يحسن الاجابة عن هذا السؤال «هل تقدم العلوم والفنون ساعد على افساد الاخلاق او على تطهيرها ؟»

ففاز روسو بالجائزة لان جوابه كان مضاداً للرأي العام القائل بان العلوم والفنون هذّبت من طباع البشر ورفعت من اخلاقهم . فظهر دفعة واحدة وذاع صيته وانتشر اسمه ولما اظهر كتابه المسمى « رسائل في عدم المساواة» احدث الكتاب ضجة عظيمة ودويّاً كبيراً في اندية الادب وفتحت العاثورات والقصور في وجه المؤلف الشاب لكنهُ كان جافاً في طباعه نفوراً

من الناس لا يحسن المعاشرة ولا يميل اليها ، فنبذ كل هذا وهجر المال الوفير الذي كان يتدفق عليه وعاد الى تجواله رغم تمسك رجال الادب والفلسفة به

وفي سنة ١٧٥٤ رجع الى احضان البروتستانتية ، وبعد ما جاس الديار في فرنسا وسويسرا وانجلترا وعشق كثيراً وتبدّل اكثر عاد الى باريس وسكن في منزل حقير وشرع ينسخ القطع الموسيقية ليجد ما يقتات به بعد ما صودرت كتبه في كل البلدان تقريباً

وعندئذ تولاه شبه جنون كان يصور له الناس كلهم اعداء له يعملون على النكاية به فأغلق بابه دون فساده وزواره الذين كان معظمهم من علية القوم وذوي المكانة الادبية والعلمية وكان يطردهم بغلظة وفظاظة ، ومات في سنة ١٧٧٨ فقيراً معدماً ويقول التاريخ من المحتمل ان يكون قد انتحر مدفوعاً الى ذلك بالخلل الذي طرأ على عقله

﴿ مؤلفات روسو ﴾ لبث هذا الفيلسوف الكبير والكاتب العبقري حتى السابعة والثلاثين من دون ان يخط شيئاً او يبرز رأياً الى ان جرت مباراة اكاديمية العلوم في ديجون في هل ساعد تقدم العلوم والفنون على رقي الاخلاق او عمل على افسادها، فكتب رسالته الشهيرة وفاز بها على سائر المتسابقين وكان ذلك في سنة ١٧٤٩ ، ومنذ ذلك الزمن حتى سنة ١٧٦٢ اي في اثنتي عشرة سنة وضع كل مؤلفاته التي رفعته الى اعلى طبقة بين رجال الفلسفة والادب وهي «نارسيس» و«هيلويز الجديدة» و«رسالة في المناظر» و«العقد الاجتماعي» و«اميل» و«رسائل في عدم المساواة»

واما «اعترافاته» ومتمماتها «التأملات» فقد الفها في الست عشرة سنة الاخيرة، وهي ليست بذات قيمة من الوجهتين الفلسفية والادبية، لانها ليست سوى تخيلات شيخ طاعن في السن يحيا بتذكاراته الماضية معيداً في مخيلته باشتياق عظيم ولذة كبيرة حياته السالفة المشوشة غير المنتظمة

﴿ آراء روسو الفلسفية الاجمالية ﴾ الانسان صالح في حالته الطبيعية ، وكيف يمكنه ان يكون غير ذلك والشرائع غير موجودة وعلم الاخلاق الاصلاحي لا اثر له ؟ فهو لا يخطىء ضد القواعد اذ ليس ثمت قواعد، وهو اناني لكنه لا يتبع في ذلك غير الغريزة التي تملي عليه المحافظة على بقائه ، فهو اذن بريء كالحيوان ، لا يسعى الا لاشباع حاجته فلا يمد يده باذى الى احد ، ولا يتطلب شيئاً غير ذلك اذا ما نال تلك الحاجة . وهو ذو احساسات لطيفة او مشعبة توقظ نشاطه وتنبّه غريزته ، ولا يتطرق اليه الفساد الا في اليوم الذي يعلو فيه تفكيره على احساسه ويسمو فيه عقله على غريزته ، فعندئذ تملي انانيته الشرعية الجميلة المكان للمنفعة الظالمة الكريهة، فالتنازع والشقاء يتولدان من تعدد الاحتياجات ومن الابتكارات المصطنعة للذّات الآراء ، ومن الاحتياطات للمنافع المقبلة المخالفة للطبيعة، فالاجتماع قد افسد بايجاده فيه التفكير والعقل والمنفعة، وبامانته في عاطفته حاسة الشفقة ، وبتنبيهه فيه شهوات النفس الى ما وراء حاجته ، وبتخطيه في ذلك حدود الحاضر وتطلعه بلهف الى المستقبل القريب والبعيد

﴿ رأيه في « رسالته في عدم المساواة » ﴾ يظهر لمن يدرس مؤلفات هذا الفيلسوف ان آراءه متضاربة متناقضة ومبادئه لا تسير على وتيرة واحدة بل هي متعارضة متباينة قد ينقض بعضها بعضاً . وهذا ما عابه عليه كثير من النقاد ، ولكن من يتعمق في درس كتب روسو ويستوعبها تكن دقائقها يجد ان آراءه وان بدت في الظاهر غير ذات صلة فهي في الباطن متضامنة متناسقة متسلسلة ترمي الى غرض واحد وهو ان الانسان خلق حراً فاستعبد وولد سعيداً فأرهق بالظلم والمغارم ، وان الانسان الطبيعي اشرف نفساً وارفع مبدأ من الانسان الاجتماعي فيجب اذن الرجوع الى الطبيعة ولكن في عدم تفهقر الانسان عما وصل اليه في الاجتماع ، لان الطبيعة لا تتفهقر — وهنا سر اتآخذ التي يأخذها النقاد على روسو — فهو يعترف في بعض كتبه مجلياً هذه النقطة من ان الانسان الاجتماعي افضل من الانسان الاصلي أي من الانسان القديم الذي كان يعيش في احضان الطبيعة كالحيوان الاعجم ، ولكن يجب ان ينقّي الاجتماع من الشوائب التي تسلقت اليه لكي يتسنى للانسان الاجتماعي ان يعيش في بيئته الجديدة حراً طليقاً من كل قيد ، سعيداً لا يرهقه عسف ولا ينزل به ظلم او جور ، بعيداً عن المؤثرات الاجتماعية التي تفسد ميولهُ الفطرية السامية وتدهور اخلاقه وتنزل من سمو نزعاته ومراميه . واما رأيه الذي ابتدأه في عدم المساواة فينحصر بقوله : ان رذيلة الاجتماع الاساسية هي عدم المساواة بين افراد البشر ، وتوجد في الطبيعة ايضاً نقيصة مثل هذه لكنها لا تمنع احداً من ارضاء شهوة نفسه ، ولا تُسعي احداً من العمل على ارضائها ، فهي تترك كل واحد حراً وتوجده سالماً وسعيداً ، واما عدم المساواة الاجتماعية فهي تخلق امتيازات بين افراد بني الانسان فتقول لبعضهم خذوا كل شيء ولا تعملوا شيئاً بينما تقول لسواد الناس : كدّوا واتعبوا ولكن ليس لانفسكم بل لغيركم . فتُوجِد بذلك ظُلّاماً وعبيداً واشراراً واشقياء

واصل الداء الاجتماعي الملك ، فهو ركن الهيئة الاجتماعية ودعامتها المتينة ، فالقوة والجاه والعظمة والشرف كل هذه الصفات المجحفة تعود الى عدم المساواة في توزيع الاموال أي تعود الى الملك ، وعراعاة هذه الحالة يمكننا ان نعبر عن الشر الاجتماعي بانه تعارض بين الغنى والفقر

﴿ جوابه عن سؤال اكاديمية العلوم في ديجون ﴾ لما كان الاجتماع شريراً في جوهره ، ولما كان كل تقدم ينحصر في كونه يسير من سيء الى أسوإ ، فسنة الحالة الاجتماعية البارزة هي دليل على فساد اشد واقوى ، أي كلما تمعن الاجتماع في رقيه كان شره أعم وضره أتم ، لان تقدم الهيئة الاجتماعية يقاس بدرجة ارتقاء الآداب والفنون التي هي ابتكارات الانسانية الذكية ، غير انها تدل دلالة واضحة على عسف هذه الانسانية وظلمها ، لان هذه الابتكارات متولدة من الشر ، وهي في الوقت نفسه تُذكي هذا الشر وتزيد في ضرامه ، لاننا نرى في كل مكان الآداب والفنون على صلة وثيقة بالترف ، وما الترف الا غنى البعض بشقاء الكل

﴿ مذهب روسو في العقد الاجتماعي ﴾ الرجوع الى الطبيعة . . ولكن لما كانت الشقّة قد بعدت بين الحالة الفطرية والحالة الاجتماعية لا يتسنى للانسان ان يتخلص من هذه ليعود الى تلك . واذا أمكنه ذلك اصبح اشقى مما كان ، لان الانسان المتوحش والانسان المتمدن يختلفان اختلافاً عظيماً بنزعاتهما وعواطفهما وامياتها وخواليج فؤاديهما حتى ان ما يسبب سعادة الواحد يعود بالتعس على الآخر ؛ لان الانسان المدني افضل من الانسان الفطري من عدة وجوه ؛ ولو انهُ في حالته الجديدة يتجرد من مزايا عديدة كانت تمنحها له الطبيعة، ولكنه يربح في مقابل ذلك مزايا اخرى عظيمة، فخواصُّه تتمرن وتتبسط ، وقواه العقلية تتمرّس بشؤون الحياة ، وافكاره تتسع ، وعواطفه تسمو وتشرف ، ونفسه كلها ترتفع وتعلو حتى انه لولا التطرف في تقصه الحديث الذي ينزل به في اكثر الاحيان الى دركة احط من التي ارتفع منها لوجب عليه ان يبارك الزمن السعيد الذي انتشله الى الابد من تلك الهوة العميقة ، والذي جعل منه مخلوقاً ذكيًّا بل صيره انساناً بكل معنى الكلمة

ان روسو لا يود ان يعود الانسان القهقرى الوف السنين ليتعوز بالمزايا الفطرية التي كان يتحلى بها بل يريد ان يحتفظ هذا الانسان بما وصل اليه من رقي عقلي وتثقيف ذهني وتقدم علمي دون ان تسفَّ الاخلاق الاجتماعية بهذه الصفات السامية الى الدرك الاسفل

ويتطلب هذا الفيلسوف من الهيئة الاجتماعية ان تمنح هذا الكائن النازع الى الكمال الحرية والسعادة والطيبة والصلاح وهي المزايا الطبيعية التي كان الانسان الاول يتحلى بها قبل ان يجرده منها الاجتماع ومساوئه ، ويعقب على ذلك بقوله ان الطبيعة اوجدت الانسان صالحاً لكن الاجتماع أفسده ، ولا يمكن للانسان ان يعود الى صلاحه الفطري الاّ بالله الذي خلقه صالحاً لكنه زاغ وحاد عن الطريق السَّويّ ، فالله القائم في نفسه يعيده الى ما كان عليه ؛ لانه ينبوع العزيمة الاخلاقية وسند الارادة وخير كفيل للتمهدات النفسية واعظم شهيد على خواليج القلب ونزعات الفؤاد، وبدون الله ينهار كل شيء ويضمحل بل يزول ويمحو اثره

ورأي روسو في العقد الاجتماعي ان لا يقتصر الاصلاح على الفرد بل يتناول المجموع ، فكما ان الفرد في حاجة الى تقويم مبادئه برجوعه الى فطرته الاولى كذلك الاجتماع محتاج الى الاصلاح في أسسه وتشريعه ، ويتسنى للهيئة الاجتماعية تنقية شوائبها برجوعها الى مبدئها أي الى السبب الذي كُوّنت من أجله

﴿ فلسفة روسو في كتابه « إميل او التربية » ﴾ التجديد المطلوب للفرد يبدأ بالتربية ، فالطبيعة صالحة والهيئة الاجتماعية شريرة ، فيجب اذن تَرك الحرية للطبيعة لتعمل عملها الصالح وابعاد الاجتماع عن التعرُّض لامر الطفل الذي يجب ان يكون بمعزل عن كل تأثير اجتماعي. فالطبيعة اوجدت الانسان المتوحش ، فلنجعل منه متوحشاً ، ولنقوِّ جسمهُ ولنُنمِّ

حواسه وتنبّه غريزته وتساعد فكره على التخلص من احساساته والصبر حتى يبدو عقله بدون ان تستعجل تضوجه بالوسائل ، فالانسانية تعلمت بالاحتياج والاختبار ، فلهيئ للتلميذ الاحتياج ولجهز له التجارب والاختبارات ، فالشكل البارز للفساد الاجتماعي هو في وضنا هذا « علم الادب » فيجب اقصاء الكتب عن التلميذ الذي لا يجب ان يبدأ بالقراءة الاّ في السن التي يقتضي لعقله فيها نمو ازدياد وتهيّم الجمال ، فالطبيعة لا تعرف غير الله ، واما القواعد الدينية فمن مبتكرات الهيئة الاجتماعية

فعلينا اذن ان لا اظهر للتلميذ غير الله ، وان لا نظهره لهُ الاّ عند ما يتمكن هو من رؤيته في الطهارة وفي لا نهاية جوهره ، فاذا نهجنا هذا المنهج شبّ طفلنا قويًّا نبيهاً صالحاً ذكيًّا عاقلاً تقيًّا سعيداً لان الانسان الفطري الذي أُنشئ في الطفل دون ان يفسده مبدأ اجتماعي قد مكّنهُ من الفوز بكل مزايا الطبيعة دون ان يتسنى له هذه المزايا تقائص الانسان المدني ورذائله

﴿ من اين استوحى روسو آراءه وافكاره ﴾ تدور كل مؤلفات روسو على محور الفردية ، فعقيدتهُ باجمعها مستقاة مما ألَمَّ بشخصهِ ، لانهُ عبَّر في كتبهِ عن ذاتهِ وعن صلتها بالهيئة الاجتماعية . ولكن لا يجب ان يتبادر الى الذهن ان روسو انما أتى بآراء وافكار لم يسبقهُ اليها احد قبله ، وقد كان شأنهُ في ذلك شأن غيره من الفلاسفة والكتّاب ، فالمتأخر يأخذ عن المتقدم نظريات يعود الفضل فيها اليهِ لتوسعه في شرحها وتبيانها والباسها ثوباً قشيباً لم يكن لها من قبل حتى تبدو كأنها جديدة لرواتها وبهائها

فقد اخذ روسو عن الفيلسوف ديدرو رأيه في مناصبة الاجتماع العداء وفي العودة الى الطبيعة ، وتناول من كوندياك مذهبه الخاص في الاخذ بالامور الحسية والانتقال من المشخّص الى المجرّد ومساعدة الطفل على ان يكتشف بنفسه كل الافكار والآراء عوضاً عن ان نلقنهُ اياها (وهذا ما بنى روسو عليهِ كتابه المسمى اميل او التربية)

واخذ عن بوفون الآراء المدعمة والمقوّمة لحدسه عن الانسان الفطري وعن مذهب التحوّل القاضي بتطور العالم وما فيهِ من الكائنات ، وتناول من مونتسكيو فكرة الشخص المتوحش الخجول البريء وفكرة عدم المساواة ونظم الجماعات للفرد ، واخذ ايضاً عن هذا الكاتب الاقتصادي والاجتماعي وعن برسيه وعن هبز المذهب القائل ان كل الحقوق تتخذ اصولها ودعائمها من الهيئة الاجتماعية وان الانسان يستمدّ هذه الحقوق كلها من الاجتماع نفسه ، وتناول عن بسكال فكرة الحكم على المِلَل الذي كان ذلك الفيلسوف يعده اغتصاباً بيّناً

وصفوة القول ان كل هذه الآراء كانت شائعة في زمن روسو فجمعها هذا وصاغها في قالب يستهوي القلوب ووسمها بميسمهِ الفصيح الشائق مستمدًّا من حالتهِ النفسية ومعيشتهِ ونشأته ما جعلها فتّانة خلاّبة

﴿ مقابلة في المُعْتَقَد بين روسو وفولتير ﴾ يعجب البعض كيف ان جان جاك روسو ظلّ مؤمناً وهو الذي شنّ الغارة على كل سلطة مع ان فولتير لم يتطرّف تطرُّفه لكنهُ كان ملحداً كافراً لا يؤمن بالله بل لا يعتقد بوجوده. فروسو كان بروتستانتيًّا والتابع لهذا المذهب المسيحي لا يسعهُ مهما شطّت به الآراء ان ينقلب على دينهِ وناصبهُ العداء لان المذهب نفسه يبيح لهُ حرية الرأي والتفكير والاخذ بما يرتئيهِ وان كان رأيه هذا مخالفاً لآراء اخوانه في المذهب والمعتقد ، بينما الدين الكاثوليكي لا يسمح باقل شذوذ او خروج عن المعتقد المحدود وسلطته العليا التي يجب الرضوخ لها تحتّم على كل من لا يعتقد بجزئياته وكلياته ان يخرج من احضانه

ولما كان فولتير كاثوليكيًّا شاذًّا في الاعتقاد متطرفاً في الرأي يأبى ان يخضع لسلطة مذهبهِ فقد أُبعد عن الكنيسة الكاثوليكية ولذلك ناصب الدين العداء طيلة حياته حتى ان الشطط بلغ بهِ الى ان يتصور الله سبحانهُ وتعالى فكراً — ليس الاّ — انتجتهُ الاكمة الفلسفية ووسوسة اظهرتها المنافع العمومية . فالفرق اذن بعيد بين فلسفة روسو القائمة على نبذ كل شيء في الدين ما عدا الله الذي كان جان جاك يعتقد بهِ اعتقاداً راسخاً وبين فلسفة فولتير المشيدة على الكفر والالحاد وعلى نبذ كل شيء حتى الله جلّ جلاله

ولكن لا يسع كل انسان مهما تحجر قلبهُ وصلدت عواطفهُ ومهما إدّعى الكفر والالحاد وملأ المسامع شقشقة لسان وحشا الكتب بالمروق والزندقة الاّ ان يعترف في قرارة نفسه بانهُ يوجد إله قوي يسيطر على العالم ويهيمن على العباد ، ولذلك لما رأى فولتير الذي ملأ الدنيا بكفره والحاده نفسه على فراش الموت وتطلع فياحواله فلم يجد صديقاً ولا حميماً حقيقيين ورفع رأسهُ الى علٍ فازورّت عنهُ رحمة الله لانهُ لم يتطلبها . . لما رأى نفسه في هذه التعسة اقرّ رغم انفه بوجود الله الذي انكره وصاح من فؤاد مكلوم : اني اموت منبوذاً من الله والناس

﴿ مذهب روسو في بوتقة النقد ﴾ ان مذهب روسو وان كان خلاّباً في مظهره الخارجي لكن باطنهُ يرتكز على دعائم تكاد تكون سفسطية اي قياسية ليس الاّ ، لاسيما فيما يتعلق بتسلسله ونتائجهِ السلبية ، اذ لا يمكننا ان نوافق هذا الفيلسوف على زعمه من ان الانسان الفطري كان صالحاً للدرجة التي صوّرهُ بها الهم الاّ اذا كان صلاحهُ مماثلاً كما يقول روسو لصلاح الفرد المسمى « الاوران اوتان » الذي لا يفكّر بامر غده ولا يجمع المال ولا يدّخره ولا يسخّر غيره من القردة ولا يستعبدها ولا يجبيها ولا يسجنها ولا يمعن فيها فتكاً وقتلاً

ثم الشر الموجود في الدنيا الذي ينسبهُ جان جاك الى الهيئة الاجتماعية ، فهذا في حد ذاته قابل للنقد والتفنيد لان الاجتماع عمل طبيعي فيكون اذن صالحاً اذا كانت الطبيعة صالحة وشريراً اذا كانت شريرة ، ولا يمكن والحالة هذه نسبة الشر اليهِ ونفيه عن الطبيعة طالما ان الاثنين مرتبطان والواحد منهما مشتق من الآخر ، هذا فضلاً عن ان الاجتماع انما وُجد ليعالج

الشر ويداويه ويستأصله اذا تسنى له ذلك. يقول روسو في كتابه «العقد الاجتماعي» ان الفرد قد باع نفسه بكليتها الى الهيئة الاجتماعية ، وهو قول مردود بطبيعته لان الانسان لا يتنج الاجتماع من حريته الا القدر اليسير الذي يكفي هذا الاجتماع ليقوم بالمهمة المطلوبة منهُ

واما مبدأ جان جاك فيما يختص بالملك الذي ينعتهُ بحجر الزاوية القائم عليهِ الاجتماع ويعده اصل شرور العالم ومنبع جرثومتها فلا يقوم على قاعدة ثابتة لا يأتيها الباطل لان هذا المبدأ مشكوك في صحته مثل حقائق الاشتراكية والشيوعية النظرية وتأثيراتهما العملية

وكتاب روسو المسمى «اميل او التربية» يكاد يكون عقيماً لانهُ لما كانت الطهارة الفطرية التي ينشدها ليست حقيقة راهنة فالتربية السلبية تصبح اذن جنوناً مطبقاً ، لان نبذ السلطة الابوية وابعاد الكتب عن التلميذ وتركه يتخبط في دياجير الجهل حتى الثانية عشرة من عمره من أضرّ الامور بهِ لان الذكاء لا يتقوّى ويظهر الا بالتمرين والممارسة ، واذا لم يمتلىء العقل بالحقائق امتلأ بالاكاذيب والترهات ، فكأن روسو اراد ان يمنع عن الطفل شرًّا فجلب عليهِ شروراً عديدة . فطريقته اذن في التربية منقوضة لانها لا تعدُّ التلميذ للحياة التي تتلخص في كلمتين اثنتين لا ثالثة لهما وهما «سعي وعمل» فالانسان خلق ليكد لا ليتمتع ، وليكد ويتعب ليس في الوقت الذي يطيب لهُ الكد والتعب فيه بل في الوقت الذي يحلو لغيره او للحظ ان يطلب منهُ الكد فيهِ والتعب ، فالتربية يجب ان تعلمنا اذن ان نعمل ما نسأم منهُ في الوقت الذي نسأم من العمل فيهِ اكثر من غيره . هذا هو مجمل مذهب جان جاك روسو ، وهو لعمري نظريٌّ اكثر منهُ عمليٌّ ، ولا نغالي اذا قلنا ان تطبيقهُ يكاد يكون مستحيلاً لانهُ لم يعمل بهِ قط واكبر ظننا انهُ لن يعمل بهِ في السنين المقبلة بل في العصور الآتية مهما دار الزمن وتطورت طبائع البشر

﴿ الفضائل في مذهب روسو ﴾ ليس نقدنا لآراء هذا الكاتب الاجتماعي والفيلسوف الكبير دليلاً على ان مذهبهُ الفلسفي لا يؤبهُ لهُ فقد ابدينا ما يؤاخذ عليهِ ليتسنى لنا اظهار حسناته الجمة بل فضائله التي وان كانت البشرية لا تقدر على العمل بموجبها للانانية المتسلطة على عقول بنيها ولما اختطته لنفسها من طريق لا يمكنها الحيدة عنها ولا النكوص ولكن هذا لا يمنع هذه الفضائل من ان تكون مثلاً اعلى للاجتماع لا يتسنى لهذا ادراكه لاسباب جمة لا يسعنا حصرها هنا

لقد عزَّ روسو فولتير بآرائه الفلسفية التي تأثر بها عصره تأثراً عظيماً حتى كانت السبب المباشر لشبوب الثورة الفرنسوية . فقد اوضح في كتاب «العقد الاجتماعي» ان الهيئة الاجتماعية شركة غايتها المحافظة على كيان الاعضاء المؤلفة منهم والدفاع عنهم ، وان الحكومة لا تكون شرعية الا اذا جعلت غايتها الوحيدة المصلحة العامة ، فاذا راعت ذلك انتفت المظالم وزالت المغارم

ويغلب على الظن — خلافاً لما توهمه البعض — ان روسو لم يسع لاسقاط شكل من اشكال الحكومة بل عمل ما في وسعهِ للاشادة بمبادىء الحكومات ونماطها التي عدَّها بحجة بحقوق الافراد ، فاذا راعينا ذلك تبدَّى لنا ان مذهب سيادة الامة هي الحقيقة الراهنة التي لا نزاع

فيها لانها تنفي استغلال الشعب بواسطة الجماعات او بواسطة فرد واحد

ويمتاز روسو بكونهِ اول من حزن على المشكلة الاجتماعية الخطيرة التي تنحصر في الترف من جهة والحرمان من جهة اخرى وفي الغنى والفقر والانانية والكد للغير ، فكل هذه المظالم التي تحيق بالافراد اساسها الامتلاك فاذا زال هذا السبب زالت نتائجه واضمحلت مسبباته الوخيمة

وقد اصاب بقولهِ في «عدم المساواة» ان عدم المساواة السياسية والاجتماعية تكاد لا تظهر ولا يبدو لها اثر اذ كان هناك تساوٍ في الاخلاق والعقول والمدارك ، فحيث يعيش الاشراف والنبلاء والمسيطرون نفس المعيشة التي يعيشها عامة الشعب ويكون لاولئك نفس الافكار والآراء التي لهؤلاء تنتفي عدم المساواة فلا يعود ثمت غُرم ولا ظلم . ورأي روسو الذي ابداه في رواية « هيلويز الجديدة » من الآراء الاجتماعية السديدة ، فقد اظهر فيه تجدد الانسان الخُلُقي الكامل وكيف يحصل ويتمّ ، وشنّ على الكذب الاجتماعي والنفاق الانساني غارة شعواء ؛ لان هيئتنا الاجتماعية العتيقة قد شاخت ونال منها الكبير وهي تعيش معيشة صناعية لا طبيعية ، فدأبها في حياتها الرضوخ للعواطف والملاذ وجنوحها للسلوك والآداب الخُلُقية الخارجة عن دائرة الحقيقة ، فالاعتبارات عندها تسمح بازدراء الفضائل عوضاً عن ازدراء التقاليد المرعية واللياقات الوضعية ، ومما يؤسف لهُ انها بعد ما تطلب من الانسان التضحية بضميره وبعفتهِ ونزاهتهِ واستقامته في سبيل انالتهِ الحظوة التي يصبو اليها لا تنجز الوعد بل تنقض عهدها معهُ دون مبالاة كأنها لا تأتي امراً إدّا

ومن اجل ما في كتاب «اميل او التربية» الفكرة الاساسية القائلة : اذا كان نشوء الفرد يردّد على وجه الاختصار تطور النوع وارتقاءهُ فتعليم الطفل يجب ان يظهر بشكل ضافٍ حركة الانسانية العامة ، لان سن الاحساس يسبق سن التفكير ، والتربية الجسدية تسبق التربية العقلية ؛ فيجب اذن في بادىء الامر تقوية الجسم وتحديد الحواس ، ولا يمرّن العقل الاّ ليخدم الحواس والجسم ، فالطفل ينشأ والحالة هذه متوحشاً قوياً حديداً لسيقاً مراوغاً محتالاً ، وأما الذكاء فيأتي بعد ذلك اي عند ما تهيّأ لهُ كل الاعضاء الصالحة التي يتسنى لها تقديم ما هو في حاجة اليهِ من التأثيرات والمشاعر ، وتتمكن من تأدية كل ما يطلبهُ منها من الفعال والاعمال

هذا هو الفيلسوف الكبير جان جاك روسو الذي قام في القرن الثامن عشر في وجه الهيئة الاجتماعية متهماً اياها بازاغة الانسان عن محجة الصواب وطالباً منها تركه ليعود الى احضان الطبيعة التي يجد فيها الطيبة والصلاح ، فقد قامت فلسفته كلها على الرجوع الى الحالة الفطرية التي يعدها اكبر مهذب للاخلاق واعظم مثقف للمدارك

وقد كان لمذهبه هذا في ذلك العصر الذي عمّ فيه الفساد وتدهورت فيه الاخلاق حتى بلغت الدرك الاسفل صدًى دَوِيّ في ارجاء المعمورة فرفع بصاحبه الى السماك الاعزل

جورج نيقولاوس

ما هو العلم

ليعقوب فام

كنت اتحدث مع طالب في احدى المدارس العالية ، وقادنا الحديث الى العلم ومعنى العلم وغايته ، فاخبرني الطالب ان استاذاً من اساتذة الجامعة يعرّف العلم بالكلام الآتي او بما هو في معناه : «العلم هو الحقائق التي اذا وضعت امام عقل بشري في احوال معينة يفهمها كما يفهمها اي عقل بشري آخر في الاحوال نفسها ، وهذه الحقائق لا تتغير بمرور الزمن» . فلنأخذ هذا التعريف ولنجعله اساساً للبحث عسانا نخرج منهُ بشيء

ونستطيع ان نزعم لاول وهلة ان هذا التعريف لا ينطبق على الواقع وذلك لان العلم ليس هو الحقائق اولاً ولان العقل البشري لا يعرفها حتماً في كل الاحوال ثانياً ، ولان الاحوال لا تتشابه ثالثاً

لست افهم في الواقع كيف ان وجود نفس بشرية في احوال مشابهة لاحوال نفس اخرى يقدم او يؤخر في معنى العلم . هل ولادة الانسان في بلاد باردة او حارة ، وخضوعه لمؤثرات بيئة معينة من تعليم وتربية وحياة اجتماعية ، هل تؤثر هذه جميعاً في معنى العلم . ثم ما هي هذه الاحوال التي يجب ان تتشابه ؟ هل هي احوال البيئة ام احوال نفسية سيكلوجية ؟ هل مرض العالم او الفرد ، وهل احساساته النفسية من غضب ورضى وحزن وفرح ، يغير من معنى العلم ؟ ام يقصد بالتشابه في الاحوال درجة معينة من الثقافة تمكن الانسان من فهم الحقائق كما يفهمها غيره ، وما هي الدرجة وكيف نقيسها ونعرفها على التحقيق ؟ كيف نعرف ان فلاناً وعلاناً في درجة واحدة من الثقافة . الحق اني اشعر ان التشابه في الاحوال كلام مبهم مرسل لا يمكن التثبت منهُ ، واعرف ايضاً من الدراسات النفسية ان هذا التشابه في الاحوال غير مستطاع ، واعلم ان لكل انسان في الدنيا شخصية مستقلة قائمة بذاتها لا يمكن ان تشبه شخصية اخرى من جميع الوجوه . الحق انهُ من الخطأ الكبير ان يبني الاستاذ تعريفه للعلم على شيء لا يمكن ان يتحقق ، لانهُ ظاهر من كلامه انهُ اذا لم يتوافر هذا الشرط انهار التعريف

وضع ارسطو مبدأً في الفلسفة الطبيعية Physics وهو هذا « لو قذفت بثقلين مختلفين من معدن واحد من مكان مرتفع ، يصل اكبرهما الى الارض قبل الآخر » فكأنك لو قذفت قطعتين من الحديد احداهما تزن رطلاً والاخرى رطلين الى الارض من مكان مرتفع ، فلا بد ان تصل القطعة التي وزنها رطلان قبل الاخرى ، او بعبارة اخرى ان جذب الارض لهذه اسرع من جذبها لتلك . استنبط ارسطو هذه القاعدة وفهمها في ظرف معين ، وفهمها الوف

من الناس ومئات من العلماء واخذوا بها في ظرف معين ايضاً فهل هذه حقيقة اولاً وهل هذا علم ثانياً . اظنهُ من المحتم ان نقبلها على انها حقيقة علمية اولاً وعلى انها علم ثانياً اذا اخذنا بالتعريف السابق

ثم جاء جاليليو بعد ذلك بقرون واجرى هذه التجربة من قمة برج بيزا المائل فوصلت القطعتان الى الارض في وقت واحد ، وشهد هذه الظاهرة اساتذة الجامعة زملاء جاليليو ، ولم يفهموها وزعموا ان جاليليو مخطىء وارسطو مصيب . نعم اخطأ جاليليو لان المعلم الاول لا يمكن ان يخطىء ، ثم اخطأ جاليليو ايضاً لانهُ اجرى التجربة اصلاً ، وكان يجب ان لا يجربها او يفكر في هذا بعد ان قال ارسطو بضده . تشيع الاساتذة لارسطو وتشيع الجمهور للاساتذة وفهمهم كل عقل بشري في تلك الاحوال او في ذلك العصر . فاذا ينتج من هذا ، ينتج منهُ بالطبع ، اذا أخذنا برأي استاذنا ، ان هذه الظاهرة ليست من العلم ولا تمتُّ اليهِ بسبب ، ولكنها علم ايضاً وفي نفس الوقت لأن الدنيا بأسرها تؤمن بهذه الحقيقة في الوقت الحاضر ، والعقول البشرية في مختلف الاحوال — لا بل برغم اختلاف الاحوال — تفهمها وتؤمن بها

اذن لا يجدر بنا ان نقبل هذا التعريف لهذين السببين

ولكن هنالك ما هو ادهى من ذلك وامرُّ ، وهو هذا التطابق بين العلم وحقائقهِ ، ففرق كبير بين العلم في ذاته والحقائق العلمية ، فرق بين ان يكون دوران الارض مثلاً حقيقة علمية وبين ان يكون دورانها هو العلم نفسه . ألا يرى الاستاذ رأيي في ان العلم شيء والحقائق شيء آخر ؟ لا بد ان يرى ذلك لانهُ ان لم يفعل ارتطم في مشاكل لا حصر لها . ومثل واحد او مثلان بسيطان يكفيان لاثبات ما نذهب اليهِ . اليك مثلاً بسيطاً : الاستاذ يقطن شارع كذا من الحي الفلاني بمدينة القاهرة . هذه حقيقة ويفهمها كل عقل بشري في نفس الاحوال . أليس كذلك ؟ ولكن هل هذا علم ؟ هل العلم وسكن الانسان في مكان معين شيء واحد ؟ وهل يقول بهذا القول انسان عاقل . ومثل آخر : القاهرة لها حكومة — هذه حقيقة — ولكن هل هذا هو العلم ؟ اظن لا يحسن بنا ان نسترسل في هذه الامثال لأن الخطأ فيها ظاهر واضح ولا تجوز الاطالة فيما هو ظاهر واضح

وملخص القول ان هذا التعريف خطأ وانهُ لم ينل حظهُ من التفكير المنظم بل ارسل ارسالاً من غير تمحيص ، وكان يجب ان يتمحَّص ويدرس قبل ان يعطى للناس على انهُ شيء يحتمل النقد ويصمد له

نخرج من هذا كله بأن تعريف العلم على هذا النحو — سواء أكان الاستاذ قد قال بهذا ام لم يقل بهِ — خطأ صريح ، واذن فلنبحث عن تعريف آخر يستطيع ان يثبت على النقد والتجريح ، ويصلح للتداول بين الناس ويكون مطابقاً للحقيقة والواقع

ولكي نصل الى المعنى الحقيقي للعلم يحسن بنا ان نتناوله من ناحية وظيفته ؛ فهذه هي الطريقة المثلى في تفهم امثال هذه المباحث ؛ فلو اردت ان تفهم معنى الفلسفة او علم الاجتماع او علم النفس او الطبيعة والكيمياء والفلك و مثال هذه الضروب من العلم ، يكون من المفيد المجدي ان تنظر فيما تفعل هذه العلوم ، ماذا تتناول من مظاهر الكون وماذا تفعل بهذه المظاهر عند ما تتناولها والوسائل التي تستخدمها هذه العلوم عند ما تتناولها . كل هذه وأشباهها امور لا يمكن الاستغناء عنها عند بحث اختصاص كل فرع من العلوم على حدة ، وكل الفروع مجتمعة ، وفي معنى العلم عامة . ليست اري طريقة اخرى لبحث العلم باي شكل من الاشكال

والشيء الذي نلاحظه هو ان العلم يتناول مظاهر الطبيعة هذه بالبحث والتقليب كي يستطيع أن يميز بين السبب والمسبب ، العلة والمعلول ، كيف أتت هذه الظاهرة المعينة هنا ، وماذا أتى بها ، وما هو الاثر الذي تخلفه ، او ماذا تصنع بعد ان أخذت مكانها من نظام الدنيا . فالماء ظاهرة من الظواهر ، ولكن كيف تكون ، وماذا كونه ، وما هي مقادير أجزائه ، وهل هذه الاجزاء وحدات صماء ام هي الاخرى مركب من اجزاء اصغر وادق وما خصائص هذه الاجزاء على حدة ، وكيف تقيسها هل نعدها واحدة واحدة أم نكيلها بمكيال ، ام وزنها ام تقيسها بالذراع . كذلك يسير بنا العلم على هذا النمط الى ان نصل الى حيث يستطيع العلم أن يقودنا

قلنا ان العلم يتناول الظواهر الطبيعية ، ونقصد هذا على اطلاقه ، وبمعنى آخر نقصد بعض العلوم التي يكون موضوعها من صنع العقل البشري ، أي ان المواد التي تتناولها بالفحص والتقليب ليس لها وجود موضوعي بين المظاهر المادية ، ومن بين هذه المواضيع علم المنطق والرياضيات ؛ فليس لهذه الانواع من العلم مظاهر موضوعية تبحثها وتدرسها ، وانما موضوعها هو في الواقع من خلق العقل البشري ، فليس للميتافيزيقا موضوع مادي تبحث فيه ، وكذلك ليس للارقام او الترتيب المنطقي للتفكير وجود مستقل عن العقل البشري ، ومع ذلك ندعها جميعاً وأطويها تحت المظاهر الطبيعية لأن الانسان في جملته موجود مادي ، او هو في مجموعه مظهر من مظاهر الطبيعة ، وعلى هذا نعتبر ما يوجد ويخلقه من مظاهر الطبيعة شأنه كشأن كل شيء آخر من الموجودات

اذن فأول شيء نلاحظه عن العلم انه يتناول المظاهر الطبيعية بالتقليب والبحث ، ولكن لماذا يقلبها ويبحثها ، وما الذي يسعى وراءه من هذا التقليب والبحث

قول ما يصنعه العلم هو ان يشاهد هذه الظواهر لكي يتعرف خواصها والملابسات التي تلازمها ، كأن تكون سائلة أو جامدة او غازية ، وثقيلة او خفيفة ، وتتصرف كذا او كذلك في الاحوال المتباينة ، فالنور مثلاً ينتقل من مكان الى مكان في امواج من

طول معين ، وينحني عند ما يمر بجوار الاجرام السماوية بحسب مذهب اينشتين ، وينكسر عند ما يمر في الغازات والسوائل والاجسام الشفافة كالماء والزجاج ، ويتحلل الى ألوان عند ما يمر في المخروطات البلورية ، وله ضغط يستطاع قياسه ، ولا يظهر الا اذا كان انعكس على الاجسام ، وغير ذلك من هذه الخواص والمميزات التي تلازمه ، فكأن وظيفة العلم الاولى هي ان يصف المظاهر الطبيعية

ووظيفة العلم الثانية هي ان يحلل تلك الظواهر الى عناصرها الاولية التي تتكوّن منها ، والواقع أن كثيرين من الفلاسفة والعلماء يذهبون الى ان وظيفة العلم الاساسية هي ان يحلل الاشياء ويرجعها الى ما تتركب منه من المادة ، وادوات العلم وآلاته مصنوعة لهذا الغرض بعينه قبل ان تكون مصنوعة لأي غرض آخر ، والشأن ان هذا هو الواقع . نعم لا ننكر أنه يركب بعض تلك الظواهر في بعض الاحيان ، كأن يجمع بعض المواد الى بعض ويكوّن منها وحدات جديدة قد يكون لها خصائص ومميزات لم تكن لعناصرها الاولى ، لا ننكر ان العلم يستطيع ان يركب الماء من عنصريه ، ويستطيع ان يركب كثيراً من المواد العضوية من عناصرها ، ولكنه لم يفعل ذلك ولم يحاوله بوجه من الوجوه الا بعد ان أخذ الماء كما قدمته الطبيعة وحلله وعرف عناصره ونسب هذه العناصر بعضها الى بعض وخواص كل عنصر على حدة وتصرفه في الظروف المختلفة ثم بعد ان بحث كل هذا وعرفه حق معرفته ، اخذ يكوّن الماء من هذه العناصر ، وهكذا فعل في المواد العضوية . فكأن العلم يحلل الظواهر ليفهمها ثم يركبها على سبيل التمثيل لا على سبيل القيام بوظيفته

وهذا ليس مستغرباً في الواقع لاننا نلاحظ ان الظواهر الطبيعية تهبط علينا مركبة جاهزة ، وليست محاولة مفككة ، فالحال كذلك في الماء والهواء والنور والصوت والظواهر الفلكية وحتى الاعمال الانسانية والخوالج والمشاعر النفسية تقفز من النفس الى العالم الخارجي مركبة من عناصر كثيرة متباينة مختلفة ، فيسعى علم النفس مثلاً الى تحليلها الى عناصرها الاولى ويبحث كل عنصر على حدة

اذن فالعلم يصف الظواهر ثم يحللها الى عناصرها الاولى ، ثم له بعد ذلك وظيفة ثالثة وهي انه يرتب هذه الظواهر ويبوّبها ويضعها في مكانها من نظام الطبيعة والحياة ، ذلك لانه وجد بالاختبار ان لكل ظاهرة علاقتها بالظواهر الاخرى ، فهي سبب في بعض الاحوال ، وهي نتيجة في بعض الاحوال الاخرى ، لا بل هي سبب لشيء ونتيجة لشيء آخر في معظم الحالات ، والمشاهد في هذا الكون الذي نعيش فيه انه لا توجد ظاهرة واحدة منفصلة عن باقي ظواهر الكون ، ليس لاية واحدة منها كيان مستقل كل الاستقلال عن نظامنا هذا الذي نعيش فيه ، ليس لكوكب صغير او كبير وليس لجرم من الاجرام السماوية

او لذرّة من الذرّات في هذا الكون، ليس لكائن من كان، من الانسان الى الالكترون، وجود منفصل عن باقي ما يحيط به من الذرات والموجودات السماوية والارضية . وحتى الفكر نفسه الذي هو أمر معنوي ليس له وجود مستقل عن الظواهر المادية المحيطة به

فوظيفة العلم الثالثة هي ان يحدد العلاقة بين هذه الاشياء ويدل على حقيقة الاتصال بين هذه الظواهر ، ليس هذا فقط ولكنه يبين ايضاً النسب العددية ؛ ونحن نقصد بالنسب العددية ، مقدار هذه النسب بالقدح والرطل والمتر ، في المسائل المادية الصرفة ، والنسب المنطقية ، او السبب والنتيجة في العلوم الاجتماعية ، ولذلك نرى ان العلم يسير في الارض ومعه الميزان والمكيال والمقياس ، ويستخدم هذه جميعاً في ابحاثه المختلفة وفي تبيان الصلات بين الظواهر الطبيعية المختلفة ، ويجب ان نذكر في هذا المجال ان السببية البيّة ان هي في الواقع الاّ الترتيب الزمني بين الظواهر ، فالسبب يتقدم النتيجة في الزمن ليس غير ، والنسبة بينهما في الواقع تقاس بالساعة والدقيقة

واذن فقد توصلنا الى استقصاء وظيفة العلم ، ووجدنا انها تنحصر في وصف الظواهر الطبيعية اولاً ، وتحليلها الى عناصرها الاولى ثانياً ، وتبيان النسب العددية بين عناصرها ثالثاً ؛ هذه هي وظيفة العلم اولاً واخيراً ، ونستطيع اذن ان نضع تعريفاً منطقيًّا للعلم ، تعريفاً يستطيع ان يثبت على النقد والتجريح دون ان ينهار من اساسه

ولكن قبل ان نصوغ هذا التعريف يحسن بنا ان ننبه الى نقطة مهمة اخرى وهي هذه: ليس العلم شيئاً له وجود مادي مستقل ، ليس هو كائناً بأي وجه من الوجوه ، وانما هو في الواقع الطريقة التي يستطيع بها العقل البشري ان يفهم الاشياء او الظواهر الطبيعية . لقد خلقت فينا عقولنا هكذا ، وركبت في رؤوسنا بشكل لا نستطيع معه ان نفهم ظواهر الكون الاّ بالمشاهدة والوصف والتحليل والترتيب المنطقي او ترتيب الاشياء بحيث يتبع بعضها بعضاً ؛ فكأن العلم في الواقع ليس شيئاً سوى الطريقة التي يستطيع العقل بها — دون سواها على ما نعلم — ان يفهم الاشياء . ليس للعقل البشري مندوحة عن هذه الطريقة لانهُ هكذا ركب وهكذا خلق

والآن نستطيع ان نعرف العلم هكذا : العلم هو الوسيلة التي نستطيع بها ان نصف الظواهر الطبيعية ونحللها ونبين الصلات بينها ، او العلم هو الوسيلة التي يستطيع بها العقل البشري ان يفهم الظواهر الطبيعية ، وبعبارة اخرى ليس العلم شيئاً سوى طريقة او وسيلة لتقارب بين حياة الانسان العقلية وما يحيط به في هذا الكون

وبعد فاننا نشكر الاستاذ لانه اتاح لنا ان نبحث هذا الموضوع ، سواء اكان ما عناه هو من قوله ام منسوباً اليه خطأً

الحضارة الفينيقية

وتأثيرها في التمدن القديم

للشيخ بولس مسعد

اللغة الفينيقية

اللغة الفينيقية احدى اللغات السامية المشتقة من اللغة الارامية التي افترضت قبل زمن التاريخ . واشهر هذه اللغات العربية والسريانية والحبشية والفينيقية والاشورية والبابلية . والثلاث الاخيرة انقرضت

يرجع العلماء باللغات التعريفية الى اصلين هامين الاصل السامي او السرياني والاصل السنسكريتي . والاصل السنسكريتي ويعرف مع فروعه باللغات اليافثية نسبة الى يافث لا يدخل في بحثنا هذا فلا نتعدى له . وأما الاصل السامي فيقسم الى فرعين هامين الفرع الشمالي او السرياني والفرع الجنوبي او العربي . والفرع الشمالي ثلاث لغات : الآرامية والاشورية والكنعانية . فالآرامية ام لعدة لغات ترجع الى ثلاثة فروع جامعة وهي السرياني الحتيي وهو افصحها والارامي والكلداني او النبطي . وكذلك الاشورية فقد تفرعت عليها عدة لغات اندرست الآن تماماً . وأما الكنعانية فهي لغة الشعوب الكنعانية ولها فرعان الأول العبرانية وهي لغة اهل الجبال من كنعانيي فلسطين واليوم لغة اليهود الدينية والثاني الفينيقية وهي لغة الكنعانيين الساحليين وعليها مدار الكلام في بحثنا هذا

﴿ تعريف اللغة الفينيقية ﴾ اللغة الفينيقية لغة فريق من ابناء كنعان ولذلك كثيراً ما سميت كنعانية ولا سيما في نبوءة اشعيا . وبينها وبين شقيقتها العبرانية من التشابه والتناسب ما يجعل التمييز بينهما متعذراً وهذا ما جعلهما في نظر علماء اليونان اسمين مترادفين لمعنى واحد . ولئن اختلفت لغة التكلم عند الفريقين من بعض الوجوه لاسباب اهمها ان الفينيقية كانت لغة اهل السواحل والعبرانية لغة اهل الجبال فان لغة الكتابة عند الفريقين واحدة . وليس في الفينيقية الا مميزات قليلة منها كثرة استعمال الضم في حروفها واهمال الخفض في النهجئة الاخيرة من الكلمة . وأما حذف الحركات الطويلة او حروف المد في الكتابة فغير مقتصر على هذه اللغة دون سواها بل كان يشمل قديماً اللغات السامية جميعاً . على ان وجوه

الشبه بين هذه اللغات تتناول كثيراً من القواعد والمزايا التي خلت منها اللغات النصرانية الاخرى نظير الحروف الحلقية واقتصار افعالها على زمانين وتشابه مشتقاتها . ومن مميزاتها انها تكتب من اليمين الى اليسار ما عدا الحبشية الحديثة . وهناك تشابه بينها في الحركات التي تستعمل وتلفظ وفي اسماء الحروف وغير ذلك مما لا سبيل الآن الى ذكره

ولا ادل على ما بين اللغتين الفينيقية والعبرانية من التشابه الشديد من ان الاسفار المقدسة لا تفرق قط بينهما وهي تسمي العبرانية لغة كنعان . ومما يستشهدون به على وحدة اللغتين ان جواسيس يشوع عند عودتهم من مصر خاطبوا راحاب الكنعاني بغير صعوبة وكذلك رسل الجبعونيين وسواهم من القبائل الكنعانية تكلموا امام الاسرائيليين من غير مترجم. وهناك شواهد اخرى كثيرة تثبت ان هاتين اللغتين كانتا في العصور القديمة ولا سيما في عصر ابراهيم ابي المؤمنين شديدتي التقارب والتناسب وانه ليس هنالك ما يحول دون القول ان اللغة الفينيقية هي التي اختيرت دون سائر اللغات لنقل اول وحي وأول سنة منزلة الى اهل الارض قاطبة

﴿ منشأ الحروف الفينيقية ﴾ اما لغة الكتابة عند الفينيقيين فترتقي في نشأتها الى اقدم عصور التاريخ والحروف الفينيقية هي في اعتبار جمهور من العلماء اصل حروف الهجاء لسائر اللغات . ذلك ان فن الكتابة كان في اول امره مقتصراً على صور ورسوم تشير اما الى مادة حقيقية موجودة او الى غرض مجازي لا يشار اليه الاّ بالرمز او الى صوت يدل على كلة مقصودة او على بعض حروفها. ثم تطرقوا الى التعبير عن الفكر برسم صور دالة على مسمياتها بحقيقتها او مشيرة الى الغرض المقصود بقرينة ما . وقد وجدوا من هذه الكتابة ستة انواع هيروغليفية وهي الهيروغليف المصري والعلامات العينية والعلامات المسمارية في بلاد الكلدان والكتابة الحثية في سورية الشمالية وآسيا الصغرى والكتابة المكسيكية والكتابة الكانوتية وكلاها في اميركا . غير ان هذه الصور لم تكن تنطوي في مدلولها الاّ على الماديات وما سهل ادراكه من المجازيات وأما التصورات المجردة من المادة كتصور العدل والرحمة والحب والحقيقة والكذب ونحو ذلك فلم يكن من الميسور تمثيلها بالصور فاضطروا لذلك الى التوسع في الاستدلال بنقش الصور على الهجاء الاول من مسمياتها بحيث اصبحت تلك العلامات والصور صوتية بعد ان كانت لا تجاوز حيز التصور . ولكن هذا النوع من الكتابة ظل قاصراً لا يفي بالحاجة

ذلك كان شأن الكتابة لما انبرى الفينيقيون لاستنباط هجائها . وكان بين اللغتين المصرية والسامية او الفينيقية تشابه تام في خمسة عشر حرفاً اوعلامة (وليس ١٣ حرفاً كما زعم بعضهم) وهي المعبر عنها عند المصريين بالحروف الصوتية فاخذها الفينيقيون واضافوا اليها سبعة حروف من عندهم تبعد صورها عن العلامات الهيروغليفية فاضطلعوا على تأدية لفظها بالخطوط المصرية بحيث القوا من مجموعها اثنين وعشرين حرفاً جعلوها هجاء للفهم

وهذا التقارب بين اللغتين المصرية والسامية او الفينيقية يرجع في نشأته الى عصر الرعاة في مصر فقد طالت ولايتهم فيها من القرن الحادي والعشرين الى القرن السادس عشر قبل الميلاد . واتصال الفينيقيين بالمصريين في ذلك العصر اتصل نفوذ فينيقية الى مصر قبل ان يتصل نفوذ مصر الى فينيقية من حيث الصناعات والدين والآداب على نحو ما ذكرنا في مقتطف اكتوبر سنة ١٩٣٢ ص ٣٤٤ ودخلت اللغة المصرية الفاظ وتعبيرات كثيرة من اللغات السامية . ومن العلماء من يذهب الى ان الفينيقيين لم يقتبسوا شيئاً من مصطلحات الكتابة المصرية وانهم استندوا في وضع حروف هجائهم الى الكتابة البابلية . غير ان هذا المذهب ضعيف لم يقم عليه دليل محسوس الى اليوم ولو ان الفينيقيين كانوا رسل الحضارة البابلية والكلدانية الى العالم

ان العلماء لم يجدوا الى اليوم حروف هجاء قبل الحروف الفينيقية وما وجدوه من الكتابات القديمة انما يرجع بهجائه عن بعد او عن قرب الى اصل الهجاء الفينيقي . فهم يردون الحروف في جميع اللغات الى خمسة اصول وهي الاصل السامي واليوناني الايطالي والايباري والشمالي والهندي الحميري وهذه الحروف او الاقلام كلها على اختلاف اصولها ترجع في اعتبارهم الى امم واحدة هي الحروف الفينيقية او الهجاء الفينيقي الذي نقله الفينيقيون مع متاجرهم الى الامم الاخرى . ولو كان الامر غير ذلك اي ان الفينيقيين ليسوا مستنبطي هجاء لغتهم بل اقتبسوه من سواهم لوجدنا لهجائهم هذا اصلاً في الآثار المصرية او الاشورية والبابلية مع ان ما وجد من هذه الآثار حتى اليوم لا يؤيد هذا المذهب . وتمويههم في انشاء هجاء لغتهم على بعض العلامات المصرية لا يصح ان يتخذ دليلاً على انهم ليسوا مستنبطي الهجاء الاول لسائر اللغات

﴿ تطور الحروف الفينيقية ﴾ وقد طرأ على الحروف الفينيقية بعض التغيير فقلب شكلها شيئاً وكيفها قليلاً بحيث لم تثبت الكتابة على وضعها الاصلي الى النهاية . وينحصر ما دخل على هيئتها من التبديل في ثلاثة ادوار

الدور الاول — كانت الكتابة الفينيقية في هذا الدور شائعة عند الشعوب الآرامية باسرها . وكانت تمتاز فيه بان من حروفها ما كان في بادىء الامر معوجاً كثير الزوايا ثم صار بعد ذلك مستديراً . ويبدأ هذا الدور على عهد الرعاة في مصر السفلى وينتهي في القرن السادس قبل الميلاد

الدور الثاني — انقسمت فيه الكتابة الفينيقية الى قسمين : الكتابة الصيدونية والكتابة القرطاجنية . فالاولى استعملت من القرن السادس قبل المسيح الى صدر النصرانية . وتمتاز بكون حروفها اكثر استدارة واقل تعرجاً من حروف الكتابة في الدور الاول . وكانت ضخمة من وسطها دقيقة من رأسها . وأما الكتابة القرطاجنية فقريبة من الصيدونية غير ان حروفها غير منسوقة على خط مستقيم بل هي محدبة قليلاً

الدور الثالث — كانت الكتابة الفينيقية في هذا الدور تعرف بالبونية وهي الفينيقية الحديثة

وكانت تستعمل على الساحل الغربي من البحر المتوسط من القرن الثاني قبل الميلاد الى ما بعد استيلاء الرومان على سورية . وحروفها تمتاز ببساطتها وتشابكها تشابكاً اشكل معهُ قراءتها

﴿ فروع اللغة الفينيقية ﴾ ومن العلماء من يرد لهجات اللغة الفينيقية الى ثلاثة فروع اصلية كبيرة وهي : فرع جبيل وهو اقرب هذه الفروع الى اللغة العبرانية . وفرع صيدا وهو الاهم والاكثر انتشاراً والفرع البوني وهو لغة الفينيقيين الذين هاجروا الى قرطاجنة

﴿ امتزاجها بسواها واقتراضها ﴾ وقد تقربت اللغة الفينيقية من الآرامية او السريانية عقب الفتح الاشوري . ثم دخلتها الفاظ وتعابير يونانية بعد غارة اليونان على فينيقية فاحدثت فيها انقلاباً كبيراً واوشكت ان تندرس تماماً ولاسيما بعد ان أصبحت اليونانية لغة اهل المدن وكبار القوم في الديار السورية . غير انها بامتزاجها باللغة السريانية ظلت لغة فئة من الشعب الى ان ظهرت اللغة العربية التي تقاربها فقضت عليها وعلى سائر اللغات السامية . واللغة السريانية ثلاثة فروع رئيسية : السرياني الحقيقي وهو افصحها وكان لغة اهل ما بين النهرين والشام الخارجة . والارامي وكان لغة اهل لبنان والشام الداخلة وهو اقل من الاول صراحة . والكلداني او النبطي وهو اقلها احكاماً وكان لغة جبال آسية الداخلية في اشور وبابل وهو ما اثبته ابو الفرج في تاريخه مختصر الدول . اما المحدثون فيعدون السرياني اقل اللغات السامية انسجاماً واحكاماً من حيث نحوه . وقد دخله كثير من الالفاظ اليونانية فسلبته رونقه واجهزت عليه غزوة الاسكندر فقل استعماله في الديار الشامية ولم يأت القرن الثامن عشر حتى كان اضمحل منها تماماً ولم يبق له من أثر هناك الا في قريتي معلولا ومار الياس من ملحقات دمشق . غير انهُ مع ما انتاب هذه اللغة من الضعف ظلت لغة الطقوس الدينية عند السريان والموارنة الى ايامنا هذه خلافاً للغة الفينيقية التي كانت لغة البلاد الاصلية حتى الفتح الاشوري فانها انقرضت ولم يبق للغة الفصحى من أثر الا العبارات التي ترجمت الى اليونانية نقلاً عن مكتوبات المؤلف الفينيقي المشهور

﴿ انتشارها في افريقيا ﴾ أما في قرطاجنة والمستعمرات الفينيقية في افريقية الشمالية فان اللغة البونية وهي الفينيقية الحديثة ظلت لغة اهل البلاد الى القرن الثاني بعد الميلاد وبقيت مستعملة هناك بين بعض طبقات الشعب الى القرنين الرابع والخامس من التاريخ المسيحي

ويؤخذ من اقوال العلماء المستشرقين الذين بحثوا في منشأ اللغات السامية وانتشارها ان اللغة البربرية الشائعة في بلاد فزان وما جاورها من الواحات ونواحي اطلس والصحراء الغربية والاقاليم الواقعة في الشمال الغربي من افريقية ذات لهجات او لغات كثيرة ولها علاقة وثيقة باللغات السامية ولا تخلو من صلة باللغة القبطية . وهي ترتقي في نشأتها الى عهد تأسيس قرطاجنة . وقد عثروا في السنة ١٨٢٢ على أمثلة قديمة من قلمها الاسمي منقوشة على صخور بين مرزوق وغات . وفي السنة ١٨٤٥ عثروا على أمثلة اخرى في واحات طوات . ثم وجدوا كتابات

اخرى منقوشة في واحات بنغازي وغدامس وسواها . ووجد العلماء تشابهاً شديداً بين هذه الكتابات والكتابة الليبية التي وجدوها منذ نحو قرنين في قبر واقع على نحو ثلاثة أيام من خرائب قرطاجنة وحكموا بأن الحروف الهجائية الليبية او النوميدية التي يستعملها البربر في كتابة لغة غير سامية هي احدى الاقلام العديدة المشتقة من الكتابة الآرامية القديمة الاصلية وانها تشبهها في بعض أحرفها بل تقاربها اكثر مما تقارب اللغة الفينيقية وانها اشتقت منها في عصر يرتقي الى ماقبل العصر الذي وضعت فيه الحروف الفينيقية التي وصلت الينا . وهذا التشابه بين الكتابة الآرامية والكتابة الليبية النوميدية مما حمل العلماء المحدثين على الذهاب الى ان الحروف الفينيقية ليست باصلية وان الفينيقيين ليسوا بمستنبطي الهجاء بل لابد ان تكون سبقتهم اليه امة من الامم السامية التي عاصرتهم او تقدمتهم . والمشهور عند العلماء ان اهل ليبيه كانوا يستعملون لغة تقرب من السريانية والعبرانية لانهم متناسلون من الفينيقيين الذين تملكوا هذه البلاد وكذلك بلاد البربر فان محلة من اهل صور ذهبت اليها في السنة ٨٨٦ ق . م وبنت فيها قرطاجنة ونشرت اللغة الفينيقية فيها ولذلك فان لغتها ظلت الى عهد طويل مقاربة للسريانية والعبرانية . فليس من المعقول اذن وهؤلاء القوم من سلالة الفينيقيين الذين استعمروا هذه الاقاليم ان يتناسوا بغير اللغة الفينيقية . غير ان التحريف الذي طرأ عليها بحكم الزمن جعل لها صبغة خاصة أدت الى هذه الشبهة في أصلها ونشأتها

وصفوة القول ان الفينيقيين هم أول من وضع هجاء لغتهم وان تكن الحروف المستعملة عندهم مشتركة بينهم وبين القبائل السامية والكنعانية التي امتزجت بهم وتألف من هذا الامتزاج الشعب الفينيقي المعروف وكل ماكان يصدر وينشأ من الاعمال في البلاد السامية والآرامية والفينيقية بعد هذا الامتزاج كان يسمى فينيقيًا أو كنعانيًا نسبة الى هؤلاء القوم لانهم كانوا أشهر تلك القبائل واكثرها نفوذاً وعلماً وثروة

﴿ أثرها في اللغة اليونانية ﴾ وفي اللغة اليونانية شيء كثير من اللغة الفينيقية . وهذا الامتزاج يرتقي الى زمن هجرة النحل الفينيقية الى اليونان بقيادة قدم او قدموس الفينيقي في السنة ١٥٦٠ قبل الميلاد المسيحي . فان قدموس هذا جاء بقومه الى اليونان وهي غارقة في لجة عميقة من الجهل والبداوة والهمجية . وكانت تسكنها قبائل من البرابرة يعيشون عيشة حيوانية ذليلة في الكهوف وشقوق الارض . ولم تكن الكتابة معروفة عندهم فاقتبسوها منه ومن قومه وهذا هو السبب في مارى من التشابه والتناسب في معظم حروف الهجاء واشكالها بين اللغة اليونانية واللغة السريانية والعبرانية او الفينيقية

والمعروف ان تاريخ اليونان لايرتقي في نشأته الى ماقبل القرن التاسع عشر قبل الميلاد وانه لما جاءتها اول قافلة من قوافل المستعمرين المصريين بقياده اينا كوس او اينيكوس قبل

المسيح بنحو ألفي سنة كان مكانها في حالة همجية مشهودة كما يستدل من تاريخ بوصوبت وقاموس غايطانوس . وقد انشأ اينا كوس له مملكة في بيلوبونيز وأسس مدينة ارغوس وهو سليل الوعاة الذين اجتاحوا مصر وبعد ان استقروا في مفيس نحو قرنين طردهم فرعون منها الى ارض الدلتا «اباريس» وضاق هذا الاقليم بهم فخرجت قبائل منهم في طلب الرزق خارج وادي النيل ومنها هذه الفئة التي امت بلاد اليونان بقيادة اينا كوس هذا . ثم لحقت بها قبائل اخرى بقيادة شيكروبوس واستقرت في اتيكا واستولى زعيمها هذا على العرش في السنة ١٦٥٧ ق . م وهو اول من نقل الى هذا الاقليم عبادة اللاهة منيرفا وكانت من معبودات مدينة سايس التي نشأ فيها هذا الزعيم بمصر السفلى . وهو الذي انشأ مدينة اثينا واطلق عليها هذا الاسم تيمناً باسم منيرفا لان هذا هو اسمها باللغة اليونانية

اما قدموس فهو من الوعاة أيضاً جاء بقومه الفينيقيين الى اليونان بعد طرد الفراعنة لهم من مصر السفلى . وكان يصحبه داناوس وقد انشأ مملكة له في اقليم بيوتسيا واقام هناك مدينة تيبايس وجعلها قاعدة مملكته وبث الحضارة الفينيقية في ذلك الاقليم ولقن الاهلين فن الكتابة . وحل داناوس في ارغوس واستحوذ على عرشها وبث قدمن قومه بين سكانها وقيل انه رزق خمسين بنتاً ازوجهن من ابناء أخيه اجيتوس

وهجرة الفينيقيين الى بلاد اليونان لم تقف عند هذا الحد بل اتسع نطاقها على توالي الايام ولاسيما بعد ان طردهم يشوع ابن نون من اوطانهم فاموها جماعات حاملين اليها حضارتهم وثقافتهم وديانتهم وعاداتهم وصناعاتهم وفنونهم بدليل ما يرى من آثارهم في انحاء شعوبها ومدنها وابطالها واديانها مما اكثر العلماء من ذكره نظير بوكرت ونطاليس اسكندر وسواهما

﴿ الخلاصة ﴾ ويذهب بعض العلماء الى ان اللغة الكنعانية او الفينيقية والعبرانية لم يعثر لها على أثر الا في فلسطين وفينيقية ولبنان وفي المستعمرات الفينيقية ومعنى هذا في اعتبارهم انها نشأت في هذه البقعة لا في مكان آخر وهذا ما يستدل منه على ان الكنعانيين او الفينيقيين هم اول من استوطن الاقليم المعروف باسم فينيقية من الشعوب القديمة وان وجودهم هناك تقدم وجود كل قبيلة اخرى قديمة مختلفة اللغة وانهم اول من حرث ارضها واستغلها واول من بنى المدن وانشأ المعالم فيها . ولم يجيئوا اليها من الخليج الفارسي او من بلاد العربية كما زعم بعض العلماء نقلاً عن هيرودوتس والا لكانوا تركوا هناك اثراً من لغتهم يدل على نزوحهم تلك البقاع قبل حلولهم في ارض كنعان هذه . والرأي الذي يعول عليه في هذا الشأن انهم قدموا رأساً من شنعار في كلديا ونزلوا على سواحل البحر المتوسط في البقعة التي سميت باسمهم عند تفرق الشعوب لاول مرة في تاريخ البشرية . وفي هذه البقعة الضيقة انشأوا حضارتهم العجيبة التي كان لها ذلك الشأن العظيم في التمدن القديم

هواجس الغرفة السوداء

لورة الشاعر

فارق النور في المساء الشعابا والظلام البهيم غشّى الغابا (١)
وتمشى على انظلام انقباض نشر الموت فوقه والخرابا
ووراء السياج ترقص أشبا ح أخافت من الحقول الكلابا

اسمعي البوم وهي تنعب في النخـــل وطيف الدجى يروع الغرابا
ودويّ الرياح تصخب في الليـــل وتزجي على القفير الببابا

اقرئي لي..من الكتاب..قليلاً قبل ان يطوي انقضاء الكتابا
افتحي صفحة المزامير يا أخـــت..وغنّي لحناً يعزّي الشبابا

اسمعي الريح كيف تكسر في الغصـــن وتخفي على الطريق الشهابا
لم تزل تضرب النوافذ في الليـــل — بعنف — وتدفع الأبوابا

(هو نازع) اسمعي! وقع خطوة من بعيد ؟!
(هي) لا ! بل الوهم قد اضلّ الصوابا !
انظر الأفق..ويلتي ما اراه ؟؟
(هو) انهُ خاطف أضاء السحابا
اسمعي..دقة على الباب..ويلي اطفئي النور..لا تردي جوابا
خبّئيني..خلف الستار..وقولي انهُ فرّ في الظلام وغابا
(هي) لا تخف....
(هو) اسمعي عواء ابن آوى إنهُ في الدجى يجيب الذئابا
اشعلي النور..اسقيني الى البا ب فاني سأدخل المحرابا
اطفئي الشمع..اشعليه..تعالي إننا سوف نقلق الأربابا
اضربي الدف..حطميه..وغنّي ثم صيحي..هيّا..أحلّي العقابا
لا..تعالي نجثو هناك الى الصـــبح فقد يقبل الاله المتابا

اشعلي النور واقرئي لي قليلاً قبل ان يطويَ انقضاء الكتابا
افتحي صفحة المزامير يا اخـــت وغني لحناً يعزّي الشبابا

مصر م.ع. الهمشري

(١) المقصود بالذئاب هو الحقول المزروعة اذرة

كتاب الاغاني

لابي الفرج الكاتب الاموي

المعروف بالاصبهاني

المغزى الذي يقصد اليه الناقد من تصفح كتاب « الاغاني » ليس فيما تضمنهُ من الاخبار والسير واحاديث المجالس انما يبغي الناقد الفني من النظر في « عمل » جدي يعد من الاصول المنقطعة النظير في التصنيف العربي وبخاصة تاريخ الغناء والاطوار التي اعترت الصناعة وحدود تأثيرها في الطرائق وطبقات المغنين ومذاهبهم وما يدل على سلامة نظر المصنف وصحة حكمه من فكرة او ملاحظة او رأي . ولكن صاحب كتاب « الاغاني » اختار طريقة الرواية . وكانت الطريقة السائدة في عصره . واستعان بسلامة ذوقه وحسن اختياره على تدوين الاغاني باخبارها ورتبها بطريقة « ينتقل القارىء بها من خبر الى غيره ومن قصة الى سواها ومن اخبار قديمة الى اخبار محدثة ومن جد الى هزل حتى يكون النشط لقراءته واشهى لتصفح فنونهِ »

وقد كان للرواية تأثير بين في طريقة كتابة التاريخ . خلقت الطريقة المجردة التي يقتصر فيها المؤرخ على ذكر الحادث ودمنه دون تعليل او ملاحظة او حكم . وهي الطريقة التي لم تسلم منها تصانيف مؤرخين من الفلاسفة مثل « ابن مسكويه » و « ابن خلدون » . واتبعها مؤرخو الفرنجة انفسهم في العصور الوسطى وما بعدها . وتعرف باسم « الكرونولوجي » . ولما كانت الرواية سابقة لهذه الطريقة وكانت قديمة لانها ترجع الى العصر الاغريقي . فقد كان تأثيرها ظاهراً لا في تدوين التاريخ وحده بل في العلم العربي نفسه وعندما اتصل العرب بثقافات الامم القديمة انقادوا الى السليقة في التصنيف وخف تأثير « الكلاسيسزم » في اذهانهم

وجاءت الرواية عن طريق اللغة . اذ كانت اللغة كل علم العرب . والفضل للرواية في ان العرب دوّنوا . وكان علمهم اوسع بكثير مما دوّنوا . وكان الكلام ديوان بلاغتهم وذوقهم ونظرهم . وكانت حافظة العربي هي العمدة وتغلبت هذه الملكة على سائر ملكات الذهن العربي . فلما كان اتصال العرب بحضارات الامم القديمة واشتراكهم في علوم الاغريق خلفت هذه الملكة اثرها القوي في اساليبهم ولم يسلم الشعر العربي بطبيعة الحال من ذلك الاثر

وكان الاموي الكاتب صاحب كتاب « الاغاني » من خير رواة عصره . وكان « عالماً بايام الناس والانساب والسير » وكان من كبار الحفّاظ . والتفوق في علوم الاسناد والرواية كان من تقاليد البلد الذي ولد فيه ابو الفرج . وهو اصبهاني الاصل . بغدادي المنشأ

ولقد كان انتساب ابي الفرج الى اصبهان وشرف اروميته من حظ العلم والا فلا بد لنا من الاعتراف بالصفات الذهنية العظيمة التي خص بها اهل ذلك البلد . « وقد خرج من اصبهان من العلماء والائمة في كل فن ما لم يخرج من مدينة » . ولا ادري من هو ذلك المؤرخ العربي الذي ذكر ان حضارة العرب مدينة في الكثير الى الاجواء المعتدلة التي تأصل فيها الذهن العربي فان اصبهان من ارقى بلاد الله هواء واصفاها مناخاً واعدلها . ولذلك فان اهلها تطول اعمارهم ولهم مع ذلك عناية وافرة بسماع الحديث . واذا قيل حديث واسناد قيل لغة . فان الباب الملكي للتأويل عند العرب هو اللغة . و« المناخ تأثير بين في اللغات[1] » . وكانت ميزة الكاتب الاموي صاحب « الاغاني » – وهي ميزة كونها المناخ — انهُ كان عالماً في اللغة . وكان علمه في اللغة اداته في الكتابة . اداة بليغة هي زبدة ما يخرجهُ راوية للشعر

وفي الحضارة العلمية الاسلامية كانت الاحاطة باللغة نوعاً من التفوق الشائع الذي يرافق بصفة خاصة سائر فروع العلم . فكان الفقيه العربي يفزع اليه في الشرع كما يفزع اليه في الطب وهو مع ذلك حجة في اللغة . كأن العلم في اللغة والاحاطة بها مقدمة لازمة لكتاب معارف الفقيه العربي

هذا الى ان « ابن خلكان » الذي نعتمد عليه في استخلاص حياة الكاتب الاموي روى « انهُ كان يحفظ دون ذلك من علوم اخر : « الخرافات » . و « السير » . ومن آلة المنادمة شيئاً كثيراً منها علم الجوارح والبيطرة وتتف من الطب والنجوم الخ ولعلكم تدهشون لذكره الخرافات بعد اللغة . وهو لا يعني بالخرافات الاقاصيص الشعرية المنسوبة الى الاغريق والفرس والهنود انا نعتقد انهُ يعني بها الميثولوجيا . وكانت الميثولوجيا في الايادة قاموس لغة الاغريق وكان يسر ادباء الاغريق ان يرجعوا الى شعر هوميروس لكي ينسبوا اليه تصحيح لغتهم واساليبهم[2]

اما اجتماع البيطرة بالنجوم والجوارح في آلة المنادمة فاشبه بتآليف لوحة فذة لمصور أديب مثل « فرومنتان » وانها لتذكرنا بنظرف بيئة رقيقة من ارباب الأدب والشعر والنبل كالتي عاصرت آل قالوا في فرنسا . ولقد كان لبعض المغربين العرب عناية وافرة بالبيطرة . وكانت علاقتها بالاسماء في اللغة من آلة المنادمة في المجالس . وكان الاصبهاني كأديب من أعيان الادباء وافرادهم منقطعاً الى الوزير « المهلبي » بلا شك من الوزراء الذين يجمعون الى التدبير والسياسة حماية أفراد الادباء والمشتغلين بالعلم . وحماية ارباب الفنون من تقاليد الانسانية التي لا تكاد تنقطع

كان العلم الذي يحضُّ عليه مناخ اصبهان هو الحديث والاسناد . وكان من تقاليدها ان يكثر فيها الحفاظ . ولكن ابا الفرج كأديب وسع اطلاعه كل فروع المعرفة في عصره خص تفوقه في الرواية بالعلم باخبار الناس وايامهم . فكان مؤرخاً بالاصطلاح القديم « انكلاسيك » وكان مؤرخاً راوية اعانهُ ذوقه وسقاء ملكته وقوة روحه على الاحاطة باخبار الغناء في كل

(١) تاريخ الاندلس للمقري . طبع مدريد (٢) ابجد تاريخ النقد

اطواره . واحسانه في هذا الفن لا ينسب الى عبقرية راوية من اعلام الرواة فحسب بل ينسب الى خصائص طبيعية اخرى ، اثر اجداده للخلفاء . ذلك الاثر الذي خلص نشأته ورفع مستوى تهذيبه في بيئته . كان اذا فتش المرء نسب اجل من فيها لم يكن بد من ان يجد في أصل نسبه حائكاً أو يهودياً » . وكان أبو الفرج الاصبهاني لطيف المذهب تقي الفطرة شريفاً لا يميل

وان مجرد الموازنة بين مواهب الكاتب الأموي وما وسعه ذهنه الكبير من فروع العلم والطريقة التي اختارها في تأليف كتاب « الاغاني » تحملنا على الايمان بمدى ما بلغه انقياده للمذهب القديم في كتابة التاريخ . ولم تنفصل عنه مع ذلك الطريقة المستحدثة التي تعنى بتمييز اطوار الفن وطبقات اربابه في ازمانهم ومراتبهم . فقال « لعل من يتصفح هذا الكتاب ينكر تركنا تصنيفه ابواباً (١) على طرائق الغناء « Modes » . (٢) وعلى طبقات المغنين في ازمانهم الخ» . ثم اشار الى طريقته فقال « ليس المغزى في الكتاب ترتيب الطبقات وانما المغزى فيه ما ضمنه من ذكر الاغاني باخبارها» . وهي الطريقة الاخبارية القديمة المستندة من علم الاسناد وكان أبو الفرج الاصبهاني من قبل ان يكون مؤرخاً للاغاني من كبار الحفاظ والرواة

هذا الى رأي آخر لا بد من ملاحظته . وهو ان العرب لم يكونوا في الاصل مدونين . فانهم لما بدأوا بالتدوين ارتجلوا طرائقهم او اقتبسوها مما اطلعوا عليه من طرائق التصنيف عند الامم التي اتصلوا بها فكريًا . فهل وفق العرب عند نقل كتاب «الموسيقى» مثلاً او قبل ذلك الى الاطلاع على تواليف اخرى في هذا الموضوع ؟ وجلي ان الكاتب الاموي قد رسم لنفسه الطريقة في تأليف كتاب الاغاني . وقد ذكر ابن خلكان انه «جمعه» في خمسين سنة واتفق الرأي على انه لم يؤلف في بابه مثله»

وقد استطاع أبو الفرج الاصبهاني ان يكون كاتباً موسيقيًا ومن نقدة الفن دون ان تكون له مع ذلك ملاحظة ظاهرة او فكرة خاصة او استنتاج او تحليل كما يتوفر عادةً عن نقدة الفن وكان عذره عن الطريقة التي اختارها وقادته اليها غريزته التقليدية « ان الاغاني قلما يأتي منها شيء ليس فيه اشتراك بين المغنين في طرائق مختلفة لا يمكن معها ترتيبها على الطرائق»

وكان أبو الفرج الاصبهاني قد صنف في البدء كتاباً سماه «مجرد الاغاني» واشار الى ذلك في المقدمة فقال «... اذ كان قد افرد لذلك كتاباً مجرداً من الاخبار ومحتوياً على جميع الغناء المتقدم والمتأخر ...» . والظاهر ان هذا الكتاب كان مرجعه في تأليف « الاغاني » فقد اضاف اليه الاخبار والقصص بترتيب حسن « ليكون القارىء له بانتقاله من خبر الى غيره ومن قصة الى سواها ومن اخبار قديمة الى محدثة ومن جد الى هزل انشط لقراءته واشهى لتصفح فنونه»

فالعلوم التي نبغ فيها الاصبهاني اذا اجتمعت ألفت شبه اوتار مشتركة لهيكل كبير هو الغناء او الموسيقى العربية كلها يمت بصلة الى ذلك الهيكل ويتعلق به : من الحفظ الى اللغة الى السير

فعلم الجوارح . حتى تلك النتف من الطب والنجوم التي كانت تعد يومئذ من آلة المنادمة

ولقد كانت الاغاني العربية نفسها تحتاج الى الحفظ والرواية لان العرب لم تخترع حروفاً « نوتة » لتقييدها. وكان للشعر من حيث كونه صناعة « art » علم هو اللغة وفن هو الغناء. ويجب ان نعلم ان الاغاني العربية تمثل روح اللغة لا الروح العربي الذي انقطع بانعصر الجاهلي : وانها (اي الاغاني) تمثل العاطفة لا الحياة . وانها تتكلم عن الانسان لا عن الجمعية

وكان الاصبهاني كناقد فني وكاتب موسيقي من الطراز الاول يستخرج من مدخر ثمين اشترك فيه اثر اجداده وذوقه ولطف مذهبه فيما اختاره لنفسه من العلوم لكي يجمع في كتابه «ماحضره . . وامكنه جمعه من « الاغاني العربية قديمها وحديثها » وينسب «كل ماذكره منها الى (١) قائل شعره (٢) صانع لحنه (٣) طريقته من ايقاعه (٤) واشتراك ان كان بين المغنين فيه على شرح لذلك (٥) وتفسير للمشكل من غريبه وما لا غنى بمن علمه من علل اعرابه واغاريض شعره التي توصل الى معرفة تجزئته وقسمة الحانه

وكانت مهمة طفيفة اذا وازنا بها علم الاصبهاني واتساع معارفه في هذا الباب واهتدائه الى مذهب التصنيف في تاريخ الغناء العربي على طرائقه وتمييز طبقات المغنين في ازمانهم ومراتبهم . ومعنى « ترتيب الطبقات » في عرف النقد الفني هو تحليل اطوار الغناء في ازمانه غير ان هذا المثل الاعلى في كتابه تاريخ الغناء بقي كحلم الشاعر في ذهن الاصبهاني الذي كان يعلم ان الناس تجهل اخبار الغناء ومن غنى شعره من الشعراء القدماء وطرائق الايقاع ومذاهب المغنين فكيف يستطيع ان يؤلف بطريقة تحليلية تصدارها على الحكم والملاحظة والتفكير والاستنتاج . وانا نعتقد ان الكاتب الاموي اراد ان يتكلم عن الغناء العربي كفيلسوف وان كتابه «الاغاني» كان تجربة ثانية بعد كتاب «مجرد الاغاني» لم يقدر ان يتملص فيها من ضرورة التوفيق بين علمه الواسع وحاجة عصره الى معرفة الاغاني العربية . واراد الاصبهاني ان يتجنب الحشو فلم تمكنه طريقته من ذلك و «نقض ما شرطه على نفسه من الغناء الحشو» . واراد ان يكون خلقياً يراعي من اخبار الغناء « ماتحتاج الاحداث الى دراستها وتجمل بالمتأدبين معرفتها ! » مخالفة عيب العصر نفسه في رواية الاخبار. وهو عيب وقع فيه كثير من اللغويين . ونذكر ان المستشرق «س. دوساسي» عند ما نقل مقامات الحريري الى اللغة الفرنسية انتقدها «ارنست رنان» من الوجهة الخلقية ولكن عذر المترجم انه اراد ان تدرس اللغة العربية في تآليف كبار اللغويين انفسهم

ولقد كان الاصبهاني ككتابه يحفظ ذكرى ليالي الانس الحافلة بالغناء ووجود الظرف والشعر والبلاغة وقصص الملوك في مجالسهم وسيرهم ومغازيهم وعجون الندامى واحاديثهم . ولولا الجزء الفني في الكتاب الذي لا يكاد يفهمه الناس لكان في وسع اي ناقد ان يعده من اشهى

كتب الاقاصيص في اللغة العربية [البقية في مقال آخر] عبد الحميد سالم

الابعاد الاربعة

معنى (الحيز — الوقت) في النسبية

لفرنر الحراز

هوي الاستاذ فيرنر الحداد نظرية النسبية فقضى في دراستها سنتين . درس بضعة عشر مؤلفاً لكبار علمائها ، منها اثنان لاينشتين نفسه . ثم بسطها في كتاب بالعربية بسهل اسلوب مستطاع من غير استخدام الحسابات الرياضية الا عند الضرورة القصوى واضاف اليه ملحقاً رياضياً فريداً « النسبية الخاصة » من يشاء ان يطلع على النظرية من الوجهة الرياضية . ومن هذا المقال السهل التناول يرى القارىء ان الاستاذ حداد جعل نظرية النسبية الغامضة اوضح ما يمكن لافهام الجمهور

ربما كانت قضية الابعاد الاربعة اغرب قضايا النسبية وابعدها عن المألوف في اذهان البشر وادعاها للاستهجان . وقد زادها هُجنة الكتّاب الذين كتبوا عنها من غير ان يدرسوها ويفهموا المقصود منها فهماً صحيحاً . ففسّروا الابعاد بحدود الجسم الثلاثة : الطول والعرض والعمق (او الحيز او السماكة) . واضافوا الزمن اليها بعداً او حدّاً رابعاً باعتبار انه من رتبتها ، من غير ان يفسّروا سرّ هذه الاضافة . فبحسب هذا التفسير لابدع ان تبدو نسبة الوقت او الزمن (رابع الحدود) امراً مستهجناً يستنكره العقل وينبوعنهُ التصوُّر . ويمثلون على زعمهم هذا بقولهم : « لهذا الكتاب ، مثلاً ، حدود اربعة : طوله وعرضه وعمقه (او سماكتهُ) والوقت الذي هو فيه » . واذا سألتهم : مامعنى هذا الكلام وما علاقة الوقت الذي هو فيه بحدوده الثلاثة فلا يستطيعون ان يزيدوك تفسيراً . اجل . لا يستطيعون لان الصخافة لاتحتمل تفسيراً

ليس للكتاب ولا لأي مادّةٍ من الموادّ المحسوسة الاّ طول وعرض وعمق . وكذلك ليس لأي حيّز موهوم في الفضاء الاّ هذه الحدود او الابعاد الثلاثة فقط ، مهما تقلّب العقل البشري في عالم التخيُّل والتصوُّر . لان هذه الحدود الثلاثة هي طبيعة الحيز الهندسي الاقليدوسي المفروض الثابت او المشغول بمادة محسوسة ساكنة غير متحركة

واما نظرية النسبية فلا شأن لها بالحيز المفروض او الموهوم ولا بالجسم المادي الثابت . ولا تعترف بوجود حيّز معيَّن ثابت ولابوجود مادة ساكنة غير متحركة ، بل هي تذهب الى ان الحركة سُنّة اساسية في المادّة بمعنى ان كلّ ذرّة وكل جسم وكل جرم في الكون متحرك ولولا الحركة لكان عدماً . ولذلك لا معنى للحيز او المكان الاّ بما يشغله من المادة

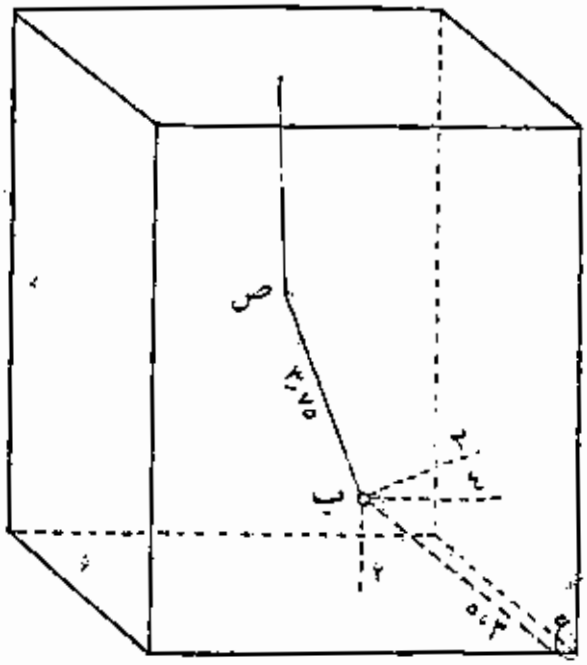

الشكل الأول

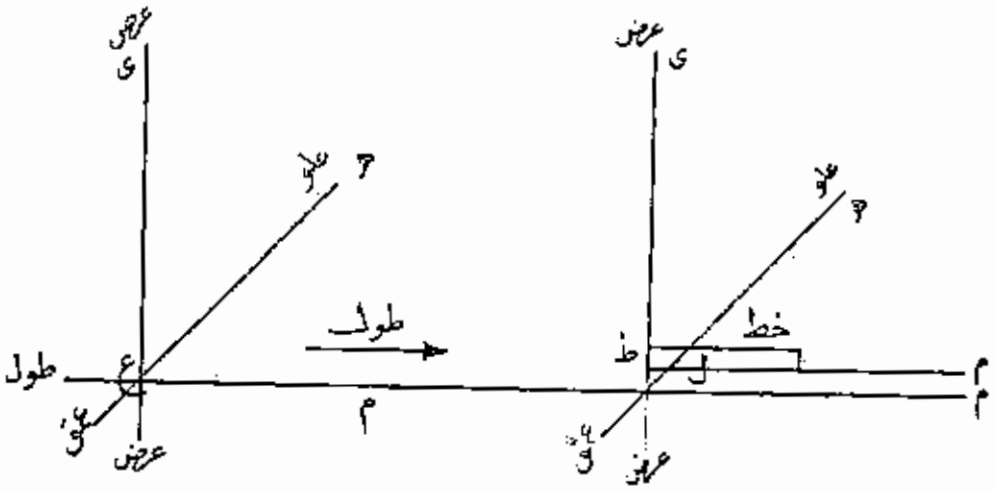

الشكل الثاني

اصلاح خطأ جوهري

في مقال « الابعاد الاربعة » المنشور في متنطف ابريل الماضي صفحة ٤٤٤ للاستاذ نقولا الحداد وقع خطأ في رموز الشكل الثاني يجعل فهم شرح القضية متعذراً جداً على من يشاء ان يفهمها بجلاء . ولذلك نرجو من القارىء ان يصحح الرسم بقلمه فيضع فتحات على الحروف الرامزة عن « متعامدات » القطار التي الى اليمين في الرسم الاسفل الثاني هكذا :

يَ . هَ . مَ (ما عدا م السفلى)

خط . والصواب . قط . (رمز للقطار)

وصواب المعادلة الاخيرة في صفحة ٤٤٨

قَ — ق (الثانية بفتحة)

بعد هذا التصحيح يسهل على القارىء جداً فهم قضية الابعاد الاربعة

او من مفاعيلها كالتشمُّع والجو الكهربائي المغنطيسي والجو الجاذبي . وحيث لامادَّة ولا شيء من مفاعيل المادة فلا شيء يسمى حيِّزاً او مكاناً . وبعبارة اخرى (غير منطقية) اذا خلا الحيز من مادة او من مفاعيلها كان عدماً . قلت «غير منطقية» لانه لاوجود لحيز خال من المادة . هو العدم كما قلنا

يستفادمما تقدَّم ان النسبية لا تعنى بالاجسام ولا بالحيز الموهوم المفروض ، وانما هي تعنى بالحركات الحادثة (الحوادث) . ولذلك اذا حدَّدت موقع حادثة او اية حركة حدَّدتها بالابعاد الاربعة : ثلاثة منها مكانية (حيزية) والرابع زماني . باعتبار ان تحديده لا يتم الاَّ باقتران الزمان بالمكان . ولكي تنجلي هذه القضية النسبية لقارىء وتنقشع من ذهنه تلك الهجنة التي غشّى بها على الابصار الكتّاب المتسرّعون بلا تحقيق . نشرح القضية فيما يلي مبتدئين بابسط وجه من وجوهها

* * *

افرض او تصوَّر انك في غرفة مكعَّبة ، كلٌّ من طولها وعرضها وارتفاعها عشر اذرع ، وان هذه الغرفة هي كلُّ الكون . وتصوَّر ان في جانب منها (منضدة) طاولة ، وعلى الطاولة شمعدان ، وعلى قمة الشمعدان عند ب في الشكل الاول ذبابة او بعوضة : وافرض انك في زاوية الغرفة السفلى عند ع رقيباً يراقب البعوضة . فاذا يفعل الرقيب لتحديد موقع البعوضة ؟

افرض انه يقيس اقرب مسافة من موضع البعوضة الى الارض وهي الخط العمودي الساقط منها الى الارض ، ولنفرض انه وجده ذراعين . فهل يكفي لتحديد موضع البعوضة بالقول انه يعلو عن الارض ذراعين او يسفل عن السقف ٨ اذرع ؟ كلاَّ ، لماذا ؟ لانك كيفما دفعت الطاولة في ارض الغرفة دفعاً أفقيّاً تبقى البعوضة عالية ذراعين عن الارض . يلتفت الرقيب الى الجدار الذي عن يمينه ويقيس اقرب مسافة من البعوضة اليه فيجدها ٤ اذرع مثلاً . فيقول ان البعوضة تعلو عن الارض ذراعين وتبعد عن الجدار الذي عن يميني ٤ اذرع ، فهل هذا يكفي لتحديد موضع البعوضة ؟ كلاَّ ؛ لانهُ يمكنه ان يدفع الطاولة في خط موازٍ للجدار المذكور وتبقى البعوضة على ذراعين فوق الارض و ٤ اذرع عن الجدار . اذن ، يبقى عليه ان يقيس اقرب مسافة بين البعوضة والجدار الذي عن يساره (المعامد للجدار الذي عن يمينه) فيجدها مثلاً ٣ اذرع . وحينئذٍ يصح له القول ان البعوضة ترتفع عن الارض ذراعين (او تسفل عن السقف ٨ اذرع) وتبعد عن الجدار الذي عن يميني ٤ اذرع (او عن الجدار المقابل له ٦ اذرع) وتبعد عن الجدار الذي عن يساري ٣ اذرع (او عن الجدار المقابل له ٧ اذرع)

فهل يتحدَّد موضع البعوضة حينئذٍ ؟ نعم . لانه ليس في تلك الغرفة الاَّ نقطة واحدة لها هذه الابعاد الثلاثة المتعامدة فيها عن جهات الغرفة . وهي موضع البعوضة

اذاً ، لابد لتحديد أي نقطة في أي حيّز من ابعاد ثلاثة (مكانية) متعامدة كل واحد منها عمودي على الآخرين في تلك النقطة . ولا يمكن تحديد موقعها ببعدين فقط . وبالاحرى لا يمكن ببعد واحد ، وهذا ما يسمونه في اصطلاح النسبية نظام المتعامدات الديكاري The Cartisian Co-ordinate System نسبة الى الفيلسوف ديكارت الذي استنبطهُ

هذا هو معنى الابعاد الثلاثة المكانية التي بها يتعين اي موقع في أي حيّز . بقي ان نعلم كيف يأتي البعد الزماني الرابع تتمة لتعيين الحادث . واما قبل الانتقال هذه الخطوة لابدَّ من شرح مسألة اخرى لا غنى عنها لتمام البحث في موضوع النسبية . وسيرى القارىء خطورتها

قلنا ان المراقب مقيم عند ع . ولابد لهُ من معرفة بُعد البعوضة عنهُ . فكيف يعلمهُ ؟ يلجأ الى قاعدة فيثاغورس الهندسية وهي :

(١) مربع الوتر في مثلث قائم الزاوية يساوي مجموع مربعي الساقين

(٢) مربع الوتر في مكعب يساوي مجموع مربعات الطول والعرض والعمق فاذاً ، المسافة من ع ← ب = $\sqrt{٢^٢+٣^٢+٤^٢}$ = ٥،٣ . نتقدم الآن الخطوة الاخرى في البحث

***

لنفرض ان في وسط الغرفة تماماً مصباحاً معلقاً على بعد ٥ اذرع من جميع الجهات، عند ص في الشكل الاول (فيكون بُعدهُ عن ع = $\sqrt{٥^٢+٥^٢+٥^٢}$ = ٨،٦ تقريباً)

ولنفرض ان البعوضة طارت عن الشمعدان في خط مستقيم الى المصباح ص بمعدل سرعة ذراعين في الثانية . قامت الظهر تماماً ووصلت في الثانية ١،٨٧ بعد الظهر

فهنا حادث انتقال البعوضة عن الشمعدان الى المصباح . لم يتم هذا الحادث في الحال بل اشتمل مسافةً واستغرق وقتاً في آن واحد . اي ان المسافة التي سلكتها البعوضة بين ب ← ص يعبر عنها بسرعة البعوضة في الثانية مضروبة بعدد الثواني التي قضتها في اثناء الانتقال

والرقيب ع مضطرٌّ ان يُدخل الوقت في الحساب لاستخراج موقع الانتقال هذا بالنسبة اليهِ . اذن . نعود الى الحساب ونحدد موقع قيام البعوضة عن الشمعدان وموقعه وصولها الى المصباح بالنسبة الى الرقيب ع هكذا : —

	الموقع المكاني			الموقع الزماني	
	طول	عرض	عمق	الثانية	الساعة
موقع وصول البعوضة الى المصباح	٥	٥	٥	١،٨٧	١٢
موقع قيام البعوضة عن الشمعدان	٤	٣	٢	٠٠٠	١٢
نطرح لنعرف فرق الابعاد بين القيام والوصول	١	٢	٣	١،٨٧	٠٠

ذراعاً معدل السرعة ثوان

اذن المسافة بين ب — ص = $\frac{٢١ + ٢٢ + ٢٣}{٧}$ = ٣٧٥ × ٢ × ١٧٨٧

هكذا هو حساب الرقيب عند ع . وترى منهُ انهُ لزم لاستخراج موقع حادث الانتقال ان يدخل الوقت في الحساب كبعد رابع

بعد هذا الشرح البسيط صار في امكانك ان تتصوَّر المدَّة (الزمانية) والمسافة (المكانية) في كل حركة (حادثة) مرتبطتين ارتباطاً وثيقاً كأنهما لفظتان لمعنى واحد . لانك لا تستطيع ان تتصور اي حادث او اية حركة لجسم الاَّ وانت تمثل في ذهنك سرعة ذلك الجسم تستغرق وقتاً لعبور مسافة . فلا يحضر لذهنك انتقال ذلك الجسم اية مسافة الاَّ وتحضر في ذهنك ايضاً المدة التي قضاها ذلك الجسم في عبور هذه المسافة . لان الحركة تشغل المسافة والمدَّة (المكان والزمان) معاً . فهي الوثاق الذي يوثقهما . رأيت ان البعوضة في انتقالها من الشمعدان الى المصباح اشغلت مسافة ومدَّة في آنٍ واحد . فكان مستحيلاً عليها ان تقطع المسافة من غير ان تشغل وقتاً ، كما انهُ لا يحسب لها وقت اذا لم تتحرك حركة تشغل مسافةً . فالحركة اذاً هي صلة زمانية مكانية بين حادثي قيام البعوضة ووصولها . هذه الصلة هي البُعد الرابع . ليس الوقت وحده البعد الرابع الذي نعنيه اذ لا وجود لهُ . واما الوقت الذي تدمجهُ الحركة بالمسافة هو البعد الرابع . ولذلك في كل حركة نعبّر عن المسافة بحاصل ضرب معدل السرعة في الثانية بعدد الثواني (او اي وُحدة من وحدات الوقت) فنقول م (المسافة) = س × ق (السرعة مضروبة بالوقت) . اذاً ، البعد الرابع هو «الحيز — الوقت» معاً كما سترانهُ في المعادلات الرياضية التي يفضي اليها توسعنا في البحث التالي

***

مع ذلك لا يكتفي الرقيب بهذا الحساب لانهُ ناقص نظريًّا كما سترى . هو ناقص لاننا لم نحسب حساب النور الذي ينقل خبر الحادث الى عين الرقيب . اذ لا يخفى عليك ان النور الذي ينقل الخبر يستغرق وقتاً ايضاً (٣٠٠ الف كيلومتر في الثانية) . نعم ان مدة انتقال النور (من موضع قيام البعوضة ومن موضع وصولها) الى عين الرقيب في غرفة ، لا تعتبر شيئاً البتة (الاَّ نظريًّا) ولكن في المسافات الفلكية السحيقة تكون المدَّات دقائق وساعات وأياماً وسنين فلابدَّ من ادخالها في الحساب . ونحن نضرب الامثال النظرية بالمسافات القصيرة تسهيلاً لفهم القارىء الحقائق العملية في المسافات العظيمة

ولكي تنجلي حقيقة القضية للقارىء جيداً نضرب مثلاً آخر ونعدل عنهُ حساب الارقام لكيلا نعنت ذهنهُ . ونستعيض عنها برموز الحروف . لقد فهم القارىء ان الموقع المكاني

(الحيّزي) لا يمكن تحديده الاَّ بتعامد ثلاثة متعامدات فيهِ بين الجهات الست . الطول من الشرق الى الغرب مثلاً) ، والعرض من الجنوب الى الشمال ، والعلو من فوق الى تحت — فهم القارىء ذلك فلم يبقَ لزوم لتكرار الكلام فيهِ ولا لتمثيل بالغرفة او نحوها . يكفي بسط قضية اخرى بالرسم التالي

لنفرض ان النقطة ع محطة سكة حديدية وفيها تتعامد الابعاد الثلاثة م . هـ . ي (كما ترى في الشكل الثاني) محدّدة لموضعها . وفيها قطار . قط . تتعامد فيهِ ايضاً الابعاد الثلاثة: مَ . هَ . يَ

نرمز عن الوقت الذي قضاه القطار في رحلتهِ بالحرف ق في نظر ناظر المحطة ع وبالحرف قَ في نظر سائق القطار . وسنرى ان الوقت في نظر الواحد يختلف عنهُ في نظر الآخر . ولنفرض ان القطار يسير بسرعة ١٠٠ متر في الثانية نرمز عنها بالحرف س . وهو يسير على خط الطول م وبنفس اتجاهه . ونفرض ان طول الخط الذي يسير عليهِ القطار يساوي م . والمسافة التي يسيرها القطار تساوي سرعته مضروبة بالوقت اي س × ق او س ق والمسافة التي لم يسرها بعد ، اي الباقية من الخط م ويُنتظر ان يسيرها ، تساوي م

فلما كان القطار في المحطة كانت متعامدات القطار وبالاحرى جميع ابعاده مطابقة لابعاد المحطة اي ان م = مَ هـ = هَ ي = يَ ق = قَ

ثم سار القطار دارجاً على الخط م الى ان وصل او عبر على النقطة ط بعد عدد كذا من الثواني رمزنا عنها بالحرف ق في نظر ناظر المحطة وبالحرف قَ في نظر السائق كما تقدم القول. وبناءً عليه اصبحت المسافة م = م + س قَ في نظر ناظر المحطة

و مَ = م — س ق في نظر سائق القطار

وبقيت هـ = هَ

« ي = يَ

« ق = ؟ ؟ سنرى

« قَ = ؟ ؟

وهنا نوجّه نظر القارىء الى مسألة جوهرية وهي : في نظر ناظر المحطة القطار يبتعد عنهُ . وفي نظر سائق القطار المحطة تبتعد عنه ، كأنّ القطار ساكن والمحطة راحلة . فكلٌّ من ناظر المحطة وسائق القطار يحق لهُ ان يعتبر نفسه ساكناً والآخر مبتعداً عنهُ . وما دامت المسافة بينهما تتسع وتنفرج فلا عبرة في ايهما السائر وايهما الساكن وانما العبرة في ان المسافة بينهما تتسع وان نظر كلٍّ منهما يختلف عن نظر الآخر كما سنرى

هذه نظرية دقيقة من نظريات النسبية قد لا يطمئن لها تصوُّر القارىء الا بعد شرح كاف . وبالاسف ليس هنا متسع لهذا الشرح الآن . وربما عدت اليه في حين آخر

نرى فيما تقدم ان مسألة الوقت دخلت حتماً في حساب انتقال القطار من المحطة الى نقطة ط كما نرى في المعادلتين الاوليين من المعادلات الست السابقة . ولكن هل هذا الحساب صحيح وتام ؟ او هل هو كل شيء في مسألة البعد الرابع ، الوقت ؟ فلنرَ

ان الملمّ بنظرية النسبية لا يقتنع بهذا الشرح البسيط ، حتى ناظر المحطة ، ومثله سائق القطار ، اذا كان قد اطلع على تعليل مسألة تقلص الاجسام في اتجاه خط حركتها (كما شرحناها في مقتطف فبراير ١٩٣٣) واقتنع بان هذا التقلص يتوقف على نسبة خاصة بين سرعة الجسم وسرعة النور كما تدل عليها عبارة لورنتز الرياضية (التي استخرجناها في ذلك المقال) — اذا كان قد فهم جيداً هذه القضية الخطيرة الشأن التي بنيت عليها نظرية النسبية فلا يقتنع بهذا الشرح البسيط

لا يقتنع الملم بنظرية النسبية بهذا الشرح البسيط لانه يعلم ان ناظر المحطة لما رأى القطار قد مرّ على نقطة ط — او لما بلغه بواسطة اشارة برقية او لاسلكية (راديو) ان القطار مرّ على نقطة ط — كان القطار قد تجاوز هذه النقطة الى نقطة ل (مثلاً) في اثناء انتقال الاشارة اليه لان الاشارة استغرقت وقتاً . ولذلك اصبحت المسافة من ل الى ع تساوي في نظره المسافة من ط الى ع فكأنها تقلصت بقدر المسافة من ل الى ط

***

وقد فهمنا من مقال التقلص المشار اليه آنفاً ان مقدار هذا التقلص يساوي :

$$\text{م} \times \left| 1 - \frac{\text{س}^2}{\text{ن}^2} \right|^{\frac{1}{2}} = \text{م}' + \text{س ق}' \text{ وبالجبر لنا م} = \frac{\text{م}' + \text{س ق}'}{\left| 1 - \frac{\text{س}^2}{\text{ن}^2} \right|^{\frac{1}{2}}}$$

هذا في نظر ناظر المحطة ع

وأما في نظر سائق القطار فان م $= \dfrac{\text{م} - \text{س ق}}{\left| 1 - \frac{\text{س}^2}{\text{ن}^2} \right|^{\frac{1}{2}}}$

ومن هاتين المعادلتين يمكننا (لو يسمح المقام) ان نستخرج قيمة ق وق اي قيمة الوقت في نظر كلّ من ناظر المحطة وسائق القطار . فهي :

$$\text{في نظر ناظر المحطة ق} = \frac{ق + \frac{م س}{ن^٢}}{\sqrt{١ - \frac{س^٢}{ن^٢}}}$$

$$\text{وفي نظر السائق ق}' = \frac{ق - \frac{م س}{ن^٢}}{\sqrt{١ - \frac{س^٢}{ن^٢}}}$$

فنرى في هذه المعادلات كيف ان الوقت يختلف عند الواحد عنه عند الآخر كما ان المسافة تختلف ايضاً (ولها بحث خاص) ونرى ايضاً كيف ان الوقت اندمج مع المسافة فكوّن بُعداً رابعاً جعلته سرعة النور وسرعة الجسم المتحرك يختلف في نظر الواحد عنه في نظر الآخر. (يتضح هذا جيداً في البحث في نسبية التواقت)

ماذا نفهم مما تقدم؟ لم نفهم مما تقدم ان الزمن بُعدٌ رابع فقط بل علمنا ايضاً امراً آخر عظيم الشأن وهو ان الزمن او الوقت (او المدة) نسبيٌّ يتعدد في نظر المراقب البعيد كما ان المسافة نسبية تتقلص في نظر المراقب البعيد

كان العلماء والفلاسفة قبل عهد «النسبية» يعتبرون الزمن او الوقت شيئاً مستقلاً قائماً بنفسه لاعلاقة له بالمكان او الحيز. وهو هو بعينه في نظر المراقبين للحوادث مهما تباعدت مواقعهم ومهما تراءت مواقع الحوادث عنهم. فكانوا يعتقدون ان الوقت لحادث في اي مكان بعيد هو نفس الوقت لراصد هذا الحادث اينما كان ومهما اختلفت ابعاد الحادث عنه

ولكن من مجرد التأمل في المعادلات المذكورة آنفاً يتضح لك ان الوقت لا وجود له ولا هو بالشيء المستقل القائم بنفسه. ماهو الاّ نتيجة فعل الحركة (الحادث) في الحيز. فهو مقياس للحركة فقط. ولما كان نظر الرقباء للحادث يختلف باختلاف ابعادهم عنهُ لان النور (او اي امواج كهربائية مغنطيسية) هو الوسيلة لنقل خبر الحوادث اليهم، صار الوقت (الذي هو مقياس (الحركة)، في نظر الواحد منهم يختلف عنه في نظر الآخر حتماً كما تدل عليه المعادلات المذكورة آنفاً

اذاً الوقت (الذي هو بُعد رابع كما تقدم تبيانه) هو شيء نسبي ايضاً. وتتضح نسبيته جيداً في شرح نظرية «التواقت» اي حدوث حادثين متباعدين في وقت واحد. وهي من أهم قضايا النسبية وافكهها. وربما عدت اليها في مقال آخر

شهيد الخرطوم

او غوردون باشا

اصدر المستر بيير كرايتس القاضي الاميركي في محكمة مصر المختلط الابتدائية كتاباً نفيساً بعنوان « غوردون : الخاصة والسودان » تتبع فيه حياة غوردون من ناحية عمله في فتح السودان ومحاربة النخاسة وانحصاره في الخرطوم وغير ذلك من الحوادث المتصلة بتاريخ مصر الحديث اوثق اتصال. وقد كتب المؤلف كذلك مقالة في مجلة آب الاميركية لخصناها في ما يلي واغا نشير على المهتمين بهذا الموضوع ان يجعلوا المقالة نواة لقراءة الكتاب . وهو يطلب من مكتبة الاخبار المصرية بشارع قصر النيل

احتفل في ٢٨ يناير سنة ١٩٣٣ بالعيد المئوي لولادة غوردون «الصيني» ولابدّ ان يكتب الكتّاب احتفالاً بهذا الحادث بضع تراجم جديدة للضابط الانكليزي الشديد التمسك بالدين والذي قاد الجنود الصينية الى النصر في فتنة تايبنغ سنة ١٨٦٣ و ١٨٦٤ ثم دافع بعد ذلك عن الخرطوم دفاعاً موسوماً بالبسالة ومثيراً للاشجان مما يقلّ نظيرهُ في مأساة الحرب

وفي مدة حياتهِ تبارى الكتّاب في المبالغة بذمهِ وبمدحهِ . ويقول معاصرونا في تقدير صفاتهِ انهُ بطل عسكري وديني معاً ماش للانسانية لا لنفسهِ

كان لتشارلس جورج غوردون عينان زرقاوان خلابتان تولدان الثقة في الناظر اليهما ويكتسب صاحبهما بهما الاصدقاء . وكان في صوتهِ نعومة ورنة يعرف بهما « الرجل » الانكليزي الكريم وكان اقرب الناس الى القلوب واكثر الجنود تمسكاً بالمسيحية

وقد مرّت الى الآن خمسون سنة منذ اصبح في ٢٦ يناير سنة ١٨٨٥ « شهيد الخرطوم» ولكن المناقشة التي قسمت انكلترا حينئذٍ معسكرين وتلاميذ السياسة الخارجية في العالم كله حزبين لم تخمد ويلوح انها سوف تدوم الى الابد

وقد يكون المثل القائل ان الولد ابو الرجل صحيحاً ولكن لم يكن في حداثة غوردون ما يدلّ على اخلاقهِ وصفاتهِ التي اشتهرت فيما بعد . فقد ولد في ٢٨ يناير سنة ١٨٣٣ وكان الابن الرابع في عائلة مؤلفة من احد عشر ولداً . وكان ابوهُ جنرالاً في الجيش البريطاني وعني بتربيته تربية عسكرية . ولكن مرّ زمان ظهر فيهِ ان «شقاوتهُ» في المدرسة الحربية قد تضطرهُ الى ترك الخدمة العسكرية لانه كان شديد الايذاء لمعلمهِ الذي صدّ دونهُ في الصفوف ووبخ مرة على ذلك فانتقل من قسم المدفعية الملكية الى المهندسين الملكيين في المدرسة العسكرية الملكية لهذا السبب

ولما ترك مدرسة وولتش للخدمة ضابطاً في قسم المهندسين امر بالذهاب الى جبروك وعهد اليه في وضع رسوم لبناء حصون عند مدخل الميناء . وفيما كان هناك تملكتهُ الافكار الدينية فكان يصلي بغيرة رجل متجدد ويكثر من قراءة الكتب الدينية وتغير نظرهُ الى الحياة تغيراً كاملاً

ثم شبت نار حرب القريم فانتدب للخدمة في خنادق سباستبول فامتاز بالشجاعة وهو ابن ٢٢ سنة . وبلغ من ثقة وزارة الحربية بهِ انهُ لما شهرت بريطانيا الحرب على الصين سنة ١٨٦٠ وجّه اليها ولكن القتال انتهى قبل وصوله الى الشرق الاقصى ومع ذلك بقي في الصين اربع سنوات واشترك في حربها الاهلية فكان ذلك واسطة للتعرف بشؤونها المحلية تمرساً اكسبهُ احترام حكامها وحبهم لهُ

وقاد جيشاً صينياً لقّب « بالجيش الدائم النصر » فانعم عليهِ بالسترة الصفراء وبريشة الطاووس ورقي الى رتبة « مندرين ». وعاد الامبراطور فرقّاهُ الى رتبة تيتو اي ميجر جنرال في الجيش الصيني حتى عرف في الهيئة الاجتماعية في لندن بلقب غوردون «الصيني». وانعمت عليهِ الملكة فكتوريا بنيشان الحمام ورتبة لفتننت كولونل في المهندسين الملكيين . فلم يبلغ الثلاثين حتى عدّ احد ابطال الكلترا الوطنيين

ولما عاد الى لندن حاولوا حرق البخور لهُ فلم يرقهُ ذلك بل آثر ان يترك وشأنهُ . ورحب بالفرصة التي سنحت لهُ اذ انتدب لاقامة حصون على نهر التايمز فدفن نفسهُ في ذلك العمل مدة خمس سنوات . وقضى ساعات فراغه في الاعمال الخيرية . وكان كثيرون من المرضى اذا حضرتهم الوفاة يدعونهُ اليهم ويفضلونهُ على رجال الدين الرسميين فكان يلبيهم مهما بعدت الشقة . ولكنهُ لم يكن يلبي دعوة الذين يدعونهُ لرياسة الاجتماعات الدينية لانهُ كان يمقت الظهور والتظاهر

واقضى كرههُ للظهور وبذلهُ نفسهُ عن غيره الى تقوّل كبار الضباط وصغارهم الاقاويل فيهِ فقصروا زهدهُ في امور الدنيا بشذوذ طباعهِ وغرابة اطوارهِ واستهدف بسبب ذلك لسخريتهم حتى بلغت سخريتهم وزارة الحربية . واتفق ان خلا منصبٌ كبير في لجنة الدانيوب الاوربية فعين فيهِ حالاً مما دلّ على ان اهل الشأن لم يبالوا مثقال ذرة بما تقول الناس فيهِ

وفيما كان في الاستانة بصفة مهندس ملكي اجتمع بنوبار باشا وزير خارجية مصر في عهد اسماعيل باشا الخديوي . وكان السر صموئيل بأكر الحاكم العام للاقاليم الاستوائية ينوي الاستعفاء من منصبهِ وكان لا بدّ من انكليزي يحلّ محلهُ فأعجب نوبار باشا غاية الاعجاب بهِ فطلبت مصر من الحكومة البريطانية ارساله اليها فنبّهت طلبها

وكان مرتب السر صموئيل بأكر ١٠ آلاف جنيه في السنة فاصرّ غوردون على ان يخفض مرتبهُ هو الى الفي جنيه وقال « ان الفلاح يعطي هذا المال من عرق جبينهِ ومرتبي في لجنة الدانيوب الفا جنيه فليس هناك سبب يحملني على ان أدع مصر تدفع اليّ اكثر من هذا المرتب »

وسرّ المهندس الملكي بهذا الميدان الجديد الذي فتح امامهُ اذ رأى فيهِ فرصة لخدمة الانسانية . وكان يعرف ان اواسط افريقية اروج اسواق النخاسة فلذلك فسّر تعيينهُ في منصبهِ الجديد بانهُ وسيلة لمحاربة الرق في منبعهِ

وكتب الى شقيقتهِ سنة ١٨٧٣ وهو في لجة الدانيوب وقبل قبوله المنصب المصري يقول:

« ان الله اذن في ترك النخاسة وشأنها هذه السنين الطوال . ولما كانت قد خلقت مع القوم فهي في حاجة الى اكثر من حملة لاستئصال شأفتها . لتفتح البلاد اذاً لسقطت من تلقاء نفسها. اني اكره ان تفقد نفس واحدة في هذا السبيل وسأحاول منع كل حادث يحدث اذا ذهبت الى هناك »

وكتب اليها بعد ذلك باسبوع :

« اعتقد اذا استقرت احوال السودان ان الخديوي يمنع الاتجار بالرقيق ولكنهُ لا يرى السبيل الى ذلك واضحاً حتى يتمكن من التجوال في البلاد . ومن رأيي ان نفتحها بجعل البواخر تصل الى البحيرات . وفي اثناء ذلك اهتدي الى النخاسين فاسأل الخديوي ان يقبض عليهم »

وخير ما يوصف بهِ غوردون انهُ كان اغناطيوس لويولا (مؤسس فريق اليسوعيين) في القرن السادس عشر او متصوفاً انجليكانيًّا عيناهُ في السماء وقدماهُ على الارض . او حالماً يفهم نواميس الاقتصاد ويؤمن بالصلاة ويعبر تعاليم ادام سمث (الاقتصادي) اذناً صاغية وقلباً واعياً

وقد رأى بعين الحالم الخيالي الذي فيه خبيرة من الحقائق ان النخاسة جزء لا يتجزأ من بناء افريقيا الاقتصادي فلذلك عزم ان يناوئها لا بأوامر عالية من الخديوي ولا بالصلاة والصوم بل باسكان الناس في السودان وايصال البواخر الى البحيرات كما قال وبفتح الاقاليم الاستوائية في وجه الحضارة

ونال غوردون الحظوة عند اسماعيل باشا في اول اجتماع بهِ فوضع فيهِ كامل ثقتهِ ومنحهُ سلطة لا حدَّ لها في منصبهِ الجديد وعين رئيساً لاركان حربه اميركيًّا اسمهُ الكولونل تشايلي لونغ من مريلند وولى اميركيًّا آخر هو الميجر وليم كيل منصباً حربيًّا آخر تحت قيادتهِ لمقاومة تجارة الرقيق . ثم سافر غوردون الى قلب افريقية

ولم يكد كيل يتولى منصبهُ في الخرطوم حتى توفي بالحمى . اما لونغ فانتدب لمهمة في اوغندة فعين اميركي آخر محلهُ هو الميجر پروت وكان ينوب عن غوردون في اثناء غيابهِ

ولم يمض زمان طويل حتى طلب من الخديوي ووزارة الحربية في لندن طلباً اثار مقاومتهما محاً وهو تعيين نخاس عربي اسمهُ ابو سعود في خدمتهِ . وكان السر صموئيل باكر قد قال عن ابو سعود انهُ مجرم لا يصلح وشهّر بهِ في العالم قائلاً انهُ اعظم نخاسي افريقية . ولكن ذلك كلهُ لم يمنع غوردون من ان يطلب اطلاق سراحه وتعيينه في خدمتهِ حاذياً في ذلك حذو باكر نفسهُ اذ جمع حرساً له من المجرمين ومعتادي الاجرام وهم من الذين سجنهم في احد كتبهِ

« اللصوص الاربعين » فوطم من لصوص الى حفظة للامن منفذين للقانون لم يخونوه مرة واحدة واشتهروا بالنبالة والأمانة والاخلاص له . ولما سافر من افريقية عين « وات الملك » من كبار النخاسين سابقاً لحفظ النظام والقانون في السودان الى حين وصول غوردون

ولكن يا كثر خالف غوردون في اختيار ابي سعود لخدمته وكان عنده اسباب حملته على ذلك وكتب في التيمس ينتقد هذا التعيين . ولم يكد غوردون يستخدم ابا سعود حتى رأى انهُ لا ينفعهُ فصرفهُ على عجل

ومن أغرب ما روى عنهُ في اوائل مقاومتهِ للنخاسة ان اول سرب من الرقيق اسره من النخاسين كان مؤلفاً من فتيات سودانيات جيء بهنَّ من بلدان تبعد مئات الاميال. فقال في نفسهِ : ماذا تريد هؤلاء الفتيات حقيقة غير الازواج ؟ ثم امر بهنَّ فحضرن امامهُ فسألهنَّ هل تتزوجن من جنودي ؟ فأجبنهُ بصوت واحد « نعم » . والتفت الى جنوده وسألهم السؤال عينه فأجابوا بما اجاب بهِ الفتيات . فقال «يا بنات اخترن ازواجكنَّ» ففعلن فزوج الفتيان بالفتيات . وكتب في مذكراتهِ في ١٩ سبتمبر سنة ١٨٧٧ يقول :

« لقيت صباح هذا اليوم قافلة من الرقيق وعددهم ٦٠ او ٨٠ رجلاً وامرأة وولداً وهم موثقون بالحديد . فماذا اصنع لهم ؟ هل اطلقتهم فمن يعنى بهم او من يطعمهم ؟ ومنازلهم بعيدة فمن يعيدهم اليها ؟ لذلك قررت ان اكره النخاس الذي معهم على فك قيودهم وابقائهم معهُ . والحق ان النخاس لم يؤذ احداً بشرائهم لأن شراء الرقيق محلل في مصر ولم يأخذهم من منازلهم . ولا علاج لهذه الحالة الا وقف النخاسة على الحدود»

وبقي غوردون يناوىء النخاسة حتى تخلى اسماعيل باشا عن عرش الخديوية سنة ١٨٧٩ وكان الخديو صديقه ومؤيده فلما أكرهت اوربا اسماعيل على الاعتزال رأى غوردون ان الأليق بهِ ان يرحل في اول فرصة . وترك افريقية وعين سكرتيراً خصوصيًّا للورد ريبون حاكم الهند ولكنهُ لم يلبث ان استعفى ثم جاءه تلغراف من السر روبرت هارت المفتش العام للجمارك الصينية يلحّ عليهِ في السفر الى الصين فسافر وساعد على منع الحرب بين الصين وروسيا

وعين بعد ذلك في مناصب مختلفة ثم عاد الى انكلترا فطلب اجازة للسفر الى فلسطين. وفيما كان فيها طلب منهُ ليوبولد الثاني ملك البلجيك ان يتولى ادارة ولاية الكنغو الحرة فقبل بشرط موافقة وزارة الحربية في لندن وعاد الى انكلترا للاستعداد للسفر اليها

ولكن «القسمة» حالت دون انفاذ هذا المشروع . ذلك انهُ لم يكد يصل الى سوئمبتن حتى جاءت الانباء بان جيش هكس باشا أُبيد في الابيّض ومات هكس وجميع الضباط الانكليز الذين كانوا معهُ . فروعت انكلترا كلها وضربت الصحف على هذه النغمة وتزعزعت وزارة غلادستون فانفذ غوردون الى القاهرة وهكذا انقذ وزارته. وبقي غوردون على الطريق عشرة أيام استردت

فيها البلاد صوابها وغلادستون رزانتهُ. فطلب غوردون انضمام الزبير (باشا) الى بعثته فاستنكر غلادستون ومن لفَّ لفهُ من كارهي النخاسة هذا الطلب لاشتهار الزبير بها . ووافقهم اللورد كرومر (السر افلن بارنغ حينئذ) على هذا الاستنكار اولاً فلم يسع غوردون الاَّ السكوت ولكنهُ لما سافر جنوباً جعل ينفذ الرسالة اثر الرسالة الى السر افلن ملحًّا في اقناع لندن بالموافقة على طلبهِ والحق يقال ان كرومر اقتنع بعد ذلك برأي غوردون وأيده في طلبهِ . ومما قالهُ غوردون

ان المصريين والانكليز طبعاً — سيتحولون قريباً عن السودان فتمسي هذه البلاد السوداء معرضاً للرجل الاسود . واقدر رجل اسود اعرفهُ هو الزبير . هو السوداني الوحيد الذي يستطيع اقامة حكومة منظمة في تلك الانحاء . فاذا اعتزلنا — ولا بدَّ من اعتزالنا — وجب ان نسلِّم مقاليد الامر الى رجل ما . فان لم يتولَّ الزبير امر رحيلي مع الحامية والمدنيين الذين يريدون الرحيل فانهُ لا يسعني اذ ذاك الرحيل وان استطعتهُ تلاهُ مذبحة بين الاهالي. فقد يكون الزبير رجلاً شريراً ولكن الضرورة تحوجنا اليه الآن . فبأسم كل شيء مقدس ارجو منك ان تدعني استخدم الزبير

انقذ غوردون غلادستون ووزارتهُ من الهزيمة والخذلان ولكن غلادستون ترك غوردون يقاوم التيار ويغرق مفضلاً ذلك على ان يعهد في امر انقاذه الى وسيلة غير مستقيمة لكن معتولة (الزبير) . لذلك طاول غلادستون وسوَّف وانتظر واكثر الكلام . وقبل ارسالهِ الجواب الاخير كان المهدي قد اطبق على الخرطوم

وبعبارة اخرى ان الوزارة البريطانية ارسلت تلغرافاً من القاهرة الى الخرطوم تخبر غوردون فيها بانها لا توافق على استخدام الزبير ولكن يظهر ان هذا التلغراف لم يصل بسبب قطع الاسلاك . فقد قال اللورد كرومر في كتاب « مصر الحديثة » الذي كتبهُ « لا اظن ان هذه الرسالة وصلت الجنرال غوردون »

ويوميات غوردون لا تبقى مجالاً الى الارتياب في هذا الامر . وذهب غوردون الى قبرهِ وهو ينتظر جواب طلبهِ لاستخدام الزبير . وفيما كان غوردون بين الرجاء واليأس وقف غلادستون في البرلمان وقال « ان غوردون غير مكتنف . وموقفهُ موقف سلامة على ما نعلم »

ان غوردون لم يخن ولم يضحِّ بهِ ولم يتخلَّ عنهُ ولم يُسأ فهمهُ . لكن غلادستون الخطيب السياسي اصرَّ على درس عيني غوردون الخيالي وأبى ان يقرأ عقل غوردون صاحب الحقائق فقد كان هذا العقل سافياً شفَّافاً . وسجلات وزارة الحربية وسجلات جريدة التيمس والملحق الذي اضيف الى كتاب باكر « الاسماعيلية » وحلات الجمعية المضادة للرقيق على غوردون وكتابهُ عن اواسط افريقيا — وفيهِ ٤٥٦ صفحة — هذه كلها جعلت عدم فهم غلادستون لعقل غوردون امراً مستحيلاً ، ومع ذلك لم يفهمهُ . وقد اعماهُ عظم اغتراره بنفسهِ

قيثارتاه (١)

دناك تسقي الكأس في حيثها ... من خمرة ما عتقت في الدنان
إن غاب ما للارض في ارضه ... فلم تزل تلك المعاني الحسان
راحا الى الخلد خلالاً على ... خمائل الغوبى بأسمى مكان
وعلقت في سدرة المنتهى ... بين خدود الحور قيثارتان
اذا شدا الأملاك تسبيحهم ... شاركتا جوق العلى تصدحان

ما نومة الشاعر في لحده ... بضجعة المهزوم بعد الطعان
لا تندبوه ! ما خبا نوره ... فشعره نبراس اهل الزمان
معتصر من مهجة متحة ... شعورها يملأ صحن الكيان
يأسى مع الآسين في حزنهم ... ويبرىء الجرح بمس الحنان
ويكسب الغبطة في كأسه ... خمراً — لحاسيها المنى والامان
الزهو والحكمة في شعره ... وعبرة الدهر وشدو القيان
ودائع التاريخ في لحنه ... وفي امانيه نحيّ الجنان
يجنح الفكرة يسمو بها ... الى ذرى فوق حدود المكان
يحس شوق الورد في روضه ... ولغمة الزنبق والاقحوان
ويقرأ النجوى اذا أومضت ... في الزهر ليلاً او عيون الحسان
ويحمل الحملة فرداً على ... جحافل الظلم ويأبى الهوان
في الكوخ حرٌّ عظمت نفسه ... وفي قصور الملك حرّ اللسان
من يعرف الشاعر في ذله ... مرفوعة هامته ما استكان
من يعرف الشاعر في مجده ... يسحب في ظل المنى الارجوان
احلامه شتى اغانيها ... عزّت على ذي التاج والصولجان
فلمحترم رقدته بعد ما ... فاز فألقى سيفه والسنان

---

(١) من قصيدة للشاعر السوري الاميركي نسيب عريضة القيت في الحفلة التي اقامها ادباء نيويورك وأديباتها لذكرى حافظ وشوقي

موقف الامويين من الدعوة الاسلامية

واسباب منافستهم لبني هاشم

ما برحت السيرة النبوية ميداناً فسيحاً لاقلام الكتّاب والعلماء شرقيين وغربيين يجولون في نواحيه ومرتعاً خصباً للشعراء والادباء يستمدّون منها الوحي والالهام : يزيدها البحث والاستقصاء اشراقاً وسناء ، ويجلوها الدرس والاستقراء ويساعد على استخراج العبر والعظات من ثناياها وعلى استنباط الاحكام والقواعد من تضاعيفها

ويضيق بنا المقام لو حاولنا احصاء ما أُلّف في موضوعها من كتب فأمر ذلك يطول وحسبنا ان نقول انهُ لم تبق لغة من اللغات الحية وخصوصاً اللغات الاوربية المنتشرة الاّ وضعت فيها عشرات المؤلفات ، ولئن تجاوز بعض المؤلفين والباحثين الغربيين في القرون الوسطى حدود الاعتدال والروية في تدوين حوادثها وسرد اخبارها ، فقد انصف متأخروهم المسلمين ونبيّهم فجاءت كتاباتهم يزينها الانصاف وتتجلى فيها روح التجرد والرزانة

ويعثر دارس السيرة النبوية في كتب العرب والافرنج على معلومات مبعثرة في التنافس بين الهاشميين والامويين تميط اللثام عن عوامله واسبابه وتبين البواعث التي بعثت هؤلاء على مقاومة الدعوة الاسلامية وخصوصاً في ابتداء امرها ؛ وهو التنافس التي حفلت بحوادثه واخباره المؤلفات القديمة ، وكان مصدر شقاق ونزاع خلال القرن الاول ونصف القرن الثاني بين المسلمين اي انهُ استمرّ سحابة الحكم الاموي وامتدّ حتى اوائل قيام الدولة العباسية وقد بالغ رجالها في التنكيل بالامويين وانصارهم ، فلجأوا الى المغرب وانشأوا فيهِ دولتهم الكبرى ، ولم تقم لهم قائمة بعد ذلك في الشرق . ولئن نسي المسلمون هذا الخلاف بعد زوال الحكم الاموي وانقضاء عهده ، فلا يزالون يذكرون مصرع الشهيد ابي عبد الله الحسين في كربلاء على يد الامويين وما اقترن بهِ من فجائع وفظائع يتلون تفاصيلها بكرةً وعشيا

لقد كان حبل الودّ والصداقة ممدوداً في الجاهلية وقبل البعثة النبوية بين الهاشميين والامويين تجمعهم جامعة النسب والقربى وتربطهم اواشج المصاهرة وهم ابناء عم لحمًا . فرسول الله يجتمع مع ابي سفيان في الجد الخامس فهو ابن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، أما ابو سفيان زعيم الامويين يومئذٍ فهو ابن حرب بن امية بن عبد شمس بن عبد مناف

وكانت الزعامة السياسية والحربية[1] والتجارية لبني عبد شمس في مكة ابان البعثة النبوية وفي الفترة التي سبقتها — لغناهم ولاتساع نطاق تجارتهم فقضوا على مقاليدها . وكان ابو سفيان يقود القوافل الى الشام والعراق ويضرب اكباد الابل متعمداً ومسوماً وطاوياً ارض الجزيرة طيًّا في طلب الثروة والغنى . وكانت الزعامة الدينية في بني هاشم وهم اصحاب سقاية الحجيج ولم تكن حالتهم المادية على ما يرام حيال أبناء اعمامهم من الامويين التجار . ولم يشذ عن هؤلاء سوى العباس بن عبد المطلب فقد اصاب حظًّا من الثروة والغنى . من اشتغاله بالتجارة وكانت حالة ابي طالب رقيقة يدل على ذلك انه قبل اقتراحاً عرض عليه بان يوزع ابناءه بين آله في احدى سني الجدب للتخفيف عنه فتولى الرسول — بعد زواجه بخديجة وقد حسنت بسببه حالته المادية — امر علي . وكفل العباس جعفر واستبقى ابو طالب عقيلاً لنفسه وكان احبَّ بنيه اليه

وبين الدين اسرفوا في معاداة النبي ومقاومته في ابتداء امره ، ابو جهل واسمه عمرو وكنيته ابو الحكم وهو ابن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤي ، وهو عميد بني مخزوم انداد الامويين في الزعامة والثروة والغنى . وقد امتاز هو وابو سفيان في تدبير المكائد وقيادة الجيوش لمحاربة الاسلام والقضاء عليه ، ولئن هلك الاول مقتولاً بايدي المسلمين يوم بدر فقد اسلم الآخر (ابو سفيان) يوم فتح مكة وشهد حنيناً مع النبي وتم لابنه معاوية امر الخلافة وانشأ الدولة الاموية وقد نسبت الى جده الاكبر

ومما يصحُّ الاستشهاد به على ما بين الامويين والهواشم من صلة قرابة ونسب ما خرَّجهُ البخاري عن ابي سفيان حينما ورد كتاب رسول الله الى قيصر الروم هرقل يدعوهُ الى الاسلام وكان في حمص فقال حين قرأه التمسوا هنا لي احداً من قومه لأسألهم عنهُ . قال ابو سفيان فوجدنا رسولُ قيصر فانطلق بي وباصحابي من تجار قريش حتى قدمنا ايلياء . فأدخلنا عليه فاذا هو جالس في مجلس ملكه وعليه التاج واذا حوله عظماء الروم . فقال لترجمانه سلهم ايهم اقرب نسباً الى هذا الرجل الذي يزعم انه نبي . قال ابو سفيان فقلت انا اقربهم اليه نسباً . قال ما قرابة مابينك وبينه فقلت هو ابن عمي وليس في الركب يومئذ احد من بني عبد مناف غيري الخ[2]

وعلل ابو جهل اسباب مقاومته لدعوة رسول الله تعليلاً عبر فيه احسن تعبير عن حقده على بني هاشم الذين بعث الله منهم رسولاً فقال ، تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف اطعموا فأطعمنا وحملوا فحملنا وأعطوا فأعطينا حتى اذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا منا نبي يأتيه وحي السماء فمتى ندرك مثل هذا ، والله لا نؤمن به ابداً ولا نصدقهُ[3]

---

(١) يؤيد ذلك ما رواه المؤرخون وهو ان حرب والد ابي سفيان قاد قريش في حرب الفجار وقد وقعت قبل البعثة النبوية وتيمم الذي وهو صغير مع اعمامه وكان يناوئهم انيابه (٢) البخاري ج ٢ — ص ١٠٥
(٣) ١٩٣ — ج ١ ابن هشام

فهذا «التصريح» يدل على ما كان هنالك من منافسة بل وحسد وعلى ما كان هذا المخزومي يجدهُ على الهواشم وكيف كان يعد قيام واحد منهم بنشر دعوة لدين جديد مجداً شخصيًّا يضاف لهؤلاء ويحرم هو وقومه منهُ ولذلك اجمعوا امرهم منذ الساعة الاولى على المقاومة وعدم التسامح بوجه من الوجوه ، وقد لا يبعد ان يكون هذا الباعث نفسه ، هو الذي بعث بني هاشم ، ولم يقبل الدعوة منهم في اوائلها سوى عدد قليل جدًّا على تأييد الرسول وشد ازره وتحمل انواع الاذى والاضطهاد في سبيله . ولا يخفى ان اول من اسلم من الهاشميين هو علي بن ابي طالب وقد كان غلاماً يافعاً في كنف محمد . وتلاه اخوه جعفر وكان بين الذين هاجروا الى الحبشة وأسلم حمزة في السنة الثامنة . وأسلم العباس في السنة العاشرة وكان النبي زاحفاً على مكة . وكذلك سفيان بن المغيرة . ومات ابو طالب وابو لهب على دين الجاهلية . وشذ هذا وحده عن آل هاشم فالأ الامويين على ابن اخيه واهله . ومات عام بدر متأثراً من ضربة ضربتهُ بها زوجة العباس اخيهِ في حادث طويل ليس هنا مكان بسطه

ويلوح لنا ان السبب في اغراق ابي جهل في العداء وتماديه فيه هو ملازمته للنبي في مكة لايكاد يفارقهُ ليلاً ولا نهاراً خلال السنوات العشر الاولى ، على الضد من ابي سفيان الذي كان يرحل في تجارته . على انهُ ما لبث ان تفرد بالعمل بعد هلاك ابي جهل فانتهت اليهِ الزعامة العليا في قريش واصبح سيد القوم غير مدافع . والف ابو جهل الوفود وسار على رأسها الى ابي طالب يرجوه باسم قريش بأن يكف لسان ابن اخيه عنهم ويمنعهُ عن الطعن في آلهتهم ومعتقداتهم وهم مستعدون ان ينيلوه جميع ما يرغب او يسأله اياهُ ليقتلوه وقالوا له يا ابا طالب ان ابن اخيك قد سبَّ آلهتنا وعاب ديننا وسفَّه احلامنا وضلَّل آباءنا فاما ان تكفهُ عنا واما ان تخلِّي بيننا وبينه فانك على مثل ما نحن عليهِ فنكفيكهُ فقال لهم ابو طالب قولاً رقيقاً وردهم رداً جميلاً

وكرَّر ابو جهل وابو سفيان قيادة الوفود الى ابي طالب يرجونهُ ان يكف عنهم ابن اخيهِ وكان من عصبيتهِ في حرز حريز . ولما ضاقوا ذرعاً وادركوا انهُ لن يتخلى عنهُ ، وان الاعتداء عليهِ قد يؤدي الى اضرام نار حرب اهلية في مكة لاتبقي ولا تذر وان امرهُ في ازدياد ، قرروا ان يقاطعوا بني هاشم كافة ويحاربوهم حرباً اقتصادية اجتماعية ، وربما كانت قريش اول من لجأ الى هذا الضرب (المقاطعة) من ضروب الحروب الاقتصادية في مقاومة خصومها والاقتصاص منهم لاعادتهم الى رأيها ومعنى ذلك ان المقاطعة عرفت منذ اربعة عشر قرناً ونيف

وعقدت الجمعية العمومية لقريش في الكعبة فدرست قضية بني هاشم وبني عبد المطلب من آل عبد مناف وشدهم ازر محمد فاتفقت الكلمة على ان لا ينكحوا اليهم ولا ينكحوهم ولا يبيعوهم شيئاً ولا يبتاعون منهم شيئاً وكتبوا بذلك صحيفة وقعها الجميع وعلقوها في الكعبة

ورأى بنو هاشم انهم امام حالة جديدة وان مكة اتفقت بجميع هيآتها واحزابها ورجالها

عليهم لحملهم على تسليم رجلهم فجحروا الى المقاومة وابوا الخضوع والتجاوزوا الى ابي طالب فلجأ بهم الى شعبه[1] ابي شعب ابي طالب واقاموا فيه ثلاث سنوات محصورين لا يتصلون بمكة الا في خلال الاشهر الحرم فاذا انتهت رجعوا الى شعبهم وعاد المكيون الى حصارهم على انهم كانوا يتناوبون سراً وقد انضم اليهم في هذه العزلة المسلمون . وفي نهاية السنة الثالثة ظهرت حركة في مكة ترمي الى وضع حدٍّ للمقاطعة قادها زهير بن ابي امية وهاشم بن ربيعة وابو البختري بن هشام والمطعم بن عدي فتم لها نقض قرار الحرمان والغاء المقاطعة رغم مقاومة ابي جهل الشديدة

واشتد ساعد المسلمين بعد الغاء المقاطعة وانصرف النبي الى نشر دعوته بين القبائل فاضطربت قريش وعقدت اجتماعاً في دار الندوة فاقترح ابو جهل[2] اقتراحاً فقال : ارى ان نأخذ من كل قبيلة شاباً فتياً جليداً ، نسيباً ، وسيطاً ، فينا ثم نعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً ثم يعمدوا اليه (محمد) فيضربوه بها ضربة رجل واحد فيقتلوه فنستريح منه فانهم ان فعلوا ذلك تفرّق دمه في القبائل جميعاً فلم يقدر بنو مناف على حرب قومهم جميعاً

واتصل به نبأ هذه المؤامرة فغادر مكة الى المدينة مهاجراً ليكون في مأمن على نفسه ، بعد ان مهد لذلك بمبايعة الاوس والخزرج له وبعد ان امر المسلمين في مكة بالهجرة الى يثرب وهناك اسس دولته الجديدة فقاتلت قريشاً وغلبتها على امرها وانتزعت منها السيادة والمجد

فقد اصطدم المسلمون بقريش في بدر للمرة الاولى فانتصروا عليهم فسهل لهم هذا النصر التغلب على المصاعب العديدة والاستيلاء على جزيرة العرب . وخلاصة ما وقع ان النبي خرج يوم ١٧ رمضان من السنة الثالثة للهجرة يقود جيشاً يتألف من ٢٤٠ من الانصار و٧٠ من المهاجرين ليسطو على قافلة قريش السنوية الكبرى التي تسافر بين الحجاز والشام فنزل بدراً وهي مكان متوسط تمر به القوافل في غدوها ورواحها وتسقى من آباره فلما علم ابو سفيان وكان يقود قافلة قريش بخروج المسلمين للقائه خاف على قافلته وفيها اموال جمة موقرة بالبضائع ويبلغ ثمنها نحو نصف مليون دينار فاستأجر رسولاً ارسل الى مكة لينذر اهلها بالخطر وليدعوهم الى الخروج للدفاع عنها فلبوا النداء وهرعوا للحرب بقيادة ابي جهل وعدتهم الفاً فساروا ونزلوا وراء كثيب العقنقل في العدوة القصوى من بدر . واقاموا هناك ثلاثة ايام ثم جاء الرسول من ابي سفيان وقد نجا بقافلته يقول لهم : انما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم واموالكم وقد نجاها الله فارجعوا . فقال ابو جهل والله لا نرجع حتى نرد بدراً فنقيم عليه ثلاثاً فننحر الجذور ونطعم الطعام ونسقي الخمور وتعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا ابداً فامضوا

وانتشرت في جيش قريش فكرة الرجوع وعدم الاشتباك في حرب مع المسلمين يؤيدها

---

(١) لفظ شعب لا يزال حتى الآن شائعاً في مكة فيقال شعب جياد وغيره والمقصود به معنى الحي تقريباً

(٢) ٢٩٨ ج ١ ابن هشام

حكيم بن حزام وعتبة بن ربيعة والاخنس بن شريق وغيره . وقد عاد هذا فعلاً بقومه من بني زهرة فلم يشهدها احد منهم . وحاول حكيم ابن حزام اقناع ابي جهل بالرجوع فأبى وحرض الناس على القتال فوقعت المعركة ودارت الدائرة على قريش وقتل ابو جهل نفسه قتله شابان من الانصار (معاذ بن عمرو بن الجموح واخوه معوذ) ارشدهما اليه عبد الرحمن بن عوف فضرباه فجرحاه . ودافع عنه ابن عكرمة

ومرَّ عبد الله بن مسعود بابي جهل بعد انتهاء المعركة ، يتلمس القتلى ، فوجده بآخر رمق فعرفه فوضع رجله على عنقه ثم قال له هل اخزاك الله فقال اخبرني لمن الدائرة اليوم

— لله ولرسوله — لقد ارتقيت مرتقىً صعباً يا رويعي الغنم

ثم حزَّ عبد الله رأسه وجاء به الى النبي والقاهُ بين يديه فقال الله الذي لا اله الاَّ هو . وهكذا انتهت حياة هذا الزعيم

***

انتهت الزعامة العليا في الوادي[1] بعد قتل ابي جهل وغيره من كبار الامويين يوم بدر الى ابي سفيان فاخذ يعد العدة للثأر والانتقام فهو الذي دبر حملة احد وقادها كما قاد غزوة الخندق ثم أسلم يوم فتح مكة كما قلنا آنفاً وذلك انه خرج يبحث في اعالي مكة عن خبر النار وقد اوقدها جيش المسلمين حينما وصل ليلاً ، وما كانت قريش تعرف من امره شيئاً ، لان النبي بالغ — حسب عادته — في كتم خبر زحفه على مكة فالتقى ابوسفيان بالعباس عم النبي وقد أسلم هذا قبل ذلك فقال له يا ابا حنظلة هذا رسول الله في الناس واصباح قريش والله . قال فما الحيلة فداك ابي وامي ؟

— والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك فاركب في عجز هذه البغلة حتى آتي بك رسول الله فاستأمنهُ لك

وركب ابو سفيان خلف العباس وكانا كلما مرَّا بنار من نيران المسلمين قالوا هذه بغلة رسول الله حتى مرَّا بنار عمر بن الخطاب فقام عمر حينما رأى ابو سفيان وقال هذا عدو الله ابو سفيان الحمد لله الذي امكن منك بغير عقد ولا عهد ثم خرج يشتد نحو رسول الله وركض العباس البغلة فسبقتهُ فدخل عليه ودخل عمر وراءه . فقال يا رسول الله هذا ابو سفيان قد امكن الله منه بغير عقد ولا عهد فدعني فلأضرب عنقه . فقال العباس اني قد اجرته ثم جلس الى النبي فاخذ برأسه وقال لا يناجيه الليلة دوني رجل . فلما اكثر عمر في شأنه قال العباس : مهلاً يا عمر فوالله انهُ لو كان من رجال عدي بن كعب ما قلت هذا ولكنك قد عرفت انه من بني عبد مناف . واخيراً امر النبي العباس بان يذهب به في رحله ويعود به في الغداة فلما رآه الرسول في الغداة قال ويحك يا أبا سفيان لم يأن لك ان تعلم انهُ لا إله الا الله

— بأبي انت وأمي ما احلمك واكرمك واوصلك والله لقد ظننت انهُ لو كان مع الله آلـه

(١) كانوا يكنون بهذا عن مكة لوقوعها في واد بين شاهقات

غيره لقد اغنى عني شيئاً بعد — ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك ان تعلم اني رسول الله — بأبي انت وامي ما احلمك واكرمك واوصلك . اما هذه والله فان في النفس حتى الآن شيئاً فتدخل هنا العباس وقال له : ويحك اسلم قبل ان تضرب عنقك فسلم . واقترح العباس على النبي ان يجعل لابي سفيان شيئاً يمتاز به عن غيره فاعلن ان من دخل دار أبا سفيان فهو آمن وانطلق هذا الى قومه فصرخ باعلى صوته : يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم في ما لا قبل لكم به فمن دخل دار ابي سفيان فهو آمن. فما سمعت زوجته هند بنت عتبة صياحه قامت اليه فاخذت بشاربه فقالت اقتلوا الحميت الدسم الاحمس قبح من طليعة قوم . فقال لا تغتروا اليها وهكذا كانت نهاية ابي سفيان وعلى هذا المنوال دخل في الاسلام فهل كان مخلصاً في اسلامه ؟

ان هنالك حادثتين حدثتا بعد ذلك تلقيان شيئاً من النور على موقف ابي سفيان

فالحادثة الاولى كانت يوم حنين فقد كمن المشركون للمسلمين فلما وقعوا في الكمين اسخنوا فيهم طعناً وضرباً فتراجعوا وكان ابو سفيان في جيش المسلمين فلما رأى ارتدادهم وتراجعهم في اول المعركة قال « لا تنتهي هزيمتهم دون البحر[1] » فهو بذلك يعرب عن اغتباطه بهزيمة المسلمين ويقول انهم لن يقفوا حتى البحر اي انهم سيجلون عن مكة

واما الحادثة الثانية فكانت يوم وفاة النبي فقد حاول ابو سفيان ان يحدث حدثاً فخطب سهيل بن عمرو وكان من خطباء قريش في مكة فقال «والله اني لأعلم ان هذا الدين سيمتد امتداد الشمس في طلوعها . فلا يغرنكم هذا (واشار الى ابي سفيان) من انفسكم فانه يعلم من هذا الامر ما اعلم ولكنه قد ختم على صدره حسد بني هاشم »[2]

على انه لا بدَّ لنا من الاشارة الى موقف يزيد بن معاوية حينما جيء له برأس الحسين الى دمشق بعد كربلاء وهو ذو صلة بموضوعنا ويدل على ان دخول الامويين في الاسلام وبلوغهم الذروة العليا من السيادة بفضله لم تنسهم قتلاهم ببدر فقد روى الرواة انه لما وضع رأس الشهيد ابي عبدالله الحسين بين يديه في طشت اخذ ينكته بقضيب في يده وينشد — ليت اشياخي ببدر شهدوا الخ

وهناك امر آخر قد يفيد التنبيه عليه وهو انهُ كان بين الامويين من اسلم في ابتداء الدعوة وأدى خدمات جليلة للاسلام وفي مقدمة هؤلاء الخليفة الثالث عثمان بن عفان صهر النبي فقد دخل في الاسلام على يد ابي بكر وكان رابع اربعة دخلوه فأولهم خديجة ثم علي ثم ابو بكر ثم عثمان واسلم معه في يوم واحد سعد بن ابي وقاص وعبد الرحمن بن عوف وبلال

وكذلك فقد دخل في الاسلام حنظلة بن ابي سفيان وهو كبير اخواله واستشهد هذا في صفوف المسلمين يوم احد . وحذيفة بن ربيعة وغيرهم ولعلنا ندرس هذا الموضوع في مقالة اخرى

القاهرة امين سعيد

(١) ابن هشام ٢٩٢ — ج ٢ (٢) نور اليقين ١١٥

القضايا الاجتماعية الكبرى

في العالم العربي

للدكتور عبد الرحمن شهبندر

معرض المذاهب السياسية

﴿ المصلحة الفردية فوق سائر المصالح ﴾ كان الرأي الشائع في القرن التاسع عشر — قبل انتشار الآراء الاشتراكية — عن الحكومة وحق تدخلها في الشؤون العامة رأياً فردياً خلاصته ان كل فرد هو اعرف الناس بمصلحته الخاصة فلو ترك وشأنه في الظروف الملائمة لسعى دائماً للحصول على ما ينفعه ، لذلك لا يجوز للحكومات ان تتدخل في شؤون الناس اكثر مما هو ضروري لدفع الاذى ومنع سوء الاستعمال ، والاّ فان عملها يعرقل سير الناس في طلب المنافع ويقضي عليهم في المسائل التي يجب ان يقضوا هم فيها بأيديهم . ومن العجيب ان تكون هذه النظرية الفردية — لا نظرية «العقد الاجتماعي» ولا «الحقوق الطبيعية» — هي التي انتقلت بانكلترا من الحكم العظامي الى الحكم العصامي . وان (جرمي بنثم) مؤسس نظرية السعادة الفردية وصاحب كتاب (اصول الشرائع) الذي نقله الى العربية المرحوم فتحي زغلول كان الحكيم الذي طبع بطابعه الخاص اصلاح سنة ١٨٣٢ البرلماني وهي سنة وفاته . وبموجب هذا الاصلاح امتدّت حقوق الانتخاب الى الافراد واتسعت اتساعاً كبيراً وازيحت بعض العقبات المهمة التي كانت تعتورها . ونحا هذا النحو الفردي ايضاً الفيلسوف الاقتصادي الكبير (جون ستورت مل) المتوفى سنة ١٨٧٣ والستر (هربرت سبنسر) شيخ الاجتماعيين المتوفى سنة ١٩٠١ وفي وسعنا ان نوجز « الحكمة البنثمية » ورأي البنثميين اجمالاً بما يأتي : وهو ان المعيار المضبوط للحقوق السياسية التي يتمتع بها الناس هو المصلحة وان السعادة العظمى للاكثرية العظمى هي غاية المجتمع وان هناءة الافراد من النساء والرجال الذين يؤلفون المجتمع — لا المجتمع نفسه — هي التي يقام لها وزن في القسطاس السياسي . وكان اصحاب هذه الديمقراطية الفردية ومن لف لفهم من الداعياء التدخل الحكومي حتى ان المستر (هربرت سبنسر) لما نشر كتابه «الاحصاءات الاجتماعية» في سنة ١٨٥٠ ذهب فيه الى ان وظيفة الحكومة تقتصر على حماية حياة الافراد والدفاع عن حريتهم وامرالهم فقط وفيما عدا ذلك يكون عملها تجاوزاً لامسوّغ له ، وعندهُ ان دستور «المساواة في الحرية» هو ان يكون للفرد ملء الحق في ان يتمتع بجميع ملكاته او مواهبه ضمن حدود الحقوق التي لغيره ان يتمتع بها ، وعلى الدولة — بل واجبها

الوحيد — ان تنفذ هذا الدستور فاذا ما تجاوزته الى غيره اصبحت متعدية ولم تعد حامية

وكان هذا الاطلاق للفرد ان يعرف من حلة السعادة والهناءة بقدر كل ما تتسع له معدته سبباً في ازالة الشيء الكثير من العقبات التي كانت تعتور الافراد في سيرهم مما آل في آخر الامر الى ظهور «الرأسمالية» بثوبها القشيب وقتها بحرية مطلقة وسلطان قاهر بحجة الحرية التي يجب ان يتمتع بها اصحاب رؤوس المال في روحاتهم وغدواتهم . واقتضت هذه الحرية في نظر القائلين بها مذهباً معروفاً هو مذهب «ترك الحبل على الغارب» Laissez—Faire يعني عدم تدخل الحكومة في الشؤون على امل ان مصالح الافراد الشخصية وتمتع كل واحد منهم بملكاته ومواهبه في الحدود التي لا تضير غيره تنتهي في آخر الامر الى التسوية العامة بين الجميع . ولو كانت المسألة كما قال (برنارد شو) هي جلوسنا على شاطىء النهر ومرور الماء من تحت ارجلنا يحمل الينا مطالبنا لهان الامر وصح هذا المذهب ولكن المسألة اننا هائمون في مركبة خيلها جامحة لا ندري متى نسقط في الهوة او نصطدم بالصخرة . وكانت الفكرة الاجتماعية السائدة يوم كتب سبنسر «الاحصاءات الاجتماعية» ان الجمعية البشرية كناية عن حيوان كبير ذي وظائف بدنية فسيولوجية متنوعة فالسكك الحديد مثلاً هي اوردته الدموية واسلاك البرق هي الاعصاب وأما الحكومة فهي العضو المدبر للشؤون فلا غرو ان تكون وظيفتها الاولى والكبرى حماية الارواح والدفاع عن الحرية [1]

ومع كل ما في هذا المذهب الاجتماعي الحيوي — البيولوجي — من الحقائق الراهنة وما في الرأي الفردي من الاسس المشجعة فالمجتمع اليوم معتبر وحدة عقلية اجتماعية قائمة على الارتباط الذهني بين الافراد اكثر منهُ وحدة عضوية حيوانية قائمة على الارتباط الفسيولوجي. ولكن من الخطإ الفادح والاستنتاج المغلوط ان يظن احد ان اتصاف المجتمع بهذا الوصف الفكري المعنوي يزيل عن الافراد غرائزهم الحيوانية الاولى فهذه الغرائز البيولوجية هي الاساس والمجتمع الروحي الذهني هو البناء المشمخر القائم عليها ، بل دلتنا الحرب العالمية وما ولدته من فظائع ومجازر ومجاعات وأوصاب والثورات الوطنية التي حضرناها على ان هذا الانسان «الكامل» المربّى في احضان المدنية والمهذب في مدارسها العالية متى تملكته سورة الغضب او شعر بالحاجات الاولى عاد الى اساسه البيولوجي حالاً فظهر بمظهره الحيواني الصريح

وممن نشأوا على النظرية الفردية الاقتصادية والابتعاد عن التدخل جهد الطاقة الرئيس (هوفر) في ايامه هذه فكان مذهبه سبباً في عزلة اميركا واطالة الازمة الاقتصادية الآخذة بخناق الناس الى ان خذل في الانتخابات الاخيرة خذلاناً دلّ على ثورة الناس من سياسته . وارى ان هؤلاء الكتّاب الفرديين قد افرطوا كثيراً عند ذكرهم وجائب الدولة في جعل حماية

(1) Encyclopaedia Britannica, Vol. XI. p. 9.

الارواح والاموال الكل في الكل ، ولئن كنا لا ننكر ان الدنيا تنقلب في يوم واحد رأساً على عقب ويتحول نظامها الى فوضى متى زالت هذه الحماية واصبحت الارواح عرضة للقتل والاموال عرضة للنهب الا ان مثل هذا الاحتمال في ذكرها والاقتصار عليه هو أليق بدولة تتأسس حديثاً في عصر من الاعصر الخالية ، ولعمري ان هذه الحماية هي من البديهيات في نظر الدول الحاضرة والاقتصار على تصنيفها وشرحها هو اغفال لما استجدّ من الواجبات وما يستجدّ ،خذ على ذلك مثلاً حركة الغلاء التي تقيم المجتمع وتقعده في ايامنا . والتي تهدد النظم القديمة من الاساس ، ففي البلدان الصناعية استجد على الدولة واجب خطير يعبر عنه بقولهم «حق العامل ان يعمل» يعني حق العامل النشيط ان يحصل على ما يضمن له العمل اللائق به بحيث يتمكن من المعيشة معيشة شريف . فالمسألة اذاً كما قال[1] (كونرد جل) ليست دفع النفقة والقبول ومنع الموت صبراً عن هؤلاء الناس فقط بل ضمانة حصولهم على مقياس من الحياة يجعل هذه الدنيا محتملة لهم ويخفف من آلامها عنهم ، فشل هذا الواجب المستجد على خطورته لا تشعر به البلدان التي تعيش في اجواء القرون الوسطى ، بل ما احوج هذه البلدان ال من يحفر بالازميل والمطرقة في جماجم حكامها آية تذكرهم بقدسية الحرية الفردية وشأن الحياة المنبسطة ، وما بعد من البديهيات المسلم بها في الاقطار الراقية قد يكون مثار الشبهة والجدل في الاقطار المتأخرة

ولا ادلّ على رفض النظرية الفردية وما تستند اليه من مذهب «ترك الحبل على الغارب» من اجماع الدول الحاضرة — حتى اشدها رأسمالية — على وجوب التدخل في الشؤون حرصاً على المصلحة العامة ومنعاً من سوء الاستعمال . ولعل اثمن تحفة أدبية خلفتها لنا نصوص المشترعين في وجوب التدخل ما جاء في حديث عبد الله بن المبارك « أن قوماً ركبوا سفينة في البحر فاقتسموا ، فصار لكل رجل منهم موضع ، فنقر رجل منهم موضعه بفأس فقالوا له ماتصنع ؟ فقال هو مكاني اصنع فيه ما شئت . فان اخذوا على يديه نجا ونجوا وان تركوه هلك وهلكوا [2] » ونظرة واحدة في منهاج دولة من الدول الكبرى الحاضرة فيها المقنع الصادق على صحة هذا الرأي ، وفيما يأتي خلاصة مقتبسة مع التعديل من البرنامج الحكومي الذي اورده الرئيس « ودرو ولسن » في كتابه « الدولة » المطبوع قبيل الحرب العالمية ، والرئيس كما هو معلوم هو وحكومته من ابعد الناس عن الاشتراكية [3]

(١) حفظ النظام الاجتماعي كما يحفظ الشرطي سير المركبات والسيارات في الشوارع المزدحمة منعاً من الاصطدام ولو كان السواقون من الاخصائيين في مهنتهم والملائكة في اخلاقهم

(٢) وهو ماذكره المستر (هربرت سبنسر) واقتصر عليه — يعني حماية الابدان والاموال

(١) Government and People, p. 229 (٢) البيان والتبيين للجاحظ (٣) The State, p.p. 637-640

من التلف والسرقة ، وربما كانت هذه الوظيفة اهم وظيفة تقوم بها الحكومة لتوقف الحياة الاقتصادية والاجتماعية عليها وارتباطها بها

(٣) الاشراف العام على الاسرة وتعيين العلائق المشروعة بين الزوج والزوجة وبين الآباء والابناء ، لجهل بعض الناس ، والاخطاء التي يرتكبها غيرهم في احكامه ، والشر المستحكم في قلوب الآخرين . والعقائد السخيفة البالية المستحوذة على الجامدين من الافراد خصوصاً من فسّر منهم الاوامر والنواهي بما ينطبق على رغباته وشهواته كل ذلك يقتضي الاّ تتخذ الحياة العائلية ذريعة للاضرار بأي فرد كان والاّ اصيب المجتمع بالكوارث وحلّ به الدمار من جراء الفساد في الاسرة وهي هي الوحدة الاجتماعية القياسية التي تبنى عليها الجمعية البشرية في تدرجها الحاضر

(٤) تنظيم استملاك الاملاك والاموال وتناقلها وتبادلها

(٥) تعيين التبعة الملقاة على العاتق من الديون المستدانة والجنايات المقترفة وهذه الوظيفة نتيجة لاحقة للوظيفة السابقة والاّ جاز للناس ان يستقرضوا الاموال ثم ينكروها وللاشقياء ان يقترفوا الجنايات ثم يفلتوا من تبعتها فيختلّ النظام الاجتماعي من اساسه

(٦) تعيين الحقوق التي تخولها العقود المتفق عليها بين الافراد

(٧) تعريف الجناية وتعيين الجزاء المترتب على اقترافها، ويحسن بنا ان نذكر هنا ان الجرم كان في الاصل مقترفاً بحق الفرد ونازلاً به فكان عليه ان يسويه بنفسه مع المجرم ، ولكن الدولة اصبح من وجائبها اخيراً ان تحمي الفرد، وليس ذلك فقط، بل ان تحمي نفسها ايضاً لذلك كان الجرم معدوداً جرماً بحق المجتمع ونازلاً به. وعلى الحكومة ان تعين الجناية وتضع الجزاء على ارتكابها

(٨) احقاق الحق وازهاق الباطل في القضايا المدنية ، وما دامت الدولة هي القوة الوحيدة التي تستطيع العمل بعيدة عن المصلحة الفردية فهي الحكم الطبيعي الذي يقضي بين المتخاصمين بالعدل والقسطاس المستقيم

(٩) تعيين الواجبات السياسية المترتبة على الوطنيين وتعيين العلاقات القائمة بينهم وتعريف الامتيازات التي يتمتعون بها . وينطوي تأليف الدولة على فكرة حاكم ومحكوم وان كان القسط الذي يناله الفرد في الحكم يتوقف على نوع الدستور الذي تألفت بموجبه الحكومة والطريقة التي سلكتها ، فالفرد في الحبشة مثلاً يختلف جداً الاختلاف عن الفرد في لندن وباريز. وتعني كلمة « السلطان » في البلدان المستقلة ان يد الدولة فوق الايدي وان كلمتها هي العليا وانها بقوة ارادتها تمتلك ناصية السلطة وتحتفظ بها ، وتظهر هذه السلطة للعيان اما بواسطة الملك او مجلس النواب او الدستور ، وبديهي ان ارادة الدولة السلطانية هي التي تدير الشؤون التي تتناولها الواجبات السياسية والامتيازات التي اشرنا اليها . ففي الحكومات النيابية حيث يحكم الناس أنفسهم بنواب ينتخبونهم يكون السلطان في الدستور وهو من صنع الشعب، يعني ان

الشعب يعيّن حقوقهُ السياسية وواجباته والامتيازات التي يتمتع بها بواسطة الدساتير والشرائع التي يسنها وبالسلطة المحترمة التي يتألف منها . ثم ان حق الاقتراع والتوظف وواجب تأدية الضرائب وحمل السلاح للدفاع عن الاوطان ورد عادية الطامعين وتعيين وظائف الضباط وحدودهم السياسية كل ذلك يجب تقريره بواسطة الحكومة بحسب قوانين واضحة تصدرها ونظم معينة تجري عليها . فأين هذا الموقف من تلك البلدان التي حرمت استقلالها فبلغت من الضعف والامتهان ان أصبحت جميع مظاهر سيادتها احجار شطرنج تلعب بها الايدي الغاصبة ، حتى ان دستورها وهو قاعدة عملها الغي الغاء صريحاً بمجرد مادة اضافية واحدة ادخلتها اليد الاجنبية فجعلتهُ هزءًا وسخرية

(١٠) على الدولة ان تعيش وان تحتفظ بعلاقاتها السياسية بالدول الاجنبية ، فكل دولة هي حيال الدول الاخرى وحدة مستقلة ، وعليها ان تحتفظ بهذه الوحدة وهذا الاستقلال ، وكل اتصال بالدول الاخرى يجب ان تكون الدولة واسطة عقده وطريقة تنفيذه ، ومن اعظم وجائبها ان تدفع عن الاهلين ما يداهمهم من الاخطار الخارجية ، وان تنمي جميع مصالحها المتعلقة بالدول الاجنبية ، وأن ترعى حقوقها والامتيازات التي لها وان يكون رعاياها وما يمتلكون في حرز من حمايتها حريز متى تعلق ذلك كله بالشؤون الدولية

ويلحق بهذه الوظائف الضرورية وظائف اخرى اختيارية منها ادارة التجارة والصناعة وتنظيم العمل والاستيلاء على الطرق والمعابر والجسور والسكك الحديدية والبرق والبريد والاشراف على الشؤون الصحية وتعهد التربية والتعليم والعناية بالفقراء والايتام والعجزة وسن القوانين التي تتناول صنع بعض الاطعمة وبيعها واستهلاكها

ولسنا بحاجة بعد سرد هذه الوظائف الى القول ان هنالك ميلاً مضطرداً في الحكومات الحاضرة الى الاضطلاع بالوظائف المتزايدة واستجماع القوى المشتتة مما حمل الكثيرين من اهل البحث على القول ان هذا الميل سيشتد الى ان تقبض الدولة على الاملاك والصنائع والمرافق والاعمال فتتألف حينئذٍ الدولة الاشتراكية باختيار الامة ونزولاً على ارادة الرأي العام فيها . وهذا (برنارد شو) يذهب فيما يذهب اليهِ الى ان العالم يسير في طريق الاشتراكية رغم انفه ويتجلى هذا السير فيما تمتلكه الدولة في ايامنا من المنافع العامة والمرافق المشتركة ، فالطرقات والشوارع والحدائق البلدية والجسور العمومية كل ذلك يستعمله الافراد على الطريقة الاشتراكية الشيوعية . وقد بقي البريد في انكلترا الى اجل قريب ملك الافراد يستثمرونهُ استثماراً خاصًّا الى ان تحوّل فصار ملك الدولة ، ولا يفكر احد في شيء من الضرر في مثل هذا التحول النافع ، وقد تسير البنوك سيرة البريد ايضاً فتصير ملك الدولة ويظن ان تكون حصتها من الربح الذي تأخذه ربًا على الاموال اضعاف ما يربحه الافراد المتعاملون ، ولم لا يوزع اللبن يا ترى

على الناس بالطريقة الاشتراكية كما توزع المياه في المدن بالانابيب على البيوت فيتنعم الاطفال باللبن جوهر غذائهم كما يتنعم الناس بالماء اصل حياتهم ؟ لكن التتبع دل على انهُ ليس من الضروري ان يؤدي تنظيم المنافع المشتركة على هذا النحو الى تأليف الحكومة الاشتراكية الشيوعية فقد قطعت المانيا وايطاليا مثلاً شوطاً بعيداً في هذا المضمار من غير ان تبطلا الرأسمالية او أن تتشيعا على الطريقة الروسية

ويظهر من قائمة هذه الوظائف الاختيارية المتنوعة ان ليس ثمة طريقة يعتمد عليها في بيان ما يجب ان يضطلع به الفرد وما يجب ان تضطلع به الحكومة ، ويجوز ان يكون القول الفصل في ذلك للرأي العام متى كان ناضجاً ومنظماً تنظيماً صحيحاً صالحاً للتعبير عن ارادة الشعب وحينئذٍ تعمل الحكومة بارشاده وتحت اشرافه وتفوذه كل ما من شأنه ان يؤدي الى السعادة والهناءة ولو اقتضى ذلك زيادة تدخلها . وقد افضنا في ذكر وجائب الدولة لتوجهُ انظار القارىء الى مجال الحكومات الحاضرة المتسع في العالم الغربي ولكننا لم نقصد بوجه من الوجوه ان نسمح لمثل هذا المجال ان يتعدى الى الحرية الفردية للقنسة فهذه الحرية هي الغاية العظمى لكل حكومة صالحة والهدف الاسمى لكل تشريع كريم وتضييقها الى حد بعيد هو العيب الاكبر الملتصق بالحكومات الدكتاتورية الشديدة الوطأة ، ولولا الحرية ما ارتقى البشر الى مستواه ولا حلقت العقول فيما لها من سماء صافية ولا كانت فنون ولا حكمة ولا دين ، وليس من مصلحة البشر في شيء ان تكم افواه النقاد وان كانت في مصلحتهم ان يلجم السفهاء . ولا يرتقي المجتمع متى كانت افكار النبغاء عرضة في كل جولة من جولاتها للاصطدام بالقانون ، ولا هون على الحوت أن يعيش في ساقية من الماء الضحضاح من ان يعيش الرجل الكبير في نظام ضيق ، فعلى المشترعين عند سنهم الدساتير ان يضعوا نصب عيونهم ان القانون انما جعل لمنع الانحراف المرضي من جهة ولتشجيع السير الصحي من جهة اخرى ، وقد ادى العالم ثمناً باهظاً جداً على تلك الجرائم التي اجترحها « ديوان التفتيش » في القرون الوسطى في اوربا بقتله الالوف من النوابغ الى أن تغلبت الحرية فساز اهل المزايا بالبيئة التي تسمح بظهور خصائصهم وساد الازدهار بعد المحل ، ويجوز لنا ان نقول أن كل امة ضربت على عقول أبنائها نطاقاً ثابتاً يحول دول ظهور مواهبهم هي امة سائرة الى الزوال (قال جون لوك) :

« ليست الشريعة بالمعنى الصحيح التضييق على الرجل الحر العامل بقدر ما هي تدريبه وترويضه للوصول الى مصالحه القانونية ، وهي لا تأمر باكثر مما يعود بالنفع على العائشين بكنفها فلو كان في مقدورهم ان يكونوا بفقدها اكثر سعادة منهم بوجودها لتلاشت حيثئذٍ من نفسها باعتبارها فضلة زائدة لا فائدة منها . . . . لذلك مهما اسيء فهم الغاية من الشريعة فهذه الغاية لن تكون لسحق الحرية وخنقها بل للاحتفاظ بها واطلاقها »[1]

(1) John Locke Second Essay on Civil Government

باب الزراعة والاقتصاد

الجراد

بحث علمي لغوي عملي للدكتور هلال فارحي

الجراد احد اقسام الحيوانات المفصلية الاربع ومن أكلة الخضروات . ومن فصيلة الحشرات المستقيمة الاجنحة الناقصة التطور Amotabola . وينقسم الجراد الى قسم الجنادب من الحشرات التي تتألف من ثلاث فصائل (١) الرواكض Cursoria (٢) المشاة Gressoria (٣) الوثابة Saltatoria . ثم الفصيلة الثالثة تنقسم الى ثلاث عائلات والى احداها ينتسب الجراد وهي (١) الخرجل وانواعه Locustodae (٢) الصرصار Grillidae (٣) الجراد وانواعه Acrididae . ويتركب جسم الجراد كبقية الحشرات من ثلاثة اجزاء الرأس . الصدر او الظهر . والبطن . وهذه مؤلفة من ١٦ حلقة . ثلاث في الرأس متصلة بعضها ببعض وثلاث في الصدر والظهر وعشر في البطن

يحيط جسم الجراد طبقة سميكة مكونة من الشيتين وهي مادة صلبة تفرز من الطبقة الاديمية بمثابة القرون والاظافر والاغلاف غير انها لا تذوب في الاحماض والقلويات . وهذا الشيتين يكون صفائح وهيكلاً يقيها من الارض وتسمى الصفائح التي في اعلى الجسم الترجا . والمحيطة أسفله الاستره وهاتان الصفحتان تتصل احداها بالاخرى بصفيحة رقيقة تسمى البلورا . فجسمها تحفظ وتثبت اعضاءها الباطنية في مواضعها . وكل جسم الجراد مغطى بشعر دقيق جداً ما عدا القرون والاجنحة

يعيش الجراد على الارض ويتنفس بأنابيب تسمى بالقصبات الهوائية تمتد طولاً وعرضاً وتحمل الهواء الى جميع فراغ الجسم ذات لون فضي لامع لامتلائها بالهواء مركبة من خيوط شيتية دقيقة حلقية ملتفة على جدارها فتبقى مفتوحة على الدوام . تفتح هذه الانابيب الى الخارج بواسطة فتحات على الجانبين تسمى بالفوهات التنفسية او الثغور وعددها عشرة ازواج الزوج الاول بين قطعتي الصدر الاولى والثانية . والثاني بين الثانية والثالثة والباقية على اجناب

الحلقات الثمان الاولى للبطن وتوجد على حوافي (جمع حافة) هذه القومات شعور دقيقة تمنع دخول الاتربة والاقذار لفتحات الحوالية

من اهم انواع الجراد الرحال له صفة خاصة تجمعهُ في اسراب ومهاجرته من جهة الى اخرى طلباً للغذاء فيفتك بالبلاد التي يمر بها وهو في طور الحوريات قبل البلوغ وبعد ما يبلغ ويكمل نموه يأكل مزروعاتها ويتحطها ويتركها جرداء خالية من النبات وهو من الحيوان الذي ينقاد لرئيسهِ فيجتمع كالعسكر اذا قلعن اوله تتابع جميعهُ ظاعناً . واذا نزل اوله نزل جميعه

(١) الرأس

﴿الرأس﴾ الجزء الامامي من الجسم يشمل المخ مركز الحس وفيه قرنا الاستشعار والعيون وفم قارض تمييزاً عن اللاعق . وهو قصير وصغير بالنسبة للجسم ؛ صلب مستطيل الشكل . قمته Vertex واسعة مقعرة في الوسط كالسرج مرتفعة قليلاً في الاجناب . وتتصل بقسمه البارز بزاوية مستديرة . في مقدمته قرنان للاستشعار antennae من النوع الحريري الخيطي يتركب كل منهما من اربع عشرة قطعة منفصلة بعضها عن بعض مخروطية الشكل . تمتد مع اتجاهها الى الطرف . طولها اقصر من الجسم . جبهتهُ عمودية فيها قسم كبير Costa frontalis مرتفع وواسع يمتاز على طول الجزء الاعلى من هذا القسم مقعر وفي وسطهِ العين الوسطى احدى العيون البسيطة التي له

﴿العيون﴾ للجراد خمس عيون اثنتان مركبة في كل جنب وراء قرون الاستشعار كلوبتا الشكل بارزتان جداً كعيون الجرذون ويمكن تحقيق شبكة صفحاتها Facettes المؤلفة من ستة اضلاع بواسطة عدسة مكبرة عشر مرات وتحتاج الى مكبرة اقوى لتحقيق اضلاع صفحاتها

واما العيون البسيطة Ocelus فثلاث . واحدة في وسط الجزء الاعلى من ارتفاع الجبهة وواحدة في كل جنب امام ذيول العيون المركبة الاصلية الامامية فوق وضع القرون . هذه العيون عبارة عن عدسات بسيطة شكل نقط تبرق كنقطة ماء صغيرة

ينزل من وسط الحافة الامامية للعيون الاصلية الى جانبي قسم الجبهة المرتفع حد Carina lateralis الى ترس الرأس Clypeus ينفصل الجبهة عن الاحناك genae . هذا الترس ينفصل عن الجبهة بواسطة خطّ عرضي عميق . كما ان قسم الجبهة الكبير مرتفع في اجنابه قليلاً كحدود فاصلة فهذه مع الحزوز الفاصلة للاحناك تكوّن تجويفاً فيهِ ترقد قرون الجنين وهو داخل البيضة

﴿الفم﴾ فتحة الفم في جنب البطن مفتوحة جداً مغطاة من امام بالشفة العليا محاطة من جانبيها ومن تحت بثلاثة ازواج آلات قارضة للاكل

﴿الزوج الاول﴾ من آلات القرض فوق الزوجين الآخرين من كالمنشار (المشرشر) معمول من مادة قرنية صلبة كالمولاذ خال من نتوات في الاجناب ويتصل باطراف الفكين مع القم mandibulae يتحركان احدهما مقابل الآخر تحركاً جانبياً كدراعي كماشة تقاطع جنبها الخارجي عرضاً سبعة حزوز مجوفة بين ثمانية نتوات منفصلة عن بعض ينتهي كل منها بسن حاد صالح للعض والقضم حتى لكسر مواد صلبة كالفول ايضاً ومن السن الخامس فما فوق يوجد صفاً اسنان ثانٍ موازٍ للاول الخارجي ومتجهاً للداخل وعلى سطح التاج الواسع الممتد بينهما تجد نتوات وارتفاعات تشبه الموجودة في تيجان اسنان الحيوانات المجترة كالبقر وهذه ضرورية للجراد لتسحق غذاءه النباتي بين التيجان . اما اسنان هذا الزوج المنشارية فلا تشبه بعضها بعضاً لونها اسمر كما لو كانت محروقة بالنار

﴿الزوج الثاني﴾ من آلات القرض والاكل هو الفك الاسفل الفقم Maxilla هذا مؤلف من اربعة اجزاء . المحور الكاردو Cardo عليه يدور الفك من جانب الحلق تحت الزوج الاول وخلفه قليلاً (٢) الساق ام القصبة Stipes يتصل بالمحور بزاوية قائمة . يتحركان جانبياً كالزوج الاول (٣) الفص الداخلي Lobus internus (٤) الفص الخارجي L. Externus فوق الداخلي كالقبعة وينتهي هذا الزوج بثلاثة اسنان غامقة اللون تساعد على القضم ومضغ الغذاء من النباتات وهو المشرشر وتوجد في الجانب الوحشي من كل فك الزائدة الفكية Palpus maxillaris تستعمل كعضو لمس مؤلفة من خمس قطع كل قطعة تزداد في الطول لغاية طرفها الاخير . وبين هذه والمشرشر القلنسوة . مؤلفة من قطعة واحدة موازية للزائدة الفكية واقصر منها

﴿الزوج الثالث﴾ مؤلف من الشفة العليا Labium وهي عبارة عن قطعة صفيحية عريضة صلبة متصلة باسفل الرأس بذيل الترس الامامي وتغطي الفم . والشفة السفلى كالعليا في أسفل الفم تقفل الفم من تحت ومن خلف فتحفظ الطعام من السقوط وتساعد في تناوله مشقوقة في وسط حافتها السفلى وفي جانبيها الزائدة الشفوية Palpum labiales تتألف كل منهما من ثلاث قطع غير متساوية بالطول . وكل من هاتين الشفتين مركبة من قطعتين متشابهتين موضوعتين جنباً لجنب تتحركان تحركاً جانبياً

﴿اللسان﴾ Ligula طوله ١½–٢ ملمترات مخروطي الشكل رأسه مستدير غير حاد واسع شكل الجزء الاعلى من منقار الطير ومجوف من تحت كالملعقة يمتد الى كل تجويف الفم ما عدا السقف فلونه اسمر

﴿المريء﴾ Oesophagus طوله ٣ ملمترات طول المعدة ٢٠ ملمتراً لونها اسمر Stomadeum ٢ ملمترات في باطنه شيات تمتد طولاً وعرضاً وفيها نتوات تساعد في سحق الغذاء . وتوجد عضلات عرضية مستديرة تبعد احداها عن الاخرى ٤ ملمترات . تضغط الطيات (مقابل بعض) لاجل طحن الاكل قبل دخوله الامعاء Proctadeum طول الامعاء نحو ٤٠ ملمتراً

محل اتصال المعدة بالامعاء محاط بنتو يبرز من ٦ امعاء مسدودة مختلفة في الطول متوسطها ٩ ملمترات والامعاء ملتوية كالثعبان

(٢) الصدر

﴿الصدر﴾ Thorax القسم من الجسم الذي يلي الرأس يتركب من ثلاث قطع Segments متوالية (١) الاول تسمى بالقطعة الصدرية الامامية Prothorax تشمل قسم الظهر الاول Pronotum وقسم الصدر الاول Prosthorax (٢) الثانية المتوسطة mesothorax تشمل قسم الظهر الثاني Mesonotum وقسم الصدر الثاني Mesosternum (٣) الثالثة تشمل قسم الظهر الثالث Metanotum وقسم الصدر الثالث metasternum يختلف حجم هذه القطع تبعاً لنمو الاجنحة وغيرها من اعضاء الحركة . ثلثه الاول مقعر شكل سرج تقاطعه ثلاثة حزوز الى جانبه ثلثاه الخلفيان يرتفعان ويبرزان كحجر مروّس ومستدير قليلاً في الاطراف الخلفية فوق جزء الظهر الثاني ، ويغطيان قاعدة زوج الاجنحة الغشائية . ويبرز نتو عمودي على طول جزء الظهر الاول تقاطعه الحزوز العرضية الثلاثة في ثلاثة محال . حافة هذا القسم مرتفعة قليلاً بشكل ثنية

جزء الصدر الاول ضيق جداً ويصغر بين الرأس والجزء الثاني الغليظ والمنتفخ فيه حرقفتا زوج الارجل الامامية Coxae بينهما تبرز زائدة اسطوانية طولها من ٣ — ٥ ملمترات Processus cylindricus وفي وسط جداره توجد أول فوهة للتنفس ذات اطراف دائمة تفتح وتقفل فيواسطتها يمكن الجراد ان يضبط سرعة تنفسه غير انها مغطاة بخصوص قسم الظهر الاول الواسعة ويلزم قطعها لفحص الفوهة المذكورة جيداً

في قسم الظهر الثاني يوجد زوج الاجنحة الغشائية على جانبي سطحها . جزء الصدر الثاني يغطي القسم الاوسط من الجزء الثالث بواسطة فصي اجنابه المربعة وحوافيه المستقيمة وفي جدران اجنابه Pleurae تجد حزين مائلين وفي آخر الثاني منهما بين قسمي الصدر الثاني والثالث فوهة التنفس ويمكن مشاهدة حركة هذه الحوافي اثناء التنفس بالعين المجردة في هذا الجزء يتصل مفصل خلف زوج الرجلين الثاني

قسم الظهر الثالث داخل بفصيه بين فصي القسم الثاني فيه ثقبان صغيران وعليه وضع زوج الاجنحة الثاني الكبير جدرانه مجعدة ومثنية وخالية من فوهات التنفس يتصل مع هذا القسم زوج الرجلين الثالث الوثب وبين فصيه الجانبيين يدخل فص اول حلقة من البطن وهذه الحلقة تشترك مع ثلاثة اقسام الصدر والظهر لتكوين التفص المتين

(٣) البطن Abdomen

﴿البطن﴾ المنطقة التي تلي الصدر ويتصل به مباشرة ويتألف من تسع حلقات وحلقة العجز الاخير المركب من ثلاثة اقسام الدبر وازواد الجنب Cerci . الحلقة الاولى

Segmentum medianum مشتبكة بالتقعر . صفيحتها العليا أي الترجا شبتية . جانباها ضيقان بسبب قسم الصدر الثالث المفتوح جيداً ، فيهما فوهتان كبيرتان للتنفس مفتوحتان جيداً وبالقرب من حافة كل فوهة امامية توجد الاذن وهي عبارة عن تجويف بسيط شكل قمع في اسفله غشاء براق شبيه بجلد الطبلة بين نتوءين قرنيين بارزين من القسم الداخلي للغشاء . تحت الطبلة يوجد كيس صغير مزخرف جداً يملؤه سائل وهو لمدى الاصوات . يتصل باسفل الطبلة عصب السمع المتفرع من الدرب الثالث الصديدي (عقدة عصبية) ويكوّن ذرياً جديداً ثم هذا يتفرع وينتهي بمخروط عصبية دقيقة جداً وقيل ان في نوع الجراد ذي القرون الطويلة توجد الاذان على الساق الامامي شكل شق ضيق مستطيل . وتلتصق السفيحة السفلى الاسترنا بجزء الصدر الثالث وتشترك معه بتكوين القفص (الصدر)

الحلقات الست من الثانية الى السابعة لها شكل واحد وترتيب واحد ويوجد في الحافة الامامية من كل منها نتوء كجناح يعلو فوق الحلقة السابقة كزرد الدروع فيثبتها ويسهل حركة البطن ، وكما سبق تتصل الترجا مع الاسترنا بجلدة رقيقة البلورا هذه مثنية تسهل امتداد البطن والالتواء والحركة

وفي كل جنب من الترجا قرب الحافة السفلى توجد فوهة مدورة للتنفس يمتد منها انبوب الى جهة الرأس مائلاً . وهذا الانبوب يتفرع الى انابيب دقيقة صغيرة ايضاً شكل شبكة

الحلقة الثامنة توجد في جنبها ايضاً فوهة التنفس الاخيرة واكبرها . يختلف شكل هذه الحلقة بحسب جنس الجراد . ففي الذكور هي كالحلقات السابقة تماماً وفي الاناث نصفها الاسفل يمتد كسند Lamina Subgenitalis الذي يتصل به الذراعان الاسفليان لقناة المبيض وعند قاعدة هذين الذراعين بيت الرحم Vulva وأما قناة التلقيح لقبول المني Sperm تفتح الى ثقب غير القناة التي تخرج منها البيض (آلة وضع البيض) فان الاول كما سبق عند قاعدة ذراعي قناة المبيض الاسفليين Vagina inferior ويرى عند فتح الذراعين احدهما عن الآخر في الحلقة الثامنة ، والثاني هو الكلابي الشكل الداخلي الاعلى Vagina Superior interna الملازم للحلقة التاسعة والمتصل بين رؤوس ذراعي قناة المبيض الاسفليين . وكل منهما ينفتح امام الفتحة الشرجية

الحلقة التاسعة هي الوحيدة الخالية من فوهة التنفس . وفي الذكور تتصل بها قناة رفيعة تسمى بالوعاء الناقل الوعاءان الناقلان يكوّنان قناة واحدة تسمى بالقاذفة وهذه تنفتح الى الخارج داخل العضو المسمى بالقضيب Lamina Subgenitalis (آلة الدفاد)

الحلقة العاشرة الاخيرة وهي الاست وشكلها متساوٍ في الجنسين . فم الخاتم مقفل من ثلاثة اجنابه بزردة الاست Lamina Supra analis من فوق وشبه وسادتين ليتين في الجنبين

اعضاء الحركة والطيران

﴿ الاجنحة ﴾ للجراد زوجان من الاجنحة المستقيمة شبيهة رقيعة عريضة كالورق تركب من طبقتين بينهما عروق ظاهرة عبارة عن انابيب وقصبات هوائية يحيط بها السائل الدموي

ازوج الاول الامامي مستطيل ضيق يقال له الغشائي عليه بقع غامقة سوداء فيها العروق الآتية: (العرق في الاجنحة اسم عام للاعصاب والاوردة والاضلاع والانابيب) تتخللها ستة اسطحة وهي:

(١) وريد الحافة الامامية Vena mediastina (٢) وريد الحافة الخلفية V. Plecata

(٣) الوريد الثلاثي V. radialis = V. radialis anter الامامي المتوسط V. radialis media

(٤) الوريد الثنائي V. ulnaris = V. radialis posterior الخلفي V. ulnar-anterior الامامي V. ulnar-posterior الخلفي (٥) الوريد المنفرد V. dividens

السطوح بين العروق :

(١) الامامي بين الحافة الامامية وعرقها	area mediastina
(٢) بين عرق الحافة الامامية وبين الفرع الامامي من الثلاثي	a. scapularis
(٣) بين الفرع الامامي والمتوسط	a. externo-media
(٤) بين الفرع الاخير وبين العرق الثنائي	a. discoidalis
(٥) بين فرعي الثنائي	a. interulnaris
(٦) بين الحافة الخلفية وعرقها	a. axillaris

زوج الاجنحة الخلفي اكبر من الاول وهو للطيران ، شفاف فيه العكاسات وردية او صفراء وفيه الاربعة العروق الرئيسية الموجودة في الزوج الاول غير انها ليست متشعبة كثيراً كما في الاول ثم من مركز اتصال هذا الجناح بالجسم تمتد عروق طويلة مستقيمة متوازية الى اطرافه بدون تشعب

الجناحان الاولان لتغطية الزوج الخلفي ويساعدان على الطيران ايضاً واذا ازيلا لا يمكن ان يطير الجراد سوى جزء من الخمس من المسافة التي يطيرها بالزوجين معاً

اعضاء الغناء وتوليد الصوت في الجراد ضعيفة جداً ولا توجد سوى في الذكور فقط. يحدث الصوت من احتكاك الجزء الاعلى من فخذي الزوج الخلفي كقوس الكمنجة مع الوريد الثلاثي الغليظ من زوج الاجنحة الغشائية كوتر الكمنجة الثابت . ولا يسمع صوته بعيداً كصرصير الغيط . وذكر الجراد ينادي عشيقته ويسحر قلبها ويجذبها للسفاد كالبلبل الذي يغرد على اغصان الاشجار لاجل حبيبته

﴿ الارجل ﴾ للجراد كما سبق ثلاثة ازواج من الارجل المفصلية للسلك والمشي والوثب تتصل بالجسم بواسطة الحرقفة مباشرة . ساق كل من الرجلين الاماميتين والمتوسطة

مسلح في جنبه الخلفي بصفين من اسنان كالمنشار كما في الزوج الخلفي يشعر بها بمجرد اللمس . وبواسطة عدسة مكبرة يمكن رؤيتها مسطحة مائلة الى الوراء . اما عدد الاسنان فيها فيختلف ولكنه اكثر دائماً في الجنب الداخلي. ويتراوح ما بين ٨ — ١١ في الداخلي و ٩ — ١٠ في الخارجي

عند آخر الساق من الزوج الخلفي توجد ٤ اسنان طويلة مفصلية سهلة الحركة تتصل بكف الرجل اي الرسغ . هذا يتركب من ثلاث قطع اولها مؤلفة من اجتماع ثلاثة مفاصل ايضاً فوق ثلاث وسادات . وتنتهي القطعة الاخيرة من الرسغ بالمخلب وهو عبارة عن ظفرين حادين منحنيين بينهما فص مستدير Arolium pulvillus

يوجد عند الربع الاول من جهة الفخذ الداخلية ثرٌّ صغير جداً في وسطه وسادة لينة داخلها حلمة تساعد الساق للوثب بأكثر قوة وفي جنب الفخذ الاسفل يوجد شكل ميزاب مكشوف لتبول الساق وسطه عند ما الرسغ يدخل ايضاً بين صفي اسنان الساق عند ثنيها وهكذا تتداخل الاجزاء بعضها في بعض في بقية الارجل عند ما يقتضي الامر ذلك

كيفية تناسله

روى اهارون استاذ علم الحيوان في جامعة القدس مشاهداته العيانية عن كيفية تناسل الجراد عندما حلّ في مستعمرة رحوبوت محل اقامته (ومنهُ اقتبست بعض معلوماتي) فقال في ثالث يوم من حلوله في الغيطان وبعد اكل المزروعات الخضراء الطرية كالبطاطس والطماطم والسلق وما اشبه بشراهة قوية وقحطها ولم يبق منها ولا عوداً واحداً . كانت الارض صباحاً مغطاة بازواج من ذكر وانثى بعضها فوق بعض ولم يمكن ان ترى انثى واحدة خالية لم يعلُ عليها ذكر وكانت عشرات من الذكور طائرة ترفرف هنا وهناك تفتش عن انثى خالية عازبة فتعلو عليها . وكان يوجد بقرب كل انثى وزوجها فوقها لا اقل من ذكرين او ثلاثة عزاب ينتظرون بفروغ صبر نزول الذكر عن عشيقته وخلوها فيغتنمون الفرصة ليعلو احدهم عليها بدوره ويشق غليله ولحفظ الجنس وكانوا يظهرون تشوقهم باصوات الغناء التي كانوا يحدثونها ويطربون بها عشيقاتهم بواسطة احتكاك اجنحة الغناء بالخاذهم الخلفية . وكانت الاصوات واطية وليست بايقاع لكثرة عدد الذكور

وكان الذكر السافد يتمسك بزوجته بالفاقيره الحادة فلا يمكنها ان تتخلص منهُ وكانت تحمله على ظهرها اينما ذهبت على الاشجار لتبيت وكانت تتقلب وتتدحرج على الارض معاً عند ما يضطهدها العدو حتى ولو امسكت ولا يتخلى عنها الا عند اتمام السفاد لكي ينجو بنفسه اذ يعلو عليها ذكر عازب آخر كان ينتظر بفروغ صبر . ومن شدة شراهتهم للسفاد قد شوهدت الذكور تعلو على اناث مقطوعة الرأس ولم يشاهد في الجراد ذكر يعلو على ذكر كما في الذباب البيتي . وتموت الذكور بعد السفاد كما في اكثر الحشرات فكأن الزواج يقصر حياة الحشرات ولكن الذكور في الجراد اكثر من الاناث فكثير منهم لا يحظى بالزواج فيعيش العازب اطول من المتزوج

باب شؤون المرأة
وتدبير المنزل

الصحة الجنسية والنشء

بقلم الدكتور محمد زكي شافعي
السكرتير الفني لمصلحة الصحة السومية

يستطلع كثيرون من الوالدين المستنيرين رأي المقتطف في هل تقضي الضرورة بتلقين الابناء في الصغر بعض مبادىء الصحة الجنسية واذا كان الردُّ بالايجاب فالى اي مدى وبأية وسيلة يمكن تفهيم الصغير المسائل الجنسية ومن الذي يقوم بهذا الامر ؟ فتفضل حضرة محرر المقتطف الفاضل وأحال عليَّ بحث هذا الموضوع الدقيق وابداء الرأي فيه بما يروي غلة السائلين لا سيما وانني طبيب ووالد فنزولاً على ارادته ورغبة قراء المقتطف سأبحث هذا الموضوع من وجهتيه الفنية والاجتماعية في عدة مقالات لما له من المكانة الحيوية في التعليم والتربية

اصبحنا الآن والاطباء ليس جلُّ همهم التفرقة بين الامراض وابراء المرضى فقط . بل غايتهم التقصي لاجتثاث اسباب الامراض ووقاية السليم من المريض . ومن هنا نشأ الطب الوقائي الذي لا يقتصر مداه على الامراض المعدية والوبائية فحسب بل غايته الوقاية من كل الامراض معدية كانت او غير معدية باطنية او جراحية عقلية او اجتماعية ولذلك تفرع منه طب النساء الوقائي والجراحة الوقائية وطب الاسنان الوقائي وطب العقل الوقائي وهلمَّ جرًّا

فمن هذا يرى ان الطب الوقائي نما نموًّا عظيماً واصبح وثيق العلاقة بعلم وظائف الاعضاء التطبيقي لانه اصبح من اهم دعائمه رفع كفاية اجهزة الجسم المختلفة مع مراعاة الاحوال الشخصية من بيئة ووراثة وغيرها . ولذلك كان وقوف الجمهور والاحداث بصفة خاصة على وظائف اجهزة جسمهم ومبادىء الطب الوقائي هو من اهم الاسلحة التي تقاوم بها الامراض لان الطب وان كان قد قطع شوطاً بعيداً في طريق التقدم والارتقاء لم يتمكن من التغلب على كافة الامراض . فنحن في اشد الحاجة الى التدريب على الحياة الصحية . وموت الناس من الجهل اكثر من موتهم من المرض . ولا ادل على ذلك من انه يولد سنويًّا ثمانون في المائة

من الاطفال اصحاء فلا يصل الى سن الشباب الا العدد القليل وهم متمتعون بالصحة الكاملة. ولهذا وجهت في كل البقاع والامصار العناية الى الصحة العامة وأصبحت تدرس في كل المدارس على السواء. غير ان الصحة الجنسية لحداثة العهد بتوجيه النظر اليها لم تعط العناية الكافية. فاذا نرى الوالدين والمعلمين يعنون كل العناية بصحة الاطفال الشخصية نراهم يحجمون عن كل ما له مساس بالجنس ولا يلقنون اولادهم عنه لا الكثير ولا القليل وخصوصاً الفتيات واذا عرف الاحداث شيئاً فعن طريق من هم اجهل منهم . وما يحصلون عليه يكون عادة خاطئاً ومضراً مع ان صحة الجنس ليست الا فرعاً من فروع الطب الوقائي . وقد اصبح يدرس الآن في معاهد خاصة في بعض البلدان وأساسهُ العمل على نجاح الزواج ودرء كل اسباب الفشل عنه سواء من الوجهتين النفسية او العلمية الوقائية والتشجيع عليه وتحسين النسل. وقد درس باحث من الاطباء باميركا حالة ألف سيدة متزوجة للاغراض المتقدمة واغلبهن كن من الطبقة المتوسطة وقد جمع هذه المعلومات بواسطة اطبائهن المخصوصين وكانت نتيجة الابحاث ان نصف هذا العدد قصدن الى الاطباء للعقم والربع لاورام في الحرض والمهابل والباقيات لاسباب اخرى ظن انها ذات علاقة بالحوض. وقد لوحظ ان نصف هؤلاء السيدات يشكون بعض الاضطراب الحيضي وكان الاضطراب عادة خفيفاً كما ان صحة ٥٦ في المائة منهن جيدة او تظهر عليهن علائل الصحة و٢٧ في المائة صحتهن دون المتوسط ويشكون من اضطرابات عصبية و١٧ في المائة صحتهن متأخرة وفريق منهن مصاب ببعض امراض العقل او الاعصاب. ووجد ان في كل ١٢ سيدة منهن واحدة مصابة بمرض زهري وان كانت هذه الاحصاءات لا تنطبق على الحالة في جميع البلدان ولكنها تنطبق بخطورة الحالة التي قد تكون سبباً لانهيار صرح هناءة الاسرة وهذا ما يجب ان يتلافى بالتعليم الصحيح

وقد تغيَّر فهمنا الآن للمسائل الجنسية تغيراً كلياً في العشرين السنة الاخيرة واصبحت النظريات الحديثة تخطىء القول بان الشعور الجنسي لا يبدأ الا عند سن البلوغ وقد ارجعها فرويد الى سن الطفولة اذ تكون خامدة او كامنة حتى تنمو فسيولوجياً وسيكلوجياً في سن البلوغ. وقد صار لهذه النظريات أثر بليغ في الصحة الجنسية وامكن بواسطتها تفهم اسباب بعض الامراض العقلية والنفسية بل والشذوذ الجنسي. فلو كان الوالدون والمدرسون والاطباء مقتنعين بضرورة تعليم الابناء صحة الجنس لما وقعوا فريسة هذه الامراض وغيرها ولما تعرض الكثيرون للفشل في حياتهم العملية والزوجية

لكن لعادات الموروثة ما قد يعرقل فكرة تلقين الاولاد صحة الجنس فما هي الوسائل التي نتغلب بها على هذه العوائق ؟ وفي أية سن يعطون ؟ ومن الذي يتولى امر هذا التعليم ؟ وما هي المواد التي تعلم ؟ هذا ما سأحاول الاجابة عليه من المقالة التالية

الادب التركي الحديث (١)

خالدة اديب خانم

ننتقل الآن الى الكلام عن السيدة خالدة اديب خانم الشاعرة التركية الحلوة الاغاريد الرقيقة النغم التي رفعت من شأن المرأة التركية وكانت مثلاً عالياً لتطور المرأة المسلمة واتساع معارفها

ولعلَّ الظاهرة غير العادية التي تسترعي النظر بصفة خاصة في حياة السيدة خالدة اديب خانم انها لم تتقف على الطريقة التي جرى عليها الاتراك في الزمن القديم . فان هذه الطريقة القديمة وان كنا نجلها ونعترف لها بنتائج باهرة لأنها اخرجت عالمة تركية كبيرة مثل فاطمة خانم التي اشتهرت بسعة علومها في الفقه والتشريع غير انها ابقت على أسار المرأة التركية من الوجهة الذهنية والخلقية . اما السيدة خالدة أديب فنستطيع ان نقول انها تلقّت تهذيباً حرًّا وعاشت في بيئة حرة ، او بعبارة ادق لا تدين بغير حرية التفكر وحرية النظام فقد ولدت من والدين متوسطي الحال وكان والدها سكرتيراً في دائرة الخزينة السلطانية الخاصة وكانت منذ حداثتها تظهر ميلاً للتبحر في العلوم والآداب ولم يكن يؤذن للبنات الوطنيات في ذلك العهد بدخول المدارس الاجنبية ولم تكن المدارس الوطنية تفي بالحاجة فتوسل والدها الى السلطان عبد الحميد ان يأذن لابنته بدخول الكلية الاميركية في الاستانة فأذن لها فدخلتها ولم يمض زمن على ذلك حتى برزت على اقرانها وتخرَّجت سنة ١٩٠١ برتبة بكالوريوس علوم وهي اول امرأة مسلمة في تركيا نالت هذه الرتبة . وقد برعت في جميع العلوم الا الهندسة فقد كانت خجر عثرة في سبيل تقدمها فأحضر لها والدها استاذاً خاصًّا من اساتذة الجامعة السلطانية ليلقنها في المنزل ما اشكل عليها فهمه من هذا العلم فلم يلبث ان علق بها فخطبها من والدها ثم اقترن بها وهي لا تعلم ان لزوجها امرأة وأولاداً في باريس على أنها لم تكن لتجد خلاصاً لها من تلك الحالة فاضطرت الى ملازمة خدرها وكانت تقضي أوقاتها في مطالعة ما حوتهُ مكتبة زوجها من التآليف النفيسة ولا سيما الفرنسية منها فكان لمطالعتها أثر شديد في نفسها الكبيرة ولم تلبث أن سنحت لها الفرصة المنشودة إذ طلقت زوجها وأصبحت حرة لتقف حياتها على الجد والعمل وكان ذلك قبل اعلان الدستور في تركيا فلما أعلن وأطلقت الحرية للأفكار والمطبوعات نشرت خالدة أديب قصيدة حماسية تخاطب فيها رجال الفرقة الرابعة التي تم على يدها قلب

(١) تتمة المحاضرة التي القاها حضرة الكاتب الاديب الاستاذ فكري اباظة في دار تقابة موظفي الحكومة المصرية بدعوة من جماعة الادب المصري

الحكومة الاستبدادية لسان مؤسس الدولة العثمانية فكان لقصيدتها وقع عظيم وطارت شهرتها وذاع صيتها

وفي هذه البيئة السياسية التي كانت تدوي فيها اسماء ابطال الاتراك في الحقبة الاخيرة : انور وطلعت ونيازي وجمال وجاويد . في هذه البيئة نضجها ابتدأت السيدة خالدة اديب تفكر وتكتب على مثال ماري وتحسن وكانت الجمعية التركية وقتئذ تشكو مظالم العهد الحميدي وتتألم من ضروب العسف وضياع سيادة الدولة فابتدأت كسيدة مثقفة ومطلعة تكتب في سبيل الدفاع عن حقوق المرأة فصار الناس يطالعون كتاباتها بلهفة ولكنها لم تقتصر على ذلك بل جعلت تنشر في جريدة « طين » مقالات اجتماعية وسياسية فاشتهرت بسداد الرأي واعتدال اللهجة وكانت تجتمع برجال تركيا الفتاة ولا سيما انور وطلعت وجمال فتبدي لهم رأيها في شؤون الدولة وهم لا يستنكفون من الاصغاء اليها والعمل بآرائها . ولما قلب عبد الحميد الحكومة الدستورية سنة ١٩٠٩ وردت اسمها في قائمة المحكوم عليهم بالاعدام فاضطرت الى الفرار حرصاً على حياتها فشخصت الى مصر ومكثت فيها الى ان استعاد الاتحاديون سلطتهم

وفي ذلك الوقت كانت قد اثمرت في اذهان الاتراك فكرة العصبية التركية وانبثت في الجمعية التركية فكرة الاندية السياسية التي كانت تحض على انقاذ العنصر التركي . وكان هذا المبدأ المجرد يعمر قلوب الاتراك نساء ورجالاً فتتردد في جو العاصمة التركية صوت السيدة خالدة اديب في سبيل الدفاع عن حقوق المرأة لم يلبث ان تجاوب مع اصوات كثيرة كان يصدرها وقتئذ بعض الزعماء وقادة الحركة السياسية

والى السيدة خالدة اديب يرجع الفضل في رفع شأن المرأة التركية بانشاء الاندية والجمعيات ولما نشبت الحرب البلقانية انتظمت كثيرات من النساء في سلك جمعية الهلال الاحمر وجعلن يكتبن ويحضن ويحرضن على الجهاد في سبيل الوطن وقد احتشد عدد منهن يربي على خمسة آلاف في دار الجامعة السلطانية فوقفت تخطب فيهن بحماسة متوهجة ولما انتت خطابها كان العرق يتصبب من جبينها من شدة التأثر والانفعال فنزعت حليتها الثمينة والقت بها في صندوق املها اعانة للوطن فاقتدت بها سائر النساء وجعلن الواحدة تلو الاخرى يقدمن حليهن لهذه الغاية الشريفة

وابتدأ بعد ذلك انضمامها الى الحركة الوطنية التي كان يعمل رجالها لتحرير تركيا القديمة من ربقة النظم والعادات التي قضت على العنصر التركي بالجمود . واتسع اشتراكها بعد ذلك في تلك الاحزاب السياسية فصارت عضواً في حزب التقدم الجمهوري من بعد أن اشتركت اشتراكاً فعلياً في الجهاد مع الوطنيين الاتراك وكانت تحضر اجتماعات زعماء الاحزاب الوطنية وتترأسها احياناً ولا يضع اولئك الزعماء خططهم السياسية الا بعد استشارتها . وكانت الى جانب ذلك ترأس

اللجان التي تؤلف لحل المسائل الشرعية المتعلقة بالمرأة وعلى الاخص مسألة تعدد الزوجات وكان يشاركها في ذلك طائفة من السيدات التركيات نخص بالذكر منهن السيدة زينب محيي الدين خانم الرئيسة السابقة للاتحاد النسائي بالاستانة وسلمى خانم . اولئك اللواتي عملن بكل ما في وسعهن على صيانة حقوق المرأة التركية واصلاح قانون الاسرة وبينما كانت السيدة خالدة اديب تواصل جهودها في سبيل تحرير المرأة كانت الصحف تملأ أعمدتها برسائل في الادب والشعر الرقيق الذي كانت تنشئها في اوقات الفراغ . والى السيدة خالدة أديب يعزى الفضل في توضيح مهمة المرأة التركية في المجتمع وان هذه المهمة أوسع وأجلّ مما ينهضُ رجال العصر . ولما تقرر في الاذهان أنها سيدة مثقفة من الطراز الاول وأن جهودها تسع النهوض بالاعمال الجليلة في دوائر السياسة والادب والاجتماع وأنها زعيمة متفوقة تتصف بأجل ما يمكن ان تتصف به المرأة المهذبة من المزايا والخلال الباهرة رأى الزعماء الوطنيون الذين شاركتهم حيناً طويلاً في ميادين العمل السياسي والدفاع عن حرية البلاد أن يكلفوا مهمتها الشريفة بمنصب تستطيع أن تترك فيه لمواهب المرأة والزعيمة اصدق امثلة أخرى باهرة في حياة المرأة فعهدوا اليها بتولي وزارة المعارف وكان ذلك في موطن تقليدي قديم نوعاً من التجديد لم يسبق له نظير في الشرق . وقد رفع مقام السيدة خالدة اديب في نظر جميع الذين يمجدون نبوغ المرأة وعبقريتها . وكان مثلاً باهراً يوحي بان ثمة مستقبلاً عظيماً للمرأة في الشرق . وقد أعلى مركزها كأديبة واسعة الاطلاع ومجاهدة سياسية اقترن في مهمتها العمل لجنسها بالعمل الجدي للوطن وللجمعية وكانت مثلاً فذّاً للمرأة المسلمة بوجه عام

***

على ان السيدة خالدة اديب لم تبلغ هذه الغاية في المجتمع الذي عملت على تحريره الا بعد أن ضحت بجانب كبير من ايامها وراحتها وهنائها في الاشتراك مع اولئك الذين كان النظام التركي القديم قد جعلهم موضوع نقمته ومطاردته

وكان لا بدّ ان يقترن بذلك التطور الباهر في حياتها كسيدة تركية تطور آخر في ذهنها وطريقة تفكيرها . وفي الحقيقة ان الجمعية التركية والعادات التركية بوجه خاص كانت وقتئذ مستعدة كل الاستعداد لذلك التطور . وقد ابتدأ اول ما ابتدأ في الغناء والموسيقى ثم في الشعر . ومن الممكن ملاحظة ذلك في الطرائق الجديدة التي يستعملها الاتراك الآن في كتاباتهم واشعارهم . وينسب الى السيدة خالدة اديب في هذا المعنى تعابير وصيغ طريفة تفرغ فيها افكارها فهي ترى ان المرأة التركية لا ينقصها للترقي غير حظ الرجل الحر من التعليم وهي تعني بالرجل الحر ذلك الذي تحرر من القيود الادبية والحوائل التقليدية التي تحول دون

ترقي الجماعة . أما التحرير السياسي وحقوق المرأة بحسب التعبير الشائع فهما عندها في الدرجة الثانية فتوجه القول الى قارئها « ان السياسة لا تملأ الا جانباً تافهاً من حياتنا وانما هو نير القيود الاجتماعية والادبية الذي يثقل كاهل المرأة »

الى أن تقول : —

« اذا كان يراد بنا نحن النساء ان نكون احراراً في هذه الارض فينبغي ان ننال من التعليم حظ الرجل الحر . ولكن التعليم في المدرسة كان طلاء للحرية مموهاً فان فتياتنا جميعاً لا يزلن في اعماق قلوبهن عبيداً للاكاذيب الاجتماعية المقررة التي خلقها الرجال. وليس الغرض من هذا الا ان يعرف الرجل الى اي حد يمكن التوسع في تهذيب المرأة على شريطة ألا يبلغ بها الى حدود تحريرها من الأسر »

« ان الرجال يحاولون ان يهذبونا من الناحية الذهنية فقط ولكنهم من الوجهة الادبية أو الاجتماعية يأبون الا ان يحكموا علينا الوثائق ويشدوا الاغلال ولكنهم لم ينجحوا فان الوثاق على مر الزمن سيقطع والغل سينفك . لانك اذا ابتدأت اليوم بتعليم النساء فأنت ولا ريب منتهٍ غداً بتحريرهن »

وحسب هذا الرأي الوضعي البحت أن يصور لنا مذهب السيدة خالدة أديب في تحرير المرأة . وفي الحقيقة ان مهمة المرأة محدودة بمهمة الرجل التي هي اوسع . لذلك كانت قيود الاجتماع والاصطلاح تثقل كاهل المرأة من حيث أنها زعيمة تلك المملكة الصغيرة التي هي الاسرة أو المعنى العائلي . ولقد كان في أساس المهمة الشاقة الجليلة التي قامت بها السيدة خالدة أديب مسألة تحرير الاسرة التركية وكان من أهم القيود التي تعانيها مسألة تعدد الزوجات والسيدة خالدة أديب الى كونها زعيمة حركة نسوية من الطراز الاول . مفكرة وادبية وخطيبة بليغة لا تكاد تصل عبارتها الى الاسماع حتى تملك القلوب وتجتذب اليها الجماهير . وقد كان لخطبها الرنانة ومحاضراتها أثر قوي في تحقيق عناصر المهمة الواسعة التي أفضت في النهاية الى تحرير المرأة التركية . ونعلم من تآليفها — وهي من الكاتبات اللواتي لا ينقطعن عن الكتابة — مذكراتها عن الحرب بين تركيا واليونان وهي تلك الحرب التي اشتركت فيها بتخفيف آلام الجرحى والمنكوبين ورواية بديعة بعنوان « الاكمة الحمراء » كلها تصوير للحرب وحمية الجنود الاتراك وحماستهم والسيدة خالدة أديب رسالتها الاسبوعية في الصحف التركية

***

وقد امتازت الى سعة اطلاعها بالدقة في التصوير وقوة الحياة في التعبير ومقدرة على وصف روائع العالم التركي الذي جاهدت من اجله وامتلأت شعاب قلبها حماسة في سبيل الدفاع عنه .

ثم هي خصبة الذهن قيّمة الانتاج مستحدثة الاسلوب كسائر الكتاب الاتراك المعاصرين فانك لا تكاد تجد فرقاً كبيراً اليوم بين كاتب تركي من الطبقة الاولى وبين كاتب اوربي معاصر في اخراج الصيغ والتعبيرات . وهذا يرجع الى طبيعة اللغة التركية اكثر مما يرجع الى مواهب الاتراك انفسهم وان كنا نعترف للسيدة خالدة أديب بتلك الموهبة العظيمة التي جعلت منها كاتبة واديبة وشاعرة من الطبقة الاولى ولعبي بها خصوبة الذهن المقترنة ببلاغة التأليف

***

ومن بدائع انتاجها قصيدة بعنوان « موت الشاعر »

قالت : —

« ايها الشاعر

« ان الجلو الذي عهدته لايزال على عهده . والانهار التي تهدئها تجري كدرب الحجيج ، والنسيم يصعد يهب حاملاً أوج الازهار وعطرها

« وها هي الطيور ما برحت تأوي الى وكناتها صادحة مغردة وها هي الطبيعة والشمس ذات الخصال الابريزية تألق في الافق . والرعاة كما عهدتهم ينشدون منهلين لتحية ملكة النور عند غيابها

« كيف ايها الشاعر ، هل كسرت قيثارتك التي تردد انغامها ملء الدنيا

« وهل رميت بالقلم الذي كان يسيطك كالطائر الغرد فلا تعود الى التوقيع الشجي المطرب ؟

« هل قضي نهائياً عليك بالانزواء في هذا المنزل القصي وقد فارقت هواتك ومريديك ؟

فلما سمع الشاعر اجاب : —

« بلى ، قضي الامر وكسرت يراعتي وحطمت قيثارتي . اني ارى كل ما في الطبيعة يستحثني على الانشاد ، ولكني اشعر بالعجز امام الموت الذي يفترسني

وفي هذه الدقيقة كان قرص الشمس الذهبي يهوي في اعماق المغرب فراح الشاعر يناجيه :

« ايها الكوكب المنير ، اذا بلغت اله النور فذكره بهذا الشعب العظيم الهشك

« قل له ان تركيا ما برحت تشرق كل يوم وتلثم تحت غيهبان فرنت لها الشمس بنظرها وقالت :

« اذن ، هلم ايها الشاعر الى الله المحيط بكل شيء فتبثه مصائب قومك الشاكين المتوجعين

« هلم الى الله تشكو ما يجيش في صدرك

« وغابت الشمس على الاثر وراء البحر بينما كانت الامواج تصطخب في سكون

« وأرخت الظلمات سدولها وساد المدينة صمت عميق لان شمس تركيا غابت عن تركيا ... »

وبعد ، فاننا لم نتحدث عن السيدة خالدة أديب اشهر كاتبات تركيا الجديدة الا لكي نقدم مثلاً عالياً لسائر سيدات الشرق فان خالدة أديب تستحق أن تكون قدوة للمرأة الشرقية بوجه عام

نقولا شكري

باب المراسلة والمناظرة

قد رأينا بعد الاختبار وجوب فتح هذا الباب ففتحناه ترغيباً في المعارف واحياءً للهمم وتشحيذاً للاذهان. ولكن العهدة فيما يدرج فيه على اصحابه فنحن براء منه كله. ولا ندرج ما خرج عن موضوع المقتطف. ونراعي في الادراج وعدمه ما يأتي: (١) المناظر والنظير مشتقان من اصل واحد فمناظرك نظيرك (٢) انما الغرض من المناظرة التوصل الى الحقائق. فاذا كان كاشف الغلط غيره عظيماً كان المعترف بأغلاطه أعظم (٣) خير الكلام ما قل ودل. فالمقالات الوافية مع الايجاز تفضل على المطولة

الشريف الكتاني

جاءتنا هذه الرسالة النفيسة في وصف الشريف الكتاني الذي زار مصر في طريقه الى الحجاز لتأدية فريضة الحج من بيت هو عالم من اكبر علماء الفقه الاسلامي واديب واسع الاطلاع عميق الفهم جمع خزانة من انفس المخطوطات العربية وأتمها في داره بفاس. فشكرناه شاكرين

هما رجلان ألان الله لها من صخر تي أوّلُ ما رأيتهما: السيد الجليل «محمد نصيف» كبير جُدّة وعماد الحجاز والأملُ المعتدُّ في جزيرة العرب، وهذا السيّد المباركُ محقّق العلم الاسلاميّ وعمدة التاريخ العربيّ «محمد عبد الحيّ بن عبد الكبير الكتانيّ الادريسيّ» واحد فاس، وكبير مراكش، والعلمُ الشامخُ بين أعلام الامّة الاسلامية في هذا العصر ما بين الصين إلى رباط الفتح من المغرب الاقصى

وما عَسَاني أقولُ في رَجُل... كلما أمسكتُ القلم لأكتبَ عنه تهيّبتُهُ من غير خوفٍ كما يتهيّبُ المؤمنُ قالةَ الحقّ تحيكُ في قلبه، خشيةَ ان يجورُ فيها لسانهُ، أو ان يعدل بها سامعها عن وجهٍ قصد اليه. وأنا حين اكتبُ هذه الكلمة — بعد ان لازمت الرجل ايامهُ ولياليه في القاهرة، وأخذت عنهُ، وقبست من نوره وعلمه وخُلُقِه الغضّ: واستنشيت ريّا شمائله — أجدني كالذي انتقل بروحه من عالمٍ كثيفٍ فيهِ من ثِقَل المادة ما يهيض جناح الطائر، الى عالَم من الرُّوحانية المصفّاة التي انقت اوزار المادة الى مَنَارها ومعدنها من الارض، وحلقت في جوّ السماء بين نسمات النفحة الالهية وفتنة الجمال العلوي... الجمال الذي ينتظم الكون كله بأفلاكه وكواكبه ودقة تدبيره وحكمة امره

رجلٌ منضّر الوجه كالوردة الزاهية فيها سرُّ الجمال الالهيّ الذي لا يذبُل، مشرق الجبين كنور الفجر الصادق الذي لا يتكذّب، وضاح الثنايا كالاقحوانة المبتسمة في ربيعها من الطلّ والندى، صافي العينين كالماء النمير في مجرًى من البلور، كثّ اللحية محفوف الشارب

أهدب الاشفار أبنج الحاجبين في شعرها وصف ، ضخم الهامة سابق الهبة بادي الحنان في جسمه بسطة تذكرك بما تقرأ في صفة علي بن ابي طالب رضي الله عنهُ . هذا هو السيد الشريف «الكتاني» عالم الشريعة الاسلامية وهذه صفتهُ اول ما تكتحل عيناك بطلعته

هو في الثامنة والاربعين من عمره ، ولكن تطالعك هذه السنوات القلائل من عينيه بالكبيرة الملطفة بشباب القلب ، المحفوفة بحياة النفس العزيزة المتألمة المنخنة بالجراح من احداث الدهر وعواديه . ينظر اليك حيناً نظرة العالم المتمكن الامين المتثبت الذي شغله العلم عن الحياة المادية الغليظة ، فتحملك نظرته هذه من مجلس بسيط وديع الى بحر من العلم يفتنك هدوءه كما يروعك اضطخابه إذا ازدحمت فيه أسباب الحركة العلمية . وينظر اليك حيناً وهو يستمع هادئاً نظرة المشفق الحريص الذي يودُّ ان يراك مصيباً لم تخطىء . وأنت لا تزال في مجلسه بين انواع من النظرات لها معانيها ، ولهذه المعاني أسبابها ، ولهذه الاسباب بواعثها ، ولهذه البواعث محركاتها ، ولهذه المحركات خفايا من وراء النفس ، منقمعة مكتومة لا تنفذ اليها إلاَّ نظرات أروع وقد قد ابتنى دقائق النفس الانسانية بالممارسة والذهن المتوقد الذي يرى من آيات الله آيات من البلاغة الالهية التي تمس الروح مسة تيار كهربائي ترعش به اعصاب الانسانية وتنتفض

أنت من مجلسه في مجلس الحافظ لسنة رسول الله صلى الله عليهِ وسلَّم ، والفقيه الذي قلب آيات الفقه الاسلامي بالبصر والبصيرة ، والمؤرخ الذي انفتق له السود عن تاريخ العرب والامة الاسلامية في مشارق الارض ومغاربها ، والالمعي ذي الدهاء الذي ركَّبت الاحداث في نفسه آلة احساس دقيقة تحس بالبعيد احساسها بالقريب ولا تكاد تخطىء الاَّ بمقدار ما في النفس الانسانية من اسباب الخطأ الذي لا تنفيه إلاَّ العصمة التي لم يقضِ الله لاحد من الناس ان يبلغها . وهو وراء ذلك أحد المتصوفة الذين عرفوا حقيقة التصوف لا أوهامه التي ملأ بها الدخلاء ساحة التصوف ، وأحد الذين يزنون العلم الحديث وما نشأ عنه من أحوال الاجتماع بميزان يفرق بين الخير والشر والحق والباطل ، فهو يطلع عليهِ اطلاع المتبصر الذي لا يرضى لنفسه ان يكون من الغوغاء اتباع كل نظرية هوجاء لا قرار لها على حال

ولهذا الرجل احساس علميٌّ عجيب ، فهو لا يكاد يسمع بأديب أو فقيه أو عالم أو فيلسوف إلاَّ حنَّ اليهِ وقلقَ إلى رؤيتهِ ، ورغب في التحدث اليه وسبر غوره ، فلا تصرفهُ شواغله وهو في دار الغربة عن أن يقدم أهل العلم — أيَّما كانوا — بالزيارة بل تراهُ يبدؤهم بها . ويرحل من بلد إلى بلد لأن فيهِ عالماً جليلاً قد قرأ آثاره أو سمع بهِ . وأنت فظنَّ كيف تقدَّر رجلاً من أقصى المغرب بفاس ، لا يذكر أسمهُ اسم عالم أو غيره في مصر او الشام أو الجزيرة العربية أو العراق أو الهند أو الافغان أو الترك إلاَّ عرفهُ وقدَّمك من أخباره وعدَّدَ لك من كتبه . ومن هؤلاء الناشيء والمغمور الذي لا يعرفهُ أهل بلده على حين أنهُ منهم بمنزلة

البنان من راحته . بل . . . . يسمع اسم الرجل يراهُ أمامه فيطمئنُّ قليلاً ثم يسأله من أي بلدة هو فما يجيبُ حتى يسأله عن علماء هذه البلدة مَن مات منهم ومن حيّ وعن كتبهم كيف كان مصيرها ، ثم يعدّدُ لهُ بعضَ ما ألّفوا . . . ويذكر له روايته عنهم ان كان رَوَى عنهم شيئاً من حديث رسول الله صلى الله عليهِ وسلم أو غير ذلك

فمن أجل هذا الاحساس العلميّ المركّب فيهِ أتيح له أن يجمع مكتبة في داره بشارع نُعَمْ من أغنى المكاتب الخاصة وأنفسيها في العالم العربيّ كلّهِ ، فيها من النفائس والنوادر والغرائب ما لا يوجد في غيرها . وهو لا يكاد يسمع بكتابٍ نادرٍ حتى يسارع الى استنساخهِ أو تصويره بالفوتوغراف . وها هو قد نزل مصر فجمع من شوارد المخطوطات ونوادرها أشياء كانت بين سمع دور كتبنا وبصرها ثم غفلت عنها . ويجلس هذا الرجل في منزله فيأتيهِ الوراقون بالمخطوطات حديثها وعتيقها فما يفتح أحدها حتى يعرف ما الكتابُ ومن صاحبهُ ويفرح بالكتاب النادر فرح الذي ضنَّ عليهِ الزمن طويلاً ثم جاد . وبالله أشهد صادقاً لكأني أرى الكتاب بين يديهِ يكاد يحنُّ اليهِ حنين القلب المزق المفطور الى سبب من أسباب سلوته وراحته ، ولكأني اراهُ يمسك الكتاب براحته كما يمسك أحدنا الشيء فيهِ من آثار قلبهِ وحبهِ وآماله ورغباته ما فيهِ ، ويلقي عليهِ نظرة عاطفة تكاد تحييهِ من عطفها وحنانها وحدبها وأشواقها

هذا هو الرجل العالم المتيم بالكتب ، الذي يطّلع جاهداً على آثار الناس وما يلشرون في الكتب والصحف والمجلات ويعني اسماءهم ويسأل عنهم ويرغب في رؤيتهم ويرحل اليهم بادئاً بالزيارة . وفي هذا الرجل رجل آخر قد جعلت من عينيّ جاسوساً متقدراً نفاذاً يتتبع نظراته وحركاته وما يبدو على وجههِ وجبينهِ من آيات التغيُّر والتبدل حتى عرفتهُ او كدت

حدثتا عنهُ فقالتا : هذا رجل في عظم هامتهِ واتساع جبينهِ والتماع عينيهِ دليل على قوة مستحكمة شديدة . وهذه القوة — مع ما فيها من شدة — هادئة وادعة مسالمة ، تثريث مفكرةً ، فلا تظهر ولا تستعلن الا ساعة الجد حين تعلم ان قد دنا أوانها ، وأن موضع الفصل قد استبان ، وأنها لن تخطىء . وهو رجل في أصالة خدّه ورقّة نظرته شاهد على طيب الخُلُق ، ودماثة الكنف ، وحسن العشرة ، وكمال الحنان والعطف ، وهو رجل في تفاجّ ثناياه وانطباق شفتيهِ وطول صمته — اذا لم يدعَ الى كلام — وعمق نظراته في هذا الصمت برهان على الصبر في كل ملمة ومع كل أحد . قالتا : ثم هو رجل حلوُ النفس صادق مخلص أمين على ما يؤتمن عليه رضيُّ الشمائل في كل حين . . . أما تراه يبتسم ابتسامةً رقيقةً لا تكاد تخلص الا عن قلوب الاطفال المبرئين أو الكرام الصالحين فاذا ضحك اهتزَّ جميعه لان ضحكته تصدر عن قلبه الطيع الكريم الذي يتحكم في كل عضو من أعضائه . وهو بعد رجل كتوم يحمل الآلام بين جنبيه وهي تمزق قلبه وتفتك فيه . ينظرُ النظرة المترامية في مفاوز الماضي البعيد فيرجع

بالذكرى الأليمة . وعلى نظراته معنى البكاء الذي لا يجد في الدمع ترجماناً او معيناً . وهذه وحدها نظرة لو ألقيت على جبل أصمّ لا يألم لوجد لها مسًّا كمسّ الرحمة في القلب الرقيق . ويحيل اليك وهو يغضّ من طرفه ويرخي جفنيه أن الصبر والجلد والرجولة الصادقة أرادت بذلك أن تخفي عنك نظرات هي أحاديث آلام ، أشفق على نفسك ان تسمعها أو تلمّ بها

وتراهُ حين يتكلم حتى في العلم يفيض حناناً ورقة وكرماً ووفاءً ثم يشتدُّ بعد تمهل حتى يأخذ عليك نفسك هيبة ووقاراً من ورعه وتقاه ، ثم تتعرّف فيه اذا خالطته ذهناً قد اجتمعت له أسباب الاحاطة بأحوال الناس في كل أمة وجيل ثم يدق حتى يكاد يغمض عليك اذا لم تلق اليه بسمعك وبصرك وقلبك جاهداً متفهماً . وان تعجب فعجب لهذا الرجل الذي اتسع أفقه حتى ألّف ما أناف على مائتي كتاب فيها موضوعات عجيبة لم يسبق اليه بمثل تحقيقه ودقته على الاسلوب الذي يفهمه عن اهله ومن عرف مذاهب القوم في كتبهم ومؤلفاتهم

كلمة مقتضبة في رجل بحر كريم الاصل والمنصب سليل جدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وصفوة من هذه الامة العربية التي تدفقت في الارض تدفق السيل من رؤوس الجبال فأنبتت في كل أرض نباتاً حسناً زكا مغرسهُ وطاب ثمرهُ . كلمة تصلُ بها أرحاماً تقطعت أو كادت في زمن توالت علينا أحداثه واستمرّتْ علينا عواديه وتركنا لُطماء

يأشرُ الفارغُ الخليُّ ، ويأسى مُشرَعُ الصدرِ من جوًى ملآنهْ

محمود محمد شاكر

حقائق جديدة

عن الربع الخالي

حضرة محرر المقتطف الأغر المحترم

ارجوكم ان تسمحوا لي مجالاً في صفحات المقتطف الاغر لاضافة ما يلي الى بحثي الذي تفضلتم بنشره في عدد فبراير عن الربع الخالي

حين كتابة ذلك الفصل وارساله الى المطبعة لم يكن في امكاني ان اضمنه النتائج التي اسفرت عنها رحلة المستر فلبي في شتاء العام الماضي ، اما الآن وقد اتاح لي المستر فلبي فرصة الاطلاع على مسودات الكتاب الذي وضعه عن الرحلة ، وعلى التقارير المختلفة التي وضعها الاخصائيون العديدون في المتحف البريطاني للتاريخ الطبيعي بعد فحصهم الدقيق للنماذج المختلفة التي أتى بها من مواضع مختلفة في الاماكن التي زارها رأيت واناً عليَّ ان اضيف الملاحظات الآتية الى ما نشر سابقاً

اولاً : كان المفهوم عن التكوين الجيولوجي للبلاد العربية ان باطنها خلو من آثار الاصداف البحرية الباقية من العصر الجيولوجي المتوسط المعروف باسم « ميوسين Miocene »

فجاءت رحلة المستر فلبي مثبتة وجود مساحات واسعة في المنطقة المعروفة باسم جافورا بين الخليج الفارسي ومنطقة الربع الخالي ، مملوءة بالاصداف الميوسينية التي يتخذها العلماء دليلاً قاطعاً على وجود البترول فيها . واصبح في الامكان تحديد الجغرافية الجيولوجية للبلاد العربية بصورة واضحة في مناطق متوالية اعتباراً من ساحل البحر الاحمر الى الخليج الفارسي :— صخور ابتدائية . فترياسية . فيوراسية . فكريتاسية ، فايوسينية ، فميوسينية

ثانياً : ان المنطقة الجديدة التي اخترقها المستر فلبي في رحلته الاخيرة لاول مرة والتي يمكن تحديدها بانها تبدأ اعتباراً من خط الطول الشرقي ٥٠ الى حدود وادي الدواسر ونجران انما هي بيداء قاحلة ، جافة ، معظمها رمال كثيفة تتخللها مناطق شاسعة من الطمي والحصباء وتعرف باسماء مختلفة مثل ابو بحر وسحمة ورعلة وجليدة وجدة القرشة الخ . وان الآبار فيها معدومة الا في حافتها الشرقية بقرب منطقة الخيران والرمال التي اخترقها المستر توماس من قبل وان عمق هذه الآبار عظيم جداً فعمق بئر مفينة ١٧١ قدماً وبئر فاضل ١٢٥ ، وان المنطقة قليلة الانبات والعشب ولذا فان حيوانها قليل جداً

ثالثاً : من أهم آثار رحلة المستر فلبي ايضاً انها جاءت بدليل جديد يستند اليه العلماء الذين يظنون ان البلاد العربية كانت من قبل كثيرة المياه والخيرات ثم طرأ عليها جفاف عظيم أنضب أنهارها وأهلك عشبها وشجرها . فقد اجتاز المستر فلبي اصقاعاً عديدة حوت اصداف المحار الذي لا يعيش الا في المياه العذبة وجلب منها نماذج درسها ، اخصائيو المتحف البريطاني للتاريخ الطبيعي واكدوا أنها من هذا الصنف . وجمع من هذه المنطقة بعض الادوات الصوانية التي استعملها انسان ما قبل التاريخ في العصر الحجري الحديث Neolithic . والنتيجة الطبيعية لهذين الاكتشافين هي أنهُ في الازمنة القديمة التي تقدمت الاعصر التاريخية كانت منطقة الربع الخالي ذات انهار جارية يعيش فيها المحار ، تنبع من جبال عسير واليمن والحجاز وتصبُّ في البحر الميوسيني الذي يظنُّ انهُ كان غامراً الاراضي الكائنة بين رملة مفشن وآبار شنة والركرت ونبغا وعين سالا . وقد تمكن المستر فلبي من تمييز مجاري اربعة أنهار عذبة في هذه المنطقة وحاول ان يربطها بالاودية الحالية الآتية : (١) اودية الافلاج (٢) وادي مترن (٣) وادي الدواسر (٤) وادي نجران

رابعاً : ونتيجة مهمة ايضاً هي القضاء على الاسطورة التي مؤداها ان كثيرين يعتقدون بوجود آثار مدينة او مدن مطمورة وسط رمال الربع الخالي وبالاخص آثار وبار مدينة عاد التي دمرت بثيران السماء . فقد نفي وجود آثار مثل هذه ، وحقق ان الاعصر التي كان في الامكان اعمار هذه البلاد فيها حينما كانت ذات انهار عذبة ، انما هي أعصر سابقة للعصر الذي بلغ فيه الانسان مرتبة انشاء القرى والمدن

خامساً : ومن أعظم نتائج الرحلة ايضاً تحقيق مسألة قصور ام الحديد التي ذكرت عنها في متن الفصل انها آثار بركان خامدة فقد جلب المستر فلبي معهُ قطعة من الحديد المصهور من مخروط هذا البركان وسلمها الى المتحف البريطاني للتاريخ الطبيعي مع كميات من اللؤلؤ الاسود ولدى فحص الكتلة تبين انها قطعة معدنية من نيزك سماوي ولا صلة بينها وبين المادة البركانية وان اللؤلؤ الاسود ، رمل (سليس) مصهور بحرارة شديدة جداً أحرقتهُ وجعلتهُ يظهر على شكل الدخان البركاني . وقد اثار هذا الاكتشاف اهتمام الاوساط العلمية لكبر حجم النيزك ولكونهِ احد النيازك القليلة العدد المعروف عنها انها نزلت شديدة الحرارة الى درجة مرتفعة جداً فكان سطحها مصهوراً وباطنها لم تتصل اليهِ الحرارة الآنيَّة فظل على حالتهِ وأما السطح فقد تألف من صهره بالحرارة الآنية اشكال مخروطية تشبه مخروط البراكين واحرق الرمل المجاور للمنطقة المجاورة لمخروطهِ فجعله كمقذوف البراكين مكا فؤاد حمزة

تصحيح كتاب الزهرة

ردٌّ على نقد

تنحصر الاغلاط التي عرض لها الدكتور زكي مبارك (مقتطف مارس ١٩٣٣) في اربعة انواع

النوع الاول : ويشتمل على اغلاط أصاب الاستاذ مبارك في تصحيحها اصابة تشهد بسعة اطلاعه وها هي بحسب ارقامها (الارقام التي سار عليها حضرته في التصحيح) : ١٦ ، ١٩ ، ٢٣ ، ٣٦ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٩ ، ٥١

النوع الثاني : عثرنا في اثناء العمل على كثير من الاغلاط كما اننا احتجنا في مواضع كثيرة الى الملاحظات . لذلك وضعنا جدولاً في آخر الكتاب يبتدىء في ص ٣٨٢ وينتهي في ص ٤٠٦ ويكاد هذا الجدول لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الاَّ احصاها حتى الاغلاط التي فات الاستاذ ان يلاحظها رغم افتتانه بالتدقيق ، «وغرامه بالتصحيح» . وهناك اصطلاحات نشير منها الى الحرف m = مخطوطة ، T = باقوت ، H = حماسة ومنها ايضاً no = غير واضح ، ino = غير تامّ وغير ذلك مما هو مفصّل في مقدمة الجدول . وكأنّ الاستاذ مبارك لم يشأ ان يعترف بوجود هذا الجدول ، وكأنه لم يكد يعثر على الغلطة الاولى حتى استرسل في التصحيح ، والتصحيح عند الاستاذ غرام والغرام — كما يقولون — أعمى

وها هي الاغلاط التي انتبه لها على حين ان جدول الملاحظات لم يغفلها بل اشار إلى كلّ غلطة منها اشارة اقلّها يدلّ على الشكّ والاستفهام : — ١٠ ، ١١ ، ١٣ ، ١٧ ، ٢٤ ، ٢٨ ، ٣٢ ، ٤٠ ، ٤٣ ، ٤٦ ، ٥٠ — وقد اهتدى الاستاذ الى اصلاح بعضها وصحح بعضها على الاحتمال . الاّ ان النقد العلمي النزيه يحتم على الناقد أن يعطي كلّ ذي حقّ حقّه

ويعرف لذي الجهود جهوده ولمّا كان الجدول ذاك (ويقع في ٢٥ صحيفة) حقًّا لنا ، وجانياً من جهودنا انتظرنا من الاستاذ مبارك الآ يشيح بوجهه عنهُ فيغفلهُ كل هذا الاغفال

النوع الثالث : ويشتمل على اغلاط صححها الدكتور مبارك وهي مثبتة بتصحيحها في ذلك الجدول المظلوم الذي لم يستحق نظرة عطف منهُ ! وقد لفت نظرنا اتفاقنا في التصحيح لا اتفاق توارد الخواطر بل وقوع الحافر على الحافر. وفي هذا النوع من الاتفاق عجب حين يقع مرةً واحدة أو مرّتين ، فكيف به وقد وقع في أربعة عشر موضعاً ! ؟ . والى القراء جدولاً بأخطاء صححها في نقده وصححناها نحن كذلك في الجدول المذكور في آخر الكتاب

الغلطة برقمها	تصحيحها في جدول الملاحظات	تصحيح الدكتور مبارك
٤ وبعد	(الواو) لا لزوم لها	(الواو) لا لزوم لها
٩ الأبهم بالباء الموحدة	الأبهم بالياء المثناة	الأبهم بالياء المثناة
١٨ عتمة	عتمة رواية الحماسة	عتمة رواية الحماسة
٢٠ وما بي اذا زبى	رماني اذاً ربّني	رماني اذاً ربّني
٢٢ مكائد	مكايد	مكايد
٢٦ ان الذي	يا ذا الذي	يا ذا الذي
» قدّر	قدر	قدر
٣٣ قرحة نكأتها	قرحة ؟	قرحة نكأتها
٣٨ لم يمكن	لم يكن	لم يكن
» منهم	فيهم	فيهم
٣٩ ترتيب سيء لابيات	هزج (الوزن الشعري)	رتبها الاستاذ على الهزج
٤١ كتوم	كظيم رواية الحماسة	كظيم رواية ابي تمام . . .
٤٢ دوني	دوني بفتح الياء	دوني بفتح الياء
٤٥ لتقلهم	لتنقلهم ؟	لتقلهم

النوع الرابع : ويشتمل على ما بقي من الاغلاط . وقد شاء الاستاذ مبارك ان يسميها اغلاطاً وليست كذلك بل هي في الحقيقة تفضيل رواية بيت على رواية واستبدال كلة بكلمة . ومعروف بالبداهة ان كلّ كتاب مخطوط أمانة في عنق ناشره يتحتم عليهِ ان يخرجهُ للناس مطبوعاً كما وجدهُ مخطوطاً . فاذا بدت وجوه للملاحظات كاختلاف رواية أو نسبة ونحوها احتفظ الناشر بالاصل ودوّن ملاحظته في الموضع المخصص لها ومثال ذلك جدول ملاحظاتنا

المظلوم نابلس ابراهيم عبد الفتاح طوقان

تنقيط الياء في آخر الكلم

غير كافٍ لإزالة اللبس

حضرة رئيس تحرير المقتطف الغراء

قرأت في مقتطف فبراير ١٩٣٣ مقالاً ممتعاً، في موضوع لغوي شائق، بعنوان «تنقيط الياء في آخر الكلم» كتبهُ النحالة الشهير الأب انستاس ماري الكرملي، محاولاً فيهِ اثبات نظرية زوال اللبس بين الكلمات التي تكتب اواخرها املائياً بالياء بمجرد تنقيط اليا آت الواقعة في آخرها، وقد اهاب بكتّاب العربية ان يلتزموا التنقيط فيما يقرأ بياء صريحة من هاتيك الكلمات، نفياً للشبهة وحرصاً على وقت القراء، ونهضته بالثقة من مهاوي التردد، ثم ضرب الامثال تلو الامثال، تأييداً لنظريته المشار اليها، فأجاد وأفاد، بيد اني، عملاً بحرية البحث وتمحيصاً لحقيقة العلمية: اقدمت على تقديم ملاحظتي لكم، على إثر قرره، مؤملاً نشرها وفق ما اخذتم على عاتقكم: —

ان اقتراح الاب انستاس مفيد جداً، وذو شأن خطير، ومضعف لشوكة الوهم والالتباس ولكنه ليس بالقول الفصل في المسئلة، ولا بالقاعدة الجامعة المانعة في الامر، فباب الشبهة وان ضُيق (اي الاقتراح) لا يزال مفتوحاً. لنأخذ مثلاً كلمة (الحبلى) التي مثل بها في مستهل بحثه، وقرر انها اذا لم تنقط بالؤها يؤكد انها هي المرأة الحامل، اما اذا نقطت فيؤكد انها منسوبة الى الحبل — لنأخذ هذه الكلمة نفسها، ولنجعلها معيار الحكم على هذه النظرية — انا اذا فعلنا ذلك، وقنا بتنقيطها، ورسمناها هكذا: (حبلي) تجلى لنا ان غير اللبس لا ينفك مخيماً عليها، فانها تحتمل امرين، والحالة ما شرح: احدهما: ان تكون منسوبة لحبل، وثانيهما: ان تكون من اضافة (حبْلٍ) الى ياء المتكلم، وكذلك (يمني) بمجرد تنقيط يائها الاخيرة لا يحصرها في النسبة الى قطر اليمن كما يراهُ الاب انستاس بل يجوز معهُ ان تكون من اضافة (اليُمن) الى ياء المتكلم ايضاً. ثم لفظة (السامي) المنقطة الياء المتطرفة فماذا نجزم في شأنها؟ هل هي نسبة الى سام بن نوح، ام وصف بالسمو؟ وكذلك قل في الحالي والراضي والمرتضي والغالي والقالي وخلافها من الكلمات الكثيرة التي لا يفارقها شبح اللبس بمجرد تنقيط ليا آتها المتطرفة. واذاً فجماع القول (في نظري) ان تضاف هذه النقرة على ما ارتآه الاب انستاس ألا وهي: التزام وضع علامة (التشديد) فوق ياء المنسوب وما شاكله من ذوات الياءآت المشددة المتطرفة، علاوة على — التنقيط. فيكتب هذا النوع من الكلمات دائماً هكذا: السامِيّ، يمنِيّ، حبلِيّ، الحالِيّ، القالِيّ، أوانِيّ، حوارِيّ، وبهذا الصنيع نأمن جانب اللبس مطلقاً، ونحظى بالمرغوب محققاً

المدينة المنورة عبد القدوس الانصاري

مكتبة المقتطف

مملكة اورشليم اللاتينية

في القرنين الثاني عشر والثالث عشر (١)

جاءنا هذا الكتاب من نحو نصف سنة فقرأناه ثم عرضناه على السفر جفري مدير البروس في مصلحة اللغات الشرقية بالجامعة الاميركية، ونصر المملكة اللاتينية من الصور التي توفر على درسها، فكتب المقالة الآتية بالانكليزية فنشرنا ترجمتها هنا

نشر هذا الكتاب على انهُ الحلقة الرابعة من سلسلة الكتب التي تخرجها الاكادمية الاميركية لتاريخ القرون الوسطى . والغرض منهُ توضيح ناحية من نواحي المنشآت الصليبية في فلسطين

ان دروس الممالك التي انشأها الصليبيون في الشرق يهم البحاث المهتمين بثلاث نواحٍ من نواحي المعرفة—(١) فالباحث في الصلات التي تربط بين الشرق والغرب، يجد فيهِ مجالاً للبحث في زمن اتصل فيهِ الغرب بالشرق زمناً طويلاً وانشأ مملكة غربية في محيط شرقي ، وترك فيهِ اثراً متزايداً في اوضاعهِ وانظمتهِ (٢) اما الباحث في تاريخ الحروب الصليبية فيجد فيهِ الطريقة التي جرى عليها الصليبيون في تحقيق ما يرمون اليهِ في جماعة مستقرة بعد ما قاموا بما قطعوهُ من العهود على الكفاح في سبيل تحرير الاراضي المقدسة من سيطرة غير المسيحيين. (٣) اما الباحث في تاريخ القرون المتوسطة فيرى فيهِ صورة جلية او مثلاً صافياً لعمارة قدنية (اقطاعية) تحاول ان تسير سيرها الطبيعي من دون ما يعيقها او يعيق العمارات القدنية في اوربا

ومملكة اورشليم اللاتينية ، انشأها زعماء الحرب الصليبية الاولى بعد افتتاحهم اورشليم ونصّب جودفري ده بويون اول ملك عليها ، مع انهُ رفض —وظل يرفض بعد تنصيبهِ— ان يدعى ملكاً لان اورشليم في نظرهِ بقعت من القداسة ما يجب ان يمنع ايّاً كان ان يدعو نفسهُ ملكاً عليها . وكان زعماء الحرب الصليبية الاولى قد تعوّدوا النظام القدني في حكم في بلدانهم ، فكان لابدَّ لهم ان ينشئوا الممالك التي ينشئونها في الشرق على مثال قدني.

(1) Feudal Monarchy in the Latin Kingdom of Jerusalem 1100—1291 John L. La Monte, Massachusetts 1932, Medeiaval Academy of America-Price 4.50 Dollars

فاعترضتهم صعوبتان — ان سكان البلدان الشرقية التي دخلوها كانوا قد تعوّدوا قانوناً عرفياً يختلف عن قانون اي شعب من شعوب البلدان الغربية في اوربا . فكان لا بدَّ للنظام الجديد ان لا يغضي عن هذا الفرق . (٢) كان البابا الداعي الى الحرب الصليبية وكان لهُ ممثل بين زعماء الصليبيين ، وكان هذا الممثل يحمل تعليمات خاصة ترمي الى وجوب مراعاة حقوق الكنيسة في كل البلدان التي يفتتحها الصليبيون وكان الزعماء يعرفون هذه الصلة التي تصلهم بالبابا ، ومعرفتهم هذه عدّلت من نواحٍ مختلفة النظام الجديد الذي ابدعوهُ للممالك التي انشأوها

وقد اضطلع المستر « لامونت » في الكتاب الذي بين ايدينا بدرس تطوُّر الاوضاع في المملكة اللاتينية التي انشأها الصليبيون . وصحيح ان غيرهُ من البحّاث عالج الموضوع من نواحيهِ التاريخية والتجارية واثر الاتصال بين الشرق والغرب في الأدب وغيرها ولكن المستر لامونت اقتصر على ميدان معيَّن من البحث يختلف عما تقدم . وهو نظام الحكومة في المملكة اللاتينية . فتناول في القسم الاول من الكتاب تاريخ التطور الدستوري في تلك المملكة ثم في القسم الثاني عرض لنظام الادارة وفي الثالث عالج الصلات السياسية بين ملوك اورشليم

والذي يهمنا من القسم الاول ما يوضحهُ المؤلف من غوامض الخلافة في ملوك اورشليم . وليس من الامور الخفية كيف تطرّق الضعف الى المملكة رويداً رويداً بسبب الخلاف الدائم بين الاحزاب المتباينة على مسألة « من يقام حاكماً على المدينة » . ولكننا لم نرَ قبل هذا الكتاب كتاباً يحتوي على مثل تفصيلاتهِ الدقيقة المبنية على درس دقيق للوثائق الاصلية — وهو كذلك اول من بيّن انشأن العظيم الذي كان يعلّق بفكرة الخلافة عن طريق النساء في خلال تلك المدة . وان القارىء في العصر الحديث ليقف دهشاً اذ يقرأ القصة التي لا تنقطع حوادثها عن سيدات حسان كنَّ يتزوجن رجلاً ثم آخر ثم آخر . من دون رفيقهنَّ . لان مصلحة الدولة (الاسرة الحاكمة) كانت تقتضي ذلك

اما القسم الثاني . وهو القسم الذي يهمُّ القارىء بوجه عام — فيتناول نظام المملكة الدستوري تناولاً مبنيًّا على مراجعة واسعة النطاق للاصول التاريخية . فهناك يقرأ عن (المجلس الاعلى) وتأليفهُ ومدى سلطتهِ ؛ وقد كان اعلى مجلس تشريعي في البلاد . ثم يلي ذلك بحث في المجالس التي دونهُ (كمجلس الطبقة الوسطى) الذي يتناول شؤون الرعية الفرنجية التي تحت طبقة الاشراف فالمجلس الذي يتناول الشؤون التجارية فالمجلس الذي يتناول الشؤون الحربية البحرية والشؤون التجارية البحرية ، والقواعد التي بمقتضاها يحكم السكان السوريون بحسب شرائعهم وعاداتهم

وفي هذا القسم يبحث كذلك في حقوق وواجبات كبار الفرسان من موظفي المملكة ، وقد كان النظام الذي يشملهم منقولاً عن النظام الفيودالي في اوربا . وهذا يفضي بهِ الى درس

العلاقة بين هؤلاء الفرسان بالجنس الاعلى وحقوقهم في الاقطاع وتفصيلات الخدمة العسكرية ونظام الهيئة الحربية في البلاد لانهُ كان لها اكبر مقام في نظام الحكومة اذ كانت البلاد في حالة حرب دائمة مع اعدائها من الامم غير المسيحية التي كانت تحيط بها . وهذا البحث يفضي بطبعهِ الى البحث في ادارة البلاد من الوجهة المالية

اما القسم الثالث من الكتاب فيتناول علاقة ملك اورشليم بامراء انطاكية وكونتات طرابلس وادسا من ناحية، وبالبابا والقسادة الرسوليين من ناحية ثانية، وبطوائف الفرسان Templars وال Hospitallers من ناحية ثالثة ، وبالطوائف التجارية من ناحية رابعة. وكل هذه العلاقات كانت تحدُّ من سلطة ملك اورشليم وحريتهِ

هذا ميدان البحث في الكتاب اما من حيث قيمته فنقول انهُ اول كتاب من هذا القبيل مبني على درس وافٍ وبحث لم يهمل شاردة ولا واردة من الاصول التاريخية . ومع ان المؤلف يتناول في بعض الاحيان مسائل مختلف فيها ، لكنهُ يتناولها بروح من الانصاف والتجرّد ويبسط الادلّة التي يعتمد عليها في ترجيح الرأي الذي يأخذ بهِ ، بسطاً وافياً . فالكتاب مرجع لا يستغني عنهُ المهتم بدرس عهد الصليبيين . ففيهِ من ناحية اهم الحقائق التي يهمّ الطالب في بيان سهل وايجاز غير مخلّ ، ومن ناحية اخرى ذكر لاهم المراجع الاصلية للاختصاص

وقد طبع الكتاب طبعاً متقناً ويحتوي على بيان المراجع وملاحق مختلفة لتسلسل الملوك وقوائم باسماء كبار اصحاب المناصب ولصور بعض الاذاعات والمعاهدات التي تخصُّ المملكة اللاتينية

اما الباحث الشرقي المعنيُّ بموضوع الحروب الصليبية فيجد في هذا الكتاب امرين جديرين بعنايتهِ . اولاً . اذا كان من السهل الحصول على الاصول الشرقية التي عالجت موضوع الحروب الصليبية ، فمن المتعذر عليهِ الحصول على الاصول الغربية لانها في الغالب غالية الثمن ومكتوبة اما باللغة اللاتينية او باللغة الفرنسية القديمة . ولكننا نجد في هذا المؤلف موجزاً يصحُّ الاعتماد عليهِ ؛ لاهم الحقائق ، مستقاة من هذه الاصول . ثانياً . اذ حاولنا درس الموضوع في اصولنا الشرقية نظرنا الى المملكة اللاتينية من الخارج ، كما نظر اليها كتّاب هذه الاصول وهم في الغالب من الشعوب التي انشئت المملكة بين ظهرانيهم . ولكننا نجد في هذا الكتاب صورة جلية لنظام المملكة كما رآهُ الناس اشتركوا هم في انشائهِ وادارة شؤونهِ . وهذه الصورة التي رسمها المستر لامونت تمكننا من نقد ما قالهُ الكتّاب الشرقيون ؛ فنعرف ما بلغوه من الدقة في كتابتهم او تمكننا من فهم ما يقولونهُ وتفسيره التفسير المعقول

واذا لم يكن المستر لامونت قد خدمنا الاّ هذه الخدمة لحسبهُ

انفاس محترقة

شعر محمود ابو الوفا — طبعته دار الهلال — ثمن النسخة ٥ قروش

عُنيت دار الهلال بطبع ديوان الشاعر محمود ابو الوفا وطلب الشاعر من رئيس تحرير هذه المجلة كتابة المقدمة لديوانه فكتب ما يلي : —

اذا طغى الاستبداد على الحرية ، وتغلبت المادة على الروح . وضؤل نور الامل الفياض حتى كاد يخبو ، واستبدت القوة الغاشمة بالحق فوارته الى حين : عجزنا عن بلوغ الطمأنينة النفسية الا في خمائل الروح الخالدة . ذلك ان الانسان كائن روحي ، مهما يعارض في ذلك السلوكيون ، نزاع الى ما يمكنه من التغلب على نواحي الحياة المادية واخضاعها لمطالب الروح العليا . فنلتفت عندئذ ، بداهة ، الى الشعراء والفلاسفة الذين نسمع في إنشادهم ألحان النزاع النفسي العنيف ، فأهازيج النصر ، فأنغام الاستقرار في ساح الحرية والمحبة والأمل والحق

والشاعر في نظري ، هو من تأخذ الحياة بتلابيبه وتدفعه الى الانشاد قصراً . ففي طبيعته الدقيقة الحس ، تلتقي الافكار والاخيلة والاحاسيس ، وتختلط وتندمج ، ثم تخرج صوراً جديدة لا أثر فيها لاعنات الفكر ، ولا لكد الخيال ، ولا لتكلف الشعور ، ومن هنا أرى ان سماحة القريحة في الشعر spontaneity . هي في طليعة ما يمتاز به الشعر العالي — وحسبي ان أقول الشعر وكفى

فالشاعر اذ تتملكه صورة ما ، لا يبرح يقلب فيها النظر ، حتى تنبثق من عقله الباطن آراء درسها ومثلها بالتأمل الطويل ، يوشيها بذهب خياله الوهاج ، ويعمرها بنار شعوره ، فتخرج في الكلام الذي يمنحها تواماً خارجياً ، صورة لست تجد فيها الفكر الذي نسج آراءها ، ولا الخيال الذي وشى حواشيها ، ولا الشعور الذي نفخ فيها روعة الحياة . بل تجد شاعرية شاعر ، اجتمع فيها التفكير عميقاً صافياً ، والخيال جريئاً وثاباً ، والشعور متأججاً صادقاً ... في الفاظ كأنها في معانيها ومبانيها وجرسها ومواقعها آيات التنزيل . هذه هي وحدة الاندماج في الشعر العالي بين أقانيمه المتباينة

ونحن اذا رجعنا الى تاريخ الادب في أمة من الامم وجدنا عصور الانحطاط في الانتاج الشعري موسومة بسمة التفكك في هذه الوحدة ، فيتفوق العقل على الاقانيم الاخرى ، ويسمو شأن الصناعة ويضمحل شأن «السماحة» أو «الطلاقة» . بذلك اتصف عصر دريدن في الشعر الانكليزي على ما بين المستر درنكووتر في محاضراته . وبالطلاقة وارسال النفس على سجيتها امتازت عصوره الذهبية في ايام شكسبر وشكسبير ووردزورث وكيتس وشلي

***

لم تهيئ الطبيعة الملكة التي تمكنني من معالجة الشعر . وانا مغتبط — وأحسب جمهور

القراء معتبطاً كذلك — انني اعرف هذا . فأنا اذ أقرأ الشعر ، وأجد فيه رقيقاً وعنيفاً ، منأى للنفس عن متاعب الحياة ، أبحث فيه عن سر أثره في نفسي فأجد صفة «السماحة» او «الطلاقة» التي ذكرت . اذ ذاك تكون القصيدة في نظري كالجدول المنساب في الروض المعرع . تحف به على جانبيه الخمائل المعطارة . تعطره أشذاؤها ، ويطربها خريره ، فترتشف حواسي من القصيدة ، ما ترتشفه من روعة الجدول والروض ، وترتفع نفسي ، في الحالتين ، على ذرى التأمل في أسرار الكون والحياة ، الى عرش السماء . فأنا في تلك اللحظة ، ابن الكون المطلق لا ابن الارض الملتصق بالرغام

ولعل بحثي المبهم عن هذه السمة في الشعر ، حملني على الاعجاب بشعر « أبي الوفا » اذ قرأت له:

لغة البلابل أين تذ هب بين هدهدة الهداهد

فتمثل لي العراك العنيف بين الخير والشر ، بين الضعف والقوة ، منذ فجر الحياة البشرية على الارض الى يوم الناس هذا ، في صورة قليلة الخطوط ، زاهية الالوان . واذ قرأت له

أحب أضحك للدنيا فيمنعني ان عاقبتني على بعض ابتسامات

فأحسست بصدق الشعور وتجلى لي ألم النفس ، فتخيلت أنني الشاعر ، أراجع ما عاقبتني به الدنيا على بسمات ساذجات كبسمات الطفل . فردتني ناقماً ساخراً ، تمنعني نقمتي وسخريتي من ان أحاول الابتسام ثانية . واذ قرأت لهُ :

كأنني فكرة في غير بيئتها بدت فلم تلقَ فيها أيَّ اقبالِ
او أنني جئت هذا الكون عن غلط فضاق بي رحبه المأهول والخالي

واذ قرأت قصائد « ذكرى » و « حيرة » و « الايمان » وغيرها

فقلت في ذات نفسي ، في شعر هذا الشاعر سماحة القريحة التي يمتاز بها الشعر العالي ، فرغبت اليه في ان يشاركني في ذلك رهط الادباء من قراء المقتطف ، ونشرت له فيه ، قصائد «الايمان» و «حيرة» و «أريد» و «ضحية العيد» و «تغريدة» و «من الاعماق» و «ذكرى» و « الى صاحب البؤساء » وغيرها ، الخارجة من اعماق نفسه ، الجامعة لصفوة نظره الى الحياة ، الموشاة بوشي خياله الذهبي ، المطبوعة بطابع شعوره . وأحسب أنها وحدها تكفي لتجعل صاحبها شاعراً . . وحسبه هذا !

ان ديوان « أبي الوفا » صفحة من حياته — وحياة الشاعر حياة الانسانية ، في قلبه أملها وألمها . وفي عقله حيرتها . وفي وجدانه معتركها — فأنت ترى الحياة في هذا الديوان ، قطرة ندى . وشذى وردة . وثورة بركان . وايماناً وبؤساً وأملاً ، وارادة صلبة وأنفاساً محترقة . واني لشديد الغبطة ان أتيح لي تقديمه الى أدباء العربية ، اولاً على صفحات المقتطف وثانياً بين دفتي هذا الديوان . وأنا واثق ان الشاعر لن يخيب ظننا في تحقيق ما نتوقعه منه . والسلام

نابغة بني شيبان

ان العربية لتُزهى بما تخرجه دار الكتب من المطبوعات كما تزهى الحسناء بجمال وحيدها بعد ان استفتحت الله على عقمها فجاءها بأسباب راحتها ونزعها في وجه رسماً . فنحن بنا لدار الكتب مثل الذي بالحسناء لوحيدها من الحب والعطف والرعاية لانها واحدة جادت لنا بها ايام كزّة بخيلة . وبنا ايضاً مثل الذي بها من الخوف والفزع ان يستفزّها الحدَثُ الى الغرور، وان يستخفها التقاضي الى الاهمال والتعالي وترك الواجب الذي لا يستحلُّ خلافهُ . وقوة ما استقر في قلوبنا من الحدب عليها والتوجه اليها وما يعتلجُ في صدورنا من الخوف والفزع تدفع بنا الى العناية بما تنشره ، ومؤاخذتها على الكبائر والصغائر تنزيهاً لها وتبجيلاً . وهذا «ديوان نابغة بني شيبان» — آخر ما طلعت علينا به — نقول فيه كلمة تنفعها ان شاء الله

﴿تحقيق نسب النابغة ودينه﴾ نقلت دار الكتب في تصدير هذا الديوان كلمة لابي الفرج الاصبهاني في اغانيه « ج ٦ ص ١٤٦ مطبوعة الساسي » التي يقول فيها أن النابغة من شعراء الدولة الاموية «وكان فيما أرى نصرانيًّا لاني وجدتهُ في شعره يحلف بالانجيل وبالرهبان وبالايمان التي يحلف بها النصارى» اهـ . ولم تعلق دار الكتب على هذا بكلمة ، فكأن الديوان لم يطبع فيها ، ولم يهتم بشرحه القائمون بأعمال التصحيح فيها . ذلك ، لأن هذا الديوان الذي بين أيدينا ليس فيهِ قسمٌ واحد بانجيل او رهبان او يمين من الايمان التي يحلف بها النصارى، بل فيهِ ما يدل على ان صاحبه مسلم عريق لم يضرب إلى نصرانية ولا يهودية ، كما سنبين بعد

وتقول دار الكتب في التعليق على نسب النابغة انها نقلته من الاغاني « بعد تصويب الاسماء الخاصة (كذا) بنسبه » ومعنى ذلك انها رجعت الى ترجمة ابيه « مخارق » ثم جده «سليم» الى آخر ذلك فصححت التحريف الذي كان واقعاً في نسبه . وهذا النابغة هو عبد الله ابن مخارق بن سليم ... الشيباني » من بني ذهل بن شيبان ولد ربيعة بن نذار . فلو كانت قد رجعت الى ترجمة ابيه — كما يفهم من كلامها — لعلمت ان « مخارق بن سليم . . . الشيباني » صحابي ترجم له شيخ الاسلام ابن حجر العسقلاني في كتابه « التهذيب » ج ١٠ ص ٦٧ وفي «الاصابة» ج ٦ ص ٦٨ وابن الاثير في « اسد الغابة » ج ٤ ص ٣٣٥ وافرد له امامنا الجليل احمد بن حنبل مسنداً في كتابه «المسند» ج ٥ ص ٢٩٤ — ٢٩٥ وروى من حديثه النسائي في سننه ج ٧ ص ١١٣ . قال ابن حجر في التهذيب « مخارق بن سليم الشيباني أبو قابوس ، روى عن النبي صلى الله عليهِ وسلم..... وروى عنهُ ابناهُ قابوس و «عبد الله» . وقد ترجم أصحاب كتب التراجم — التي بين أيدينا — لابن قابوس لان اسمه ورد في بعض الكتب الصحاح الستة ، ولم يترجموا لعبد الله لان اسمه لم يرد في أحدها ولعلهم لم يعنوا بروايته لانصرافه الى قول الشعر ومدح الخلفاء فقلت روايته للحديث وقام بها اخوه قابوس . وما

نظن إلا أن أبا الفرج قد وهم في قوله بنصرانيته — ولابي الفرج أوهامٌ مثل هذه كثيرة — ولعل الذاكرة طوحت به الى نصرانية نابغة بني الديان الحارثي من ارض نجران . وإلاَّ فكيف يكون نصرانيًّا مَن يقول «الديوان ص ١٧»

ويزجُرني الإسلامُ والشيبُ والتُّقى وفي الشيبِ والإسلامِ لمرءٍ زاجرُ »

وهذا نصٌّ لا يحتاج معهُ الى الاستشهاد ، بكثير مما ورد في شعره من خُلُق الاسلام وأعانه وتجانفه عن الشرك والخبائث كبيرها وصغيرها

﴿ شرح الديوان ﴾ علقت دار الكتب على غريب هذا الديوان ونشكرُ لها عنايتها بذلك ، ولكنَّ ما كان أشد أسفنا حين رأينا هذا الشرح محشوًّا بالاغلاط الواضحة التي نودُّ أن ننزّهها عنها فمن أمثال ذلك قولهم ص ٣ في شرح الكلمة تَعْرُقُ : « تَعْرُقُ : تأكلُ ما على اللحم من عَظْمٍ وتأخذه «كله» ولا ندري كيفَ يكون هذا اللحمُ المكسُوّ بالعظامِ وكيف يؤكل . وقالت في شرح قوله

«وما الناسُ في الاعمالِ إلاَّ كبالغٍ يُبَغِّي ومُثْنِيتُ النياطِ حسيرُ»

«فمُستَلَبٌ منهُ رياشٌ ومكتسٍ وعارٍ ومنهم مُتْرِبٌ وفقيرُ»

المترِبُ : القليل المالِ . فيكون معنى البيت الاخير ان الناس منهم مكتسٍ وعارٍ وفقير ، لأن قليل المالِ هو الفقير لاشك . ونصُّ اللُّغةِ «تَرِبَ تَرِبًا ومَتْرَبَةً . حَسِرَ وافتقر فلزق بالتراب ، وأَتْرَبَ : استغنى وكثُرَ ماله فصار كالتُّراب — كثرةً — هذا هو الأشهر وقيل — وهذه لفظة التضعيف عندهم — قَلَّ ماله . والمُتْرِب الغنيُّ إمَّا على السَّلْب وإمَّا ان ماله مثل التُّرابِ » . فالمعنى (منهم غني وفقير)

وقالت في شرح قوله يصف شعور النساء

« وفروعٍ كاللَّيالي زانها حسنٌ جَميرِ »

الجمير : الطيبُ . ونحن لا نعرف للبيت معنىً بهذا الشرح . وكلمةُ اللغة أن الجمير : هو الشَّعرُ ما جُمِّرَ منهُ وجمرت المرأةُ شعرها جمته وعقدته في قفاها ولم ترسله ، والجمائر الضفائر واحدتها جميرة . والجميرُ من الزينة ولا شكَّ عند النساء

ونكتفي بهذه الامثلة من الخطأ وقلة العناية والاهمال والاستهانة بأمر القراء والادباء

الشعر العربي : وقبل أن أفرغ من كلمتي هذه أُبدي تألمي من احد الكتَّاب المشهورين في زرايته على دار الكتب بطبعها الكتب القديمة من مثل « ديوان جران العود » و« نابغة بني شيبان » . ونقول لهذا الكاتب الفاضل أنهُ ما حَمَلَهُ على ازرايةِ بالشعر العربيّ الا تباطؤه عن الجد في فهم اساليب لغته التي يكتب بها ، وانهُ اذا وجد ثقلاً على نفسه الرقيقة في قراءة شعر العرب المتقدمين فليس ذلك من ذنب الشاعر ولكن من ذنبه هو وذنب الذين وضعوا

برنامج — تدريس العربية في مدارسنا المصرية . ونرغب اليه اذا كان هذا رأيهُ هو ان يكتمهُ عن الناس لئلاّ يصدهم عن الاهتمام بآثار أجدادهم التي لا يبنى الادب العربيُّ الحديث الاّ على اساسها . ونقول ان الذي يفهمُ الشعرَ ويفهم انهُ هو صورة النفس انْ صافيةً فصافيةٌ وان غليظةً فغليظٌ لا يقول مثل هذه المقالة ابداً ، فلا شك فيهِ ان النفوس من آدم الى اليوم هي النفوس البشرية التي لا تتغير أبداً ، وان الادب في كل العصور هو صورة هذه النفوس على اختلافها . وليس أدب اليوم هو الادب الذي لا يُرغَبُ في غيره حتى يكون ما سبق مما نعدهُ ادباً وشعراً كلاماً من مَنطِقٍ لا نفهمهُ ولا نرغبُ فيهِ . ونعدهُ بأنْ نظهر في هذه المجلّة روائعَ من الشعر القديم الذي انطلقت ألسنة هؤلاء الكتاب المشهورين بانتقاصه والنيل منهُ والله الموفق

محمود محمد شاكر

حِكَم الامم

مجموعة من الامثال والحِكَم والاقوال المأثورة باللغة الفرنسية اختارها ووضع ما يرادفها باللغتين العربية والانكليزية محمد افندي عبد الهادي كبير مترجمي محكمة الاستئناف المختلطة بالاسكندرية

في الامثال والاقوال المأثورة تتلخص تجاريب الامم وفلسفتها الحية . والامم تختلف في مواطنها واقاليمها وتجاربها ولغاتها وعاداتها . ولكن لا بدَّ ان تتجلى لها حقائق الحياة الاساسية ، طال زمن التجربة او قصر ، واختلف الاقليم او توافق . ولكن هذه الحقائق قد تتخذ من الالفاظ في امة قالباً يختلف عن القالب الذي تتخذهُ في الامة الاخرى . لذلك قلما تجد مثلاً سائراً او قولاً مأثوراً في امةٍ الاّ وترى ما يوافقهُ معنىً في امة اخرى وان اختلف عنه مبنىً ولفظاً . فالمثل الآتي متشابه في لغات العرب والانكليز والفرنسيين

La force fait l'union Union is strength	الاتحاد قوة

والمثل التالي يتفق معنىً ويختلف تعبيراً

L'esperance est le pain du malheureux	المنى مطية العاجزين

فالمعنى في التعبير الفرنسي « خبز » او قوت المسكين والمنى في القول العربي « مطية » والمطية صورة منتزعة من نعيم الحياة العربية في البادية

او المثل التالي :

L'argent fait tout	المال يحقق كل شيء
Money makes the mare go	المال يدفع الفرس الى العدو
	المال يفتح كل باب موصد

وقد جمع مؤلف هذا الكتاب ٩٣٥ من هذه الحكم والامثال والاقوال المأثورة . فنشكر عنايتهُ وفضلهُ

كتاب المجمع المصري للثقافة العلمية

طبع بمطبعة المقطم — صفحاته ٢١٥ قطع المقتطف — ثمنه ١٠ غروش عدا اجرة البريد

انتخب المجمع المصري للثقافة العلمية احمد محمد حسنين بك الرحالة المشهور ، ليشغل كرسيّ الرآسة في سنتهِ الرابعة . فهو خير خلف لخير سلف ، في هذا الكرسيّ . وقد سبقهُ فيهِ الدكتور علي باشا ابرهيم وحسين بك سرّي والدكتور محمد شاهين باشا . وعلى ذلك يرى القارىء ان المجمع ماضٍ في القيام بالخدمة التي اخذها على نفسه وهي نشر العلوم الحديثة باللغة العربية ، في محاضرات تتلى وتنشر بحرفها او ملخصة ، وتجمع في كتاب سنوي

وقد عقد المجمع حتى الآن ثلاثة مؤتمرات تليت فيها ما يزيد على ثلاثين محاضرة علمية ، جمعت وطبعت في ثلاثة كتب سنوية هي من خير الكتب التي اخرجتها المطابع العربية في العهد الاخير . وقد عقد المجمع مؤتمرهُ الرابع في الاسبوع الواقع بين ١٢ مارس و٢٠ مارس في دار الجمعية الملكية للحشرات بالقاهرة . وتليت فيهِ ثماني محاضرات علمية نفيسة

وعلى ذكر هذا المؤتمر نقول ان كتابهُ السنوي الثالث قد خرج من المطبعة وهو في ٢١٥ صفحة من قطع المقتطف والهلال يحتوي على احدى عشرة محاضرة في موضوعات علمية متنوّعة اولاها محاضرة الرآسة لحضرة صاحب السعادة الدكتور محمد شاهين باشا وموضوعها « رسالة رجل الصحة للعالم » واخرى للدكتور علي باشا ابراهيم مدير الجامعة بالنيابة وعميد كلية الطب في « التعليم الطبي بمصر » جاء فيهِ على تاريخ مدرسة قصر العيني وتقدمها . ويلي ذلك محاضرة شائقة للدكتور حسن صادق بك مدير ادارة المناجم والمحاجر وموضوعها « التفسير العلمي للمناظر الطبيعية في مصر » . ثم محاضرة للدكتور مشرّفة موضوعها « الاعداد العلمي ومستقبل النشء » . فمحاضرة في « الالكترون والبروتون ومكتشفيهما » للاستاذ فؤاد صروف رئيس تحرير المقتطف . فمحاضرة في « التأمين على صحة الطفل » للدكتور شخاشيري . فمحاضرة موضوعها « العلاج وتقدمهُ في خلال العصور » للدكتور جورجي صبحي الاستاذ بكلية الطب . ثم بحث بيولوجي لغوي في « النوع وتصنيف الاحياء » للاستاذ اسماعيل مظهر . وآخر في « الدم » وما يعرف عنها للدكتور محمد رضا مدور الفلكي المقيم بمرصد حلوان . ثم فصل في « الصناعات والعلوم » للدكتور احمد زكي استاذ الكيمياء في كلية العلوم فبحث مبتكر في « خبز الذرة والحلبة » للدكتور علي حسن الاستاذ المساعد للفسيولوجيا في كلية الطب

ولا ريب عندنا ان هذا المجمع يؤدي خدمة كبيرة للثقافة العلمية العربية بالقاء امثال هذه المحاضرات ونشرها في كتب سنوية متقنة الطبع سهلة الاقتناء . وبعض هذه المحاضرات سوف يكون في المستقبل ، اذ نراجع تاريخ نهضتنا ، اعلاماً في طريقها . فالمحاضرات الصحية النفيسة التي اعدّها الدكتور شاهين باشا والدكتور علي باشا ابرهيم والدكتور محمد حليل عبد الخالق بك تبين الخطوات التي تخطوها مصر في سبيل ترقية التعليم الطبي والاصلاح الصحي .

والمحاضرات الهندسية التي القاها حسين سري بك والدكتور عبد العزيز احمد بك والدكتور حسن زكي تتعلق ذلك من الناحية الهندسية . وكلها بوجه الاجمال تضيف الى ثروة اللغة العربية في اللفظ العلمي ولا بدَّ ان تكون في المستقبل مصدراً من مصادر المعجم العلمي العربي

الضحايا

مجموعة اقاصيص — بقلم شبلي جماني — مطبعة مصطفى البابي الحلبي صفحاتها ٢٩٠ — قطع وسط

اجاد الاستاذ خليل مطران اذ قال في المقدمة: «فاما العرب فقد آثروا بحكم طباعهم سوق كل نبإ على التجريد لا يعدون لباب الخبر ، ولا يتناولون من صفة الاشخاص سوى ما يعلق لزاماً بذلك اللباب . فعدوا ذلك باجادة انشائية لا تضارع وايجاز في السرد يكاد يكون غاية في الايجاز ، ولم يقدروا للمطالع حاجة الى الوقوف على غير الجوهر او صبراً على تبسط .... واما الفرنجة فهم يصفون في الاقصوصة بالكلمة العاجلة ما يهيء للقارىء الزمان والمكان ، ويبينون بالعبارات السريعة مقوّمات كل شخص ومميزاته ، ويكدّون الذهن في تصوير النوازع النفسية والخلجات الوجدانية ، ويدخلون الحوار ، وان لم ينفسح الا لاقله ، ليقذف في روعك انك تشهد وتسمع من تقرأ سيرتهم . » ويرى ان المؤلف توسط بين منحى العرب ومنحى الفرنجة «فانتقى من الانباء المشهودة او المنقولة عن التاريخ ما فيه مظنة عبرة .. لا يريد بالخبر الذي يحكيه لذاته الخبر بذاته بل بكل ما يحيط به من صور وذكريات وامور لها خطرها وموقعها المتمم الغرض المقصود

ولا ريب في ان المؤلف موهوب في سرد القصص بارع في ايراد الحوار ، سليم اللغة تقيُّها في قليل من التبذُّل اللفظي وهو مما لا غنى عنهُ لكاتب يعالج تحبير المقالات للصحف كلَّ يوم . على ان المجال الذي اختارهُ لقصص هذا الكتاب يتنازع صاحبهُ بين الامانة للتاريخ والاخلاص للفن . ومن النادر بين كبار الروائيين من بلغ الغاية في حسن الجمع بين الاثنين . اما «مظنة العبرة» غرض المؤلف او «تغذية العقول بالوان الطرائف» . فنقول ان المؤلف اجاد في تحقيق هذا الغرض . ولكن بعض القصص التي قرأناها شوهتها رغبتهُ في استخلاص العبرة مع ان القصة نفسها يجب ان تكون العبرة المطلوبة . فقصة «خليلة الشاعر» لا تحتاج الى اي تفسير بقوله «هذا ما فعلهُ الشاعر الخ» لانها تبلغ عندما يبلّ الشاعر حلق عدوه الظامىء ذروة لا تحتمل كلمة بعدها

الانشاء التعليمي

وضع هذا الكتاب الاستاذان الفاضلان محمد شفيق معروف ومحمد عبد الغني الاشقر وهما مدرسان بالمدارس الاميرية وجعلاه وفقاً لاحدث منهج اقرَّته وزارة المعارف العمومية للمدارس الاولية والابتدائية وبين يدينا الجزء الثاني منه وهو كتاب مفيد في بابه اقتبس احدث ما وصل اليه التعليم في اللغات الافرنجية وقد طبع طبعاً متقناً على ورق جيد في المطبعة السلفية بمصر فنوجّه اليه انظار التلاميذ لينتفعوا باسلوبه وموضوعاته وثمنه خمسون مليماً

علم استخلاص المعادن

تأليف المهندسين يوسف العارف وحسن حسني عبد الحالق وعثمان عبدالله صفحاته ٢٧٢ قطع المقتطف
طبع بالمطبعة الحديثة بمصر سنة ١٩٣٢ غرشاً

استعمل البشر المعادن أولاً لصنع أدواتهم وأسلحتهم ولكنهم لم يكثروا من استعمالها الاّ بعد الثورة الصناعية التي حدثت في انكلترا وما عقبها من التوسع في استعمال الآلات في المنا جم ومعامل الغزل والنسج وبناء السفن والقطارات . ولا ريب في ان نجاح الثورة الصناعية في انكلترا انما يعود في المقام الاول الى وجود المعادن الضرورية فيها كالحديد والفحم جنباً الى جنب. فلما استنبط بسمر طريقة جديدة لصنع الصلب بعث في الصناعة الانكليزية حياة جديدة ثم اقبل الالمان على الاساليب الصناعية المستحدثة واجمع رجال السياسة والصناعة والحرب منهم على تسخير مناجم الافرنس واللورين . ثم استنبطت الاخلاط المعدنية وتعددت وخصوصاً الاخلاط الحديدية وكل منها يمتاز بصفات تختلف باختلاف المعدن الذي يخلط بالحديد. وكذلك اصبح رجال الصناعة والحرب يحتاجون الى الفناديوم والتنجستن والمولبدنوم والالومنيوم والكروم والكوبلت والنيكل وغيرها بعد ما كان استعمال هذه العناصر محصوراً في المختبرات العلمية . واعتماد الصناعة على الاخلاط الحديدية المختلفة كان فاتحة عصر جديد في الصناعة والحرب.

وكانت حدود البلدان في العصور الغابرة تعيَّن وفق مقتضيات الزراعة ولكنها لم ترتبط بتوزيع الثروة المعدنية . والثروة المعدنية اصبحت في هذا العصر لا تندوحة عنها لنجاح الصناعات في اثناء السلم ولتجهيز الامم بادوات القتال في اثناء الحرب فلا بد من تعديل الحدود واقامتها على هذا الاساس الى حدّ ما

هذه كلمة تبين ما للمعادن من المقام في العمران الحديث في حالي السلم والحرب. والكتاب الذي بين ايدينا يبسط من الوجهتين العلمية والعملية الطرق الحديثة في استخلاص المعادن. ففي الفصلين الاول والثاني كلام عام في خصائص المعادن كالصلابة وقابلية الصهر والمدّ (الاستمالة كما ذكرها المؤلفون) والطرق والتطاير وغيرها وتفسير بعض المصطلحات المستعملة في استخلاص المعادن كانواع المعدن (البكر والنطل) وانواع الافران (او الاتاتين) والخبث والهشاشة وغيرها من صفات المعادن . ويلي ذلك تسعة فصول في استخلاص الحديد والصلب على انواعهما وقد خصصوا الجزء الاكبر من الكتاب للحديد ومستخرجاته لما له من الشأن في عالم الصناعة في العصر الحاضر الذي اطلق عليه بحق عصر الحديد . اما الفصول الباقية وعددها احد عشر فصلاً فتتناول النحاس والزنك والقصدير والرصاص والفضة والذهب والنيكل والالومنيوم والكروم والمنغنيز الانتيمون والمغنزيوم والبلاتين . وما ومصر سائرة في سبيل انهاض الصناعات من كبوتها واقامتها على اساس علمي عملي حديث فهذا الكتاب يصبح له شأن خاص في توجيه الانظار الى الاركان الصناعية . ونرى ان المؤلفين مصيبون في قولهم ان ما يلتمسهُ البعض من المعادير لسقوط الصناعة في مصر خطأ ظاهر وان الامر لا يقتضي الاّ عقولاً مفكرة وعزائم ماضية

أغاني أبي شادي

اخرج الدكتور أبو شادي كتاباً جامعاً فيه من شعره كل مذرآه جديراً بالتلحين منسجماً مع موسيقى التنغيم حتى تألفهُ الأذن وترضاه العاطفة فتذهب كل مقطوعاته أو بعضها في عالم الغناء إلى مدى ما يرضاه هو أو يرضاه لها الأدباء وغير الأدباء من عامة المثقفين

والشاعر جريء في هذه الحلة الشعواء التي حمل بها على الأغاني الدارجة التي ألفها الشعب والتي لا يريد أن يألف غيرها قبل نضوج فكري يستغرق منه تهذيباً عميقاً ذلك لأن الطبع المصري من طراز الطبع السامي لا يرتاح إلى التفكير العميق في التماس أسباب المرح والمتعة وإنما يريد أن يستشفها في حياته كما لو كانت من وراء زجاجة وهو في ذلك على نقيض الطبع الآري الذي منه الاوربي والفارسي والهندي

ولعل أول ما يحس ، القارىء الأديب في هذه الأغاني روعة الابهام الرمزي الذي يتغلغل فيها ؛ وترف ألفاظها التي تحمل أخيلتها إلى القارىء « المتأمل » على أجنحة هفافة لا يكون حظ الفكر منها بأسعد من حظ الخيال نفسه ! والابهام الرمزي في ذاته جمال رائع بل هو في عرف أفذاذ الناقدين « براديلي » و« لي هنت » العنصر الأول في الاسلوب . ونجد امثلة كثيرة في الأغاني يشع منها نور الابهام الرمزي فاقرأ مثلاً « أغنية اللهيب المقدس » وفيها يقول

قد رشفنا مُنى الحياة بثغر وارتوينا من اللهيب المقدس

وهذه الاغنية هي أول ما صادفني من شعر الديوان وقد أحسست بشعور غريب وأنا أقرؤها . . فقد خيّل إلي انني في مدينة سحرية من مدن الخيال . . من مدن الشفق او الفجر أو انني في معبد بوذا ألمح لهيب الآلهة المقدس وقد حجّبه الضباب

كان هذا شعوري الخاص وأنا أتلو هذه « الصلاة » وهو شعور الفن المثقف وليس شعور العاطفة الساذجة التي تريد أن (١) تشعر ثم (٢) تغنّي .. لا أن (١) تفكر (٢) ثم تشعر (٣) ثم تغنّي ! . فالفلاح لا يعرف شيئاً من مدن الشفق او الفجر .. والفلاح لم يقرأ شيئاً عن معبد بوذا وكل ما رآهُ الفلاح في عالم السحر والخيال هو لهيب « ابو شعلة » وهو الشيطان الذي يخلقه في وهمه ليخيف به صغاره ! ! . ولست أكذبك أيها القارىء انني شعرت بلذة لا تعدلها لذة وأنا أقرأ هذه الأنشودة وقلت في نفسي أما كان الأحرى بالدكتور أبي شادي أن يطلق على كتابه « أغاني وصلوات » بدلاً من « أغاني » فقط ! !

وهناك امثلة أخرى كثيرة من هذا النوع في الكتاب وحسبك ان تقرأ قبلة البرتقال وفيها يقول

عشقتُ عصير البرتقال فذهّبت بعسيره الناريّ من شفتيها
ورشفتُ أخرى بعد أن جادت بها فاستلفت حبلو غرامها بيديها

حتى إذا لم تبق منها نفحة وظلت كالثمالة عاد اليها
جادت عليّ بقبلة معسولة جمعت شعيّ الخمر من حلويها
فغنمت خمر البرتقال بثغرها وغنمت خمر الحب من شفتيها

ولكنني آخذ على الدكتور اشياء كان يجدر به أن يراعيها وهو إهمال التروّي في بعض الصور الشعرية مثال ذلك قوله

رحلت عنك رحيل الطيب عن زهر يودي به البعد لولا حبك الداني

فقد شبه نفسه بالعطر وشبه حبيبته بالزهر وفي هذا التشبيه غرابة لو تروّى فيه قليلاً وقوله: وتخلت حتى بالعناق لعلني أمضي الضحية في سرور الواعي

كأن وراء العناق غاية وهي كما يراها ابن الرومي ونراها نحن غاية الغايات وفي ذلك يقول ابن الرومي

أماتتها والنفس بعد مشوقة اليها .. وهل بعد العناق تدان

والدكتور ابو شادي يجعله في الشطر الاول كأنه شيء تافه فيؤنبها لانها بخيلة «حتى بالعناق» وقوله: تتلاقى الشفاه وهي ظماء ثم تظمى على ارتواء وتنعس

وأنا أظن أنه لو غيرنا بعض ألفاظ البيت بألفاظ أخرى لجاء البيت رائعاً . فيمكننا أن نقول

تتلاقى الارواح وهي ظماء ثم تروى فوق الشفاه وتنعس

وفي الختام نقول إن الدكتور قد اضاف إلى مجهوداته الفنية آية جديدة

م . ع . الهستري

الظمأ

مجموعة اشعار — الدكتور علي الناصر — مطبعة العارف حلب

مقطوعات شعرية طيبة ارسلها صاحبها حرة طليقة بكل معنى كلمتي الحرية والانطلاق فهي مرة في سمورة ما يسمونه الشعر المنثور ومرات اخر في انماط مستحدثة من الشعر المنظوم ولكنها جميعاً ملتقية في عدم التقيد بأي قيد او اي اعتبار لذلك يحسن بقارئها ان لا يستعجل الحكم على الشاعر وان لا يأخذه الا بالرفق والتأني . اما التأني فلأن هذا النوع من الشعر لا يزال جديداً على اسماعنا التي الفت القوافي العربية الصقيلة ولم تتعود بعد إلا النغم المطرد المتناسق واما الرفق فهذا نحتاج اليه عند النظر الى الصيغ والعبارات أو الى الالفاظ التي ربما نرى الشاعر فيها قد خرج قليلاً عن المألوف في القواعد التقليدية كقوله (بقوعي) بدلاً عن بقاعي الى غير ذلك من هذه الاشياء . أجل نحتاج الى الرفق بالشاعر في مثل هذه الملاحظات لاننا نعلم مقدار ما يعانيه هذا الشاعر وأمثاله المسرفون في التجديد في سبيل تطويع اللغة العربية تطويعاً يتفق وما يريدونه من المعاني والاغراض ثم يتفق مع النغم الذي يختارونه قوالب لهذه

المعاني والاغراض . وأخيراً لاجل ان ننصف هذا الشاعر ولأجل ان نتابعه باطمئنان يحسن بك أن تسمع ما قاله الفيلسوف امين الريحاني في تقديم هذا الديوان: قال وان افق شعره ليحيط بنزعات متعددة متباينة وبأساليب هي صنوان القوة متنوعة البذور فيها زاهر وفيها ما لا يزال في البراعم والاكمام. ولعمر الحق ان هذا الادق وصف ينطبق الآن على شعر هذا الشاعر الطبيب

شرح بشارة يوحنا

وهو الجزء الرابع من كتاب « المرشد الامين في شرح الانجيل المبين » تأليف القس ابرهيم سعيد استاذ علم التفسير بمدرسة اللاهوت ، وفيه ٨٦٠ صفحة . وقد استعان المؤلف في كتابته بنحو عشرين كتاباً اكثرها باللغة الانكليزية . ذكرها في صفحة ٨٦١

والمؤلف يستعمل تارة لفظة «شرح» وتارة كلمة «تفسير» كما في ص ٢٥ — عنوان الاصحاح الاول . هنا يستعمل كلمة «تفسير». كذلك في ص ٨٦١ يقول: استعان بها المؤلف في تفسيره

فيظهر انه يعتبر تأليفه شرحاً تفسيرياً . والتفسير مذاهب . منها المذهب الحرفي، وهو الذي يفهم بعبارات الكتاب مدلولها الحرفي . فاذا قال الكتاب . ان الله خلق العالم في ستة ايام . فهم بذلك ، ستة ايام عادية ، في كل يوم ٢٤ ساعة . والمذهب الروحي . وهو الذي يعتبر المبدأ الروحي في الكتاب ويطبق العبارات عليه . والمذهب الرمزي وهذا قد تبعه بعض الاباء في الاجيال الوسطى. ومنها المذهب النقدي او الانتقادي . وعليه كثيرون من علماء الالمان . والمذهب اللغوي التاريخي وهو الذي يؤيده الدكتور جيمس انس المعروف في سوريا واميركا . ولكن حضرة المؤلف اجتنب كل ذلك ونهج نهجاً سهلاً متواضعاً جميلاً . فشرح الكتاب شرحاً تفسيرياً — وبالاحرى وعظياً . اورد في كل موضوع الآراء التي يراها فيه بصورة اقسام وعظية . واليك بعض الامثلة

جاء في ص ٢٦ عن ديباجة البشارة . تتضمن هذه الديباجة اربعة افكار رئيسية

١ً — الكلمة في جلاله ٢ً — الكلمة في ظهوره ٣ً — الكلمة المرفوض ٤ً — الكلمة المقبول

وانت ترى انها اقسام عظة موضوعية ثم قال في القسم الاول . الكلمة في جلاله

١ً — الكلمة في جلاله الذاتي ٢ً — الكلمة في جلاله النسبي

وهما قسما عظة ايضاً

وقال في شرح القول : والظلمة لم تدركه . تفيد كلمة (لم تدركه) اربع درجات متتابعة

١ً — عدم الادراك لوجود النور ٢ً — عدم فهم النور وسره ٣ً — عدم البلوغ والوصول الى النور لنيله ٤ً — عدم الانتصار على النور والعجز عن الظفر به

وجاء في شرحه ص ١٥ : مثل الكرمة : يتضمن هذا الجزء ثلاثة افكار رئيسية

١ً — مقام التلاميذ من المسيح ٢ً — موقف العالم تجاه التلاميذ ٣ً — النصرة على العالم

ويجوز ان تنظر الى هذا الجزء نظرتنا الى جمعة فيها سبعة سهام نورانية
(١) التلاميذ والمسيح (٢) التلاميذ وبعضهم ازاء بعض (٣) التلاميذ والعالم (٤) العالم والمعزّي (٥) المعزّي والتلاميذ (٦) حزن يستحيل الى فرح (٧) نصرة بعد كسرة
وقال في شرح المحبة :ص ١٢—١٧
(١) محبة مضحية بنفسها (٢) محبة رافعة (٣) محبة لها فضل التقدُّم
وأنت ترى ان كل ذلك ترتيب مواعظ . فكأنك تجتاز في حديقة مواعظ كلها طرائف ازهار وعوابق رياحين . ترتاح اليها النفس ويستفيد منها محب المؤلف وهي مطابقة لروح الكتاب وغرضه ، وتدل على اخلاص المؤلف وسعة اطلاعه ***

جلفر

تأليف جوناثان سوفت — نقله كامل كيلاني — طبعته ونشرته مكتبة المعارف

نعرف والماً من سراة القوم شديد العناية بتعليم ابنه اللغة العربية من نعومة اظفاره ، ولكنهُ لا ينفكُّ يشكو لنا عجزهُ عن وجود كتب عربية وافية للاحداث يقرأونها فتغريهم بالاقبال والاستزادة لطرافة في موضوعاتها وجودة في طبعها وسلاسة في اسلوبها . فاهدينا اليهِ بعض القصص التي اخرجها ناقل هذا الكتاب فسرّ بها الولد ولكنهُ كان قد تخطّاها فظلت مسألته ما يمكن ان يقرأهُ بالعربية مشكلة معقّدة حتى ظهر كتاب «جلفر» هذا . واتفق انهُ يوم وصولهِ الينا زارنا صديقنا المذكور فقلنا لهُ ها ضالتك المنشودة . فتهللت اساريرهُ اذ رأى الكتاب . وهو مَن قرأ جلفر باللغة الانكليزية ، وعرف مقامهُ في ما يسمونهُ « بادب الاحداث » Childrin's Literature في انكلترا وذهب من ساعتهِ يقتني لابنهُ نسخة منهُ

ولسنا نملك الآن نسخة انكليزية من رحلات جلفر لنتمكن من الموازنة بين الترجمة والاصل وهل الترجمة ادبية دقيقة او هي من قبيل نقل ما فيها من الافكار والآراء والحوادث فقط . ولكن سواء أكانت ترجمة كيلاني ترجمة حرفية او غير حرفية فلاريب عندنا في ان هذا الكتاب من خير ما يقرأهُ الاحداث . وبهذا الحال نوعي المؤلف باستخراج كتاب على نسق « جلفر » من رحلات الروّاد المحدثين . فاوهام سوفت ومخترعاته في « جلفر » تحلُّ محلّها حقائق الرياضة الحديثة وغرائبها وإقدام الروّاد وتفانيهم ، في الكتاب الذي نقترحهُ ، فيكون هذا الكتاب الدرجة التي تتلو « جلفر » في سلسلة « أدب الاحداث » . وكل الآباء والمعلمين يشعرون بشديد حاجتنا الى هذه السلسلة المتدرجة مع فهم الاحداث وذوقهم الادبي

[المقتطف] سرَّنا ما رأيناهُ من اقبال القرّاء على ما ننشر في هذا الباب من المباحث في المطبوعات الحديثة . فتوسعنا فيهِ جهدنا . ولكنهُ مع ذلك ضاق عن ان يتسع لذكر كل المطبوعات التي اهديت الينا . فوعدنا بها الشهر القادم ان شاء الله

الجزء الرابع من المجلد الثاني والثمانين

صفحة
٣٧٩ التكنوقراطية والازمة. لفؤاد صرّوف (مصوّرة)
٣٨٧ النفس العالم. جون بريستلي (مصوّرة)
٣٩٦ الصحراء. لاحمد محمد حسنين بك
٤٠٩ موت البلبل (قصيدة). لحسن كامل الصيرفي
٤١٠ الرحلة والرحالون. لنقولا زيادة
٤١٤ التوائم والمحيط. للدكتور شريف صيران
٤١٨ مكانك يا عشق (قصيدة) لبشر فارس
٤١٩ جان جاك روسو (مصوّرة). لجورج نيقولاوس
٤٢٨ ما هو العلم. ليعقوب فام
٤٣٣ الحضارة الفينيقية. للشيخ بولس مسعد
٤٣٩ ثورة الشاعر (قصيدة). م. ع. الهمشري
٤٤٠ كتاب الاغاني. لعبد الحميد سالم
٤٤٤ الابعاد الاربعة (مصوّرة). لنقولا الحداد
١٥٤ شهيد الخرطوم. غوردون باشا (مصوّرة)
٤٥٦ تيارتان (قصيدة). للنسيب عريضة
٤٥٧ موقف الاموريين من الدعوة الاسلامية. لأمين سعيد
٤٦٣ معرض المذاهب السياسية. للدكتور عبد الرحمن شهبندر

٤٦٩ باب الزراعة والاقتصاد * المراد. للدكتور هلال فارسي
٤٧٦ باب شؤون المرأة وتدبير المنزل * الصحة الجنسية والنشء. للدكتور محمد زكي شافعي. خالد الديب. نقولا شكري
٤٨٣ باب المراسلة والمناظرة * الشريف الكتاني (مصورة). لمحمود محمد شاكر. حقائق جديدة عن الربع الخالي. لفؤاد حمزة. تصحيح كتاب الزهرة لابوهيم طوقان. تنقيط الياء في آخر الكلم. لعبد القدوس الانصاري
٤٩١ مكتبة المقتطف * ملكة اورشليم اللاتينية. اقفاص محترقة. نابغة بني شيبان. حكم الامم. كتاب الجمع المصري لثقافة العلمية. الضحايا. الانشاء التعليمي. علم استخلاص المعادن. أغاني أبي شادي. الطيّ. شرح بشاره يوحنا. جلفر

المقتطف في الشرق الادنى

تطلب اعداد المقتطف في جميع بلدان الشرق الادنى — فلسطين وسورية وشرق الاردن ولبنان والعراق — ومن فروع شركة فرج الله للسياحة في القنطرة وحيفا ويافا والقدس وبيروت وبغداد

مجلة الشرق

ادبية سياسية مصورة

انشئت للدعاية عن الشؤون البرازيلية ومآتي النزلاء الشرقيين في البرازيل تصدر باللغة العربية مرتين في الشهر — صاحبها ومحررها الاستاذ موسى كريم ويشترك في تحريرها طائفة من اكبر ادباء العربية في البرازيل

وبدل اشتراكها ٢٤٠ قرشاً صاغاً

وعنوانها Journal Oriente

Caixa Postal 1402, Sao Paulo, Brazil

الاصلاح

مجلة شقيقة علمية

تصدر مرة في الشهر في بونس ايرس عاصمة الارجنتين

لصاحبها ومنشئها الدكتور جورج صوايا

عنوانها شارع سان مرتين ٦٤٠ بونس ايرس

قائمة سلسلة المطبوعات العصرية

التي عنيت بنشرها ادارة المطبعة العصرية بشارع الخليج الناصري رقم ٦ بالفجالة بمصر

صندوق بوستة ٩٥٤ مصر تليفون رقم ٣٦ ٠ ٥٩

٣٥	القاموس العصري انكليزي عربي (طبعة ثانية)
٧٠	القاموس العصري انكليزي عربي (طبعة ثالثة)
٣٥	القاموس العصري عربي انكليزي (طبعة اولى)
٧٠	القاموس العصري عربي انكليزي (طبعة ثانية)
٣٥	القاموس الدرسي عربي انكليزي وبالعكس
٣٠	قاموس الجيب عربي انكليزي وبالعكس
٢٠	قاموس الجيب انكليزي عربي فقط
١٥	قاموس الجيب انكليزي عربي فقط
٧٠	« سقراط سيرو عربي انكليزي (بالنقط)
٥٠	« سقراط سيروا نكليزي عربي (بالنقط)
١٠٠	« سقراط انكليزي عربي وبالعكس
١٠	التحفة المصرية لطلاب اللغة الانكليزية (مطول)
١٢	الهدية الفلسفية لطلاب اللغة الانكليزية (بالنقط)
١٥	في اوقات الفراغ (للدكتور محمد حسين هيكل بك)
١٠	عشرة ايام في السودان « « «
١٢	مرايضات في الادب والفنون للاستاذ عباس العقاد
١٥	روح الاشتراكية (لموستاف لوبون) وترجمة (للاستاذ محمد زعيتر)
١٥	روح السياسة « « «
١٠	الاراء والمعتقدات « « «
١٠	اصول الحقوق الدستورية « « «
٢٠	الحضارة المصرية (لموستاف لوبون)
٨	مقدمة الحضارات الاولى « «
١٠	الحركة الاشتراكية (رمسي مكدونلد)
١٥	ملتقى السبيل في مذهب النشوء والارتقاء
١٠	اليوم والغد (للاستاذ سلامه موسى)
١٠	مختارات سلامه موسى
٨	نظرية التطور وأصل الانسان « «
٢٠	اقاتول فرانس في مدينته (الاميرشكيب ارسلان)
١٥	الدنيا في اميركا (للاستاذ امير بقطر)
١٠	المرأة الحديثة وكيف نسوسها (حسين عبدالله)
١٠	حصاد الهشيم (للاستاذ ابراهيم عبدالقادر المازني)
١٠	قبض الريح (« « « « «)
٨	نسمات وزوابع نمير منثور معصور
١٠	رسائل غرام جديدة (للاستاذ سليم عبدالواحد)
١٠	الغزل في الادب العصري (للاستاذ خائيل نعيمة)
٥	حكايات للاطفال ٤ اول (مصور بالالوان)
٥٠	« « ثان « «
١٠	التربية الاجتماعية (للاستاذ علي فهمي)
٥	خواطر حائر (للاستاذ الجلي)
٥	التعليم والصحة
١٥	الحب والزواج (للاستاذ نقولا حداد)
١٥	ذكرا وانثى خلقهم « « «
٥٠	علم الاجتماع (جزآن كبيران) «
١٥	اسرار الحياة الزوجية « «
٢٥	المرأة وفلسفة التناسليات (للدكتور نظمي)
٣٠	الامراض التناسلية وعلاجها « «
١٥	الزبقة الحمراء (للاستاذ احمد الصاوي)
١٠	تايبس « « «
٥	مكايد الحب في تصور المغوله (اسعد خليل داغر)
١٠	القصص العصرية (٨٠ قصة كبيرة مصورة)
١٠	مسارح الافعاني (٣٥ قصة كبيرة مصورة)
١٢	رواية اموال الاستبداد ٤ مصورة
١٠	رواية فتنة المهدي ٤ او استبداد السودان
٨	رواية الانتقام الغريب (اسعد خليل داغر)
٥	فقر وعفاف (للاستاذ احمد وافت)
١٢	رواية باريزيت ٤ مصورة (توفيق عبد الله)
١٢	غرام الراهب او الساحرة المجدورة
٧٥	رواية روكامبول ٤ ١٧ جزء (طانيوس عبده)
٢٥	رواية ام روكامبول ٤ ٥ اجزاء «
٢٠	رواية باردليان ٤ ٣ اجزاء «
٢٠	رواية الملكة ايزابيو ٤ اجزاء «
٢٠	رواية الاميرة فوستا ٤ جزآن «
٢٠	رواية عشاق قبرص ٤ جزآن «
١٦	رواية كابيتان ٤ جزآن «
١٦	رواية الوصية الحمراء ٤ جزآن «
١٢	رواية الميرج ٤ جزآن «
١٠	رواية فرس الملك «
١٠	رواية ضحايا الانتقام «
٥	رواية المتنكرة الحسناء «
٥	رواية سروحة الاسود «
٥	رواية شهداء الاخلاص «
٨	رواية المرأة المفترسة «
١٦	رواية دار العجائب جزآن (نقولا رزق الله)
٠	« قرنسوا الاول « «